الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

جامعة المرقب

كلية الآداب والعلوم زليتن

الدراسات العليا ـ قسم التاريخ

بحث مقدم استكمالاً لمتطلبات الإجازة العالية (الماجستير)

في التاريخ القديم

بعنوان

التاريخ السياسي والاقتصادي لشمال أفريقيا أثناء حكم الإمبراطور جستنيان

(٥٢٧ ـ ٥٦٥ م)

إعداد الطالب :

مفتاح محمد الناجوري

إشراف الدكتور :

أحمد محمد انديشة

العام ٢٠٠٧ ف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى
الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣)
فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ
وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ
مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) ﴾

صدق الله العظيم

سورة الروم(الآيات : ١-٥)

الإهداء

إلى من أمدني بالغالي والنفيس وكان نعم السند إلى أبعد حد

" أبي العزيز "

إلى من كانت دعواتها سر نجاحي ...

إلى من عانت ما عانت لأبلغ مرادي...

" أمي الغالية "

إلى من حبهم يجري في عروقي وإلى من عاشوا معي حلو الحياة ومرها

" أخوتي وأخواتي"

إلى أهل الوفاء ... ومنبع الإخاء ... ورصيدي في الحياة

" الأحباب والأصدقاء "

إليهم جميعاً أهدي هذا العمل المتواضع

✍.....الباحث

قائمة الاختصارات

Afr.Hist	L`Afrique Byzantine Histoire de la Domination Byzantine en Afrique (533-709).
Anc. Rom	The Ancient Romans.
App.His.Afr	Appendices a L'Histoire D'Afrique sous la domination Byzantine.
Byz.Gre.Dec	Byzantium: Greatness and Decline.
Capsa	Capsa Les Vestiges De La Cite Latin De Cafsa.
C.T	Les Cahiers de Tunisie.
Dec.Anc.Wor	The Decline of the Ancient world.
Etu.Byz	Etudes Byzantines.
Far.Fron.Exp	Farmers and Frontiers. Exploiting and Defending the Countryside of Roman Tripolitania.
Fro.Def.Byz	Frontier Defence in Byzantine Libya.
Geog	The Geography of Strabo.
Gra.Pro.Afr	Les Grands Proprietaires Africains et L'etat Byzantin(533- 709).
Hist.War	History of the Wars.
J.R.S	The Journal of Roman Studies.
Just.Civi.Byz	Justinien et la Civilisation Byzantine au VIe siẻcle.
Lat.Rom.Emp	The Later Roman Empire 284-602, A Social Economic and Administrative Survey.
Lagu.Lib	The Laguatan: A Libyan Tribal Confedertion In the Late Roman Empire.
L.C.L	The Loeb Classical Library.
L.H	Libya in History.
L.S	Libyan Studies.
Nat . Hist	Natural History.
P.B.S.R	Papers of the British School at Rome.
Pré.His.Afr	Précis de L`Histoire D`Africque Sous la domination Byzantine.
Reco. Byz. Afr	Points de vue sur la Reconquête Byzantine de L'Afrique au VI siècle.
Rom. Emp	The Roman Empire 27.B.C.A.D.476.
Sur.Col.Byz	Sur le Colonat Byzantin en Afrique.
Tripol	Tripolitania.
Vil.Ant.Vil	De La Ville Antque à la Ville Byzantine: Le Probleme des subsistances.

المحتويات

المقدمة

لقد كان لانقسام الإمبراطورية الرومانية في عام ٣٩٥ م بين ولدي الإمبراطور ثيودوسيوس الأول إلى قسمين : شرقي من نصيب أركاديوس ، وغربي من نصيب هونوريوس أثره الكبير في تزعزع حكم ونفوذ الإمبراطورية الرومانية ونقطة تحول كبيرة لا على مسيرة تاريخ الإمبراطورية فحسب بل حتى على الأقاليم والولايات التي كانت خاضعة لتلك الإمبراطورية ولقرون عدة .

فمنذ نهاية القرن الرابع الميلادي قامت الشعوب المتبربرة ـ حسب النظرة الرومانية ـ بالإغارة على أجزاء عديدة من الإمبراطورية الرومانية في غرب وشرق قارة أوروبا وفي شمال أفريقيا وكان أحد هذه الشعوب الشعب الوندالي الجرماني الأصل ، الذي ما أن استوطن : جنوب شبه جزيرة أيبيريا حتى أخذ الوندال يتطلعون لغزو شمال أفريقيا نظراً لقربه وسهولة غزوه وما يتمتع به هذا الإقليم من ثروات زراعية وافرة والذي كان يسمى حتى ذلك الوقت " **ببلاد الزيتون والقمح** " فلم يمض وقت طويل حتى استطاع الوندال بحنكتهم السياسية ومهارتهم البحرية الكبيرة في تلك الفترة غزو شمال أفريقيا بقيادة ملكهم جيزريك في سنة ٤٢٩ م .

ظل شمال أفريقيا يرزح ردحاً من الزمن تحت سيطرة الوندال حتى تولى جستنيان عرش الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية في سنة ٥٢٧ م، وكان الإمبراطور جستنيان منذ بداية حكمه راغبًا باستعادة ذلك الإقليم المفقود وضمه إلى إمبراطوريته ، وله في ذلك غايات وأسباب .

كانت أولى الولايات والأقاليم المفقودة التي يمكن أن تتيح لجستنيان الفرصة لتحقيق أحلامه ومطامعه هي ولاية أفريقيا ، حيث استغل جستنيان الأوضاع السياسية والاقتصادية ، وكذلك الدينية السيئة في هذه الولاية وتذمر السكان المحليين ومقاومتهم للونداليين ،فضلاً عن النزاع الذي نشب بين أمراء البيت الوندالي ، فشرع في استعادة هذا الإقليم بإعداد حملة عسكرية بقيادة بليزاريوس في سنة ٥٣٣ م ، ولم يمضِ عام واحد حتى تمكن جستنيان من إعادة أجزاء كبيرة من شمال أفريقيا إلى حظيرة الإمبراطورية البيزنطية ، وأصدر في أبريل عام ٥٣٤ م مخططاً جديداً بغية تنظيم

الإدارة البيزنطية الأفريقية ، والتي اقتبست من التنظيم الروماني السابق بعد إجراء التعديلات اللازمة عليه إذ لم تعد أفريقيا تتبع روما مباشرة كما كان الحال قائماً في القرن الرابع بل أصبحت ولاية مستقلة لها إدارتها الخاصة بها.

ومع أن الاحتلال البيزنطي كان سريعاً إلاّ أن هذه السرعة الزمنية إذا ما قيست بسرعة الإخفاقات وسوء النتائج لا يمكن أن يكتب لها أسباب النجاح والدوام ، إذ أن هذا الاحتلال كان احتلالاً ضعيفاً ومحدداً، ذلك أن جستنيان قد أغفل أمراً هاماً كان لا بد أن يحسب له حساباً كبيراً وهو سكان البلاد الذين سارعوا من قبل على إدخال الوندال وهم أنفسهم الذين ساعدوا على إسقاطهم، وهذا الأمر ينطبق تماماً على البيزنطيين إذ سرعان ما اشتعلت الثورة في أنحاء كثيرة من شمال أفريقيا ضد البيزنطيين وظلت فيما بين عامي ٥٣٥ ـ ٥٤٨ م ، وقد بذل أفضل قواد الإمبراطورية " بليزاريوس، جرمانوس، صولومون، تروجليتا " جهودهم عبثاً خلال خمسة عشر عاماً لإعادة السيطرة البيزنطية الكاملة على البلاد .

ولكن مع ذلك كله لا يمكن إغفال أعمال جستنيان في شمال أفريقيا باعتباره إقليماً مهماً للإمبراطورية البيزنطية والذي يحظى باهتمام هذا الإمبراطور إدارياً وعسكرياً ، وكيف لا يكون ذلك وهو الذي كان يعتقد بأن عظمة الإمبراطورية لا يجب أن تسند إلى القوة العسكرية وحدها ، وإنما يجب أن ترتكز على قوة القانون وحسن التنظيم والقيادة أيضاً .

إن موضوع هذه الدراسة يعد من المواضيع التي يمكن تصنيفها ضمن مرحلة نهاية التاريخ القديم ، أو على أبعد تقدير ببدايات تاريخ العصور الوسطى المتعلقة بشكل خاص بشمال أفريقيا، وعلاقته بالإمبراطورية البيزنطية والذي يتناول على وجه التحديد " التاريخ السياسي والاقتصادي لشمال أفريقيا أثناء حكم الإمبراطور جستنيان ٥٢٧ ـ ٥٦٥ م "

هذا وتتضح أهمية الموضوع في كون الفترة التي يتناولها تمثل نقطة تحول كبيرة ومنعطفاً تاريخياً مهماً للشمال الأفريقي ، كما أن هذه الفترة مليئة بالأحداث والمتغيرات التي تركت آثاراً وبصمات واضحة في كافة النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وحتى الثقافية والتي لا زالت شاخصة للعيان في تاريخ هذه المنطقة .

وبما أن هذا الموضوع يتناول التاريخ السياسي والاقتصادي لشمال أفريقيا في زمن الإمبراطور" جستنيان " فإن الباحث يحاول قدر الإمكان حصر هذا الموضوع في إطاره الزمني والمكاني وكذلك الموضوعي ، حرصاً منه على وحدة الموضوع والتسلسل الزمني للأحداث .

في حقيقة الأمر إن ما جعلني أفكر جيداً في اختيار هذا الموضوع لم يكن من قبيل الصدفة وإنما نتيجة قراءات شخصية سابقة ، وإن لم تكن في البداية لهذه الفترة التاريخية تحديداً ، ويمكن حصر الأسباب الرئيسة لاختيار موضوع الدراسة في الآتي :

أولاً: أسباب تتعلق باختيار الموضوع من حيث الرقعة الجغرافية وهي :

١. إن الدارس لتاريخ شمال أفريقيا القديم والوسيط يتضح له من الوهلة الأولى مدى ترابط هذه المنطقة وتماسكها من حيث النسيج الاجتماعي والتنظيم السياسي وعلى فترات مختلفة ، ومن هنا كانت رغبة الباحث وحرصه على دراسة هذه المنطقة ككتلة واحدة دون تقسيم أو تجزئة .

٢. الأهمية السياسية والاقتصادية التي يتمتع بها شمال أفريقيا والذي كان محط أنظار العديد من الشعوب والدول والتي سعت باستمرار للسيطرة عليه لاسيما البيزنطيين .

ثانياً: أسباب تتعلق باختيار الموضوع من حيث الفترة الزمنية وهي :

١. إن هذه الفترة تمثل فترة حكم أعظم أباطرة الإمبراطورية الرومانية في تاريخها القديم والوسيط ، إذ كان الإمبراطور جستنيان المنقذ الحقيقي للإمبراطورية مما تعانيه من مشاكل كثيرة في ذلك الوقت وأخر سقوطها حتى منتصف القرن الخامس عشر ، ومن الأهمية بمكان أن يحظى هذا الإمبراطور وأعماله في شمال أفريقيا بالاهتمام والدراسة.

٢. على الرغم من أن الفترة التي يتناولها موضوع الدراسة قصيرة نسبياً فإنها مليئة بالأحداث التاريخية المهمة التي لا يمكن تجاهلها وإغفالها على كافة النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وكذلك الثقافية في شمال أفريقيا من جهة وفي الإمبراطورية البيزنطية من جهة أخرى .

ومن خلال الدراسة والبحث ظهرت للباحث جملة من التساؤلات تتطلب الإجابة عنها إجابة علمية وموضوعية، وكان من ضمن هذه التساؤلات .

ما الذي تشكله منطقة شمال أفريقيا من أهمية جغرافية في ذلك الوقت ؟ وما هي العلاقات التي ربطت المنطقة بالإمبراطورية البيزنطية ؟ ثم ماذا كان وضع هذه المنطقة وأحوالها قبيل الاحتلال البيزنطي ؟ .

بالإضافة إلى ذلك من هو الإمبراطور جستنيان ؟ وما هي الأسباب والدوافع التي جعلته يحتل شمال أفريقيا ؟ وهل تعرض البيزنطيون للمقاومة والثورة من قبل السكان المحليين ؟.

وعلى الصعيد الاقتصادي كيف كانت تعيش المنطقة اقتصادياً قبيل الاحتلال البيزنطي ؟ وما هي السياسة الاقتصادية البيزنطية في شمال أفريقيا ؟ وما هي المشاكل التي واجهتها ؟ فضلاً عن ذلك . ما هي النظم الإدارية التي وضعها البيزنطيون في المنطقة وهل كانت التقسيمات الإدارية وفق اعتبارات سياسية واجتماعية اقتضتها المصلحة البيزنطية أم لأسباب أخرى ؟ ثم ما هي النظم الدفاعية والحربية وكيف كانت ؟ وما هي سماتها ؟ وأخيراً ما هي أهم الصعوبات التي واجهها الجيش البيزنطي في شمال أفريقيا.

مع اختلاف المناهج التاريخية واختلاف المواضيع والفترات فإن الباحث سيحاول الاعتماد على المنهج التاريخي السردي التحليلي ، ذاكراً وواصفاً معظم الأحداث التي ستتناولها هذه الدراسة ، ووصولاً إلى نتائج علمية دقيقة مستندة على عدة مصادر ومراجع ، فإن الباحث سعى إلى تصنيف المادة التاريخية وفحصها ونقدها، سيما وأن هذا الموضوع قد كتب فيه من وجهة نظر واحدة في الغالب ألا وهي نظرة المحتل أو من يدافعون عن هذا الاحتلال بكونه احتلالاً مشروعاً ومبرراً .

استقى الباحث معلوماته ومادته التاريخية من مصادر عربية وأجنبية ، إلا أن التركيز على المصادر والمراجع الأجنبية كان له النصيب الأكبر في هذه الدراسة .

إن أهم المصادر التي يمكن للباحث والدارس للتاريخ القديم والوسيط أن يعتمد عليها هي ما تضمنته سلسلة لويب للدراسات الكلاسيكية (The Loeb Classical Library) كمؤلفات هيردوت وبليني وسترابو وغيرها من المصادر الأخرى، على أن أهم المصادر المتعلقة بهذه الدراسة تتمثل في مؤلفات المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس القيصري (Procopius of

Caesarea) الـذي يعطـي كتابـه تـاريخ الحـروب (History of the Wars) تفصـيلاً واضـحاً لحـروب الإمبراطـور جسـتنيان ضـد الونـدال والقـوط والفـرس، وسـكان الشـمال الأفريقـي ، فـي حـين اخـتص كتابـه الآخـر بدراسـة التحصـينات الدفاعيـة والمبـاني المدنيـة والكنـائس ويسـمي هـذه الكتـاب بالبنايـات (Buildings).

أمـا عـن كتـاب هـذا المـؤرخ المثيـر للجـدل مـن حيـث أنـه يظهـر مسـاوئ الإمبراطوريـة البيزنطيـة وسـقطات الإمبراطـور جسـتنيان وفسـاد حاشـيته وقادتـه، فيعـرف بالتـاريخ السـري (The Anecdota or Secret History)، إضـافة إلـى ذلـك فـإن مـن المصـادر الأخـرى التـي أرَّخـت لـنفس هـذه الفتـرة الملحمـة الشـعرية المطولـة للشـاعر كوريبـوس التـي تناولـت سـيرة القائـد البيزنطـي جـون تروجيليتـا ومقاومـة السـكان المحليـين العنيـدة للبيـزنطيين، وهـي مـن ترجمـة محمـد الطاهر الجراري تحت عنوان: (ملحمة الحرب الليبية الرومانية).

بالنسـبة للمراجـع العربيـة والمعربـة وكـذلك الأجنبيـة فهـي كثيـرة جـداً ومـن هـذه المراجـع كتـاب (تـاريخ المغـرب الكبيـر)، الجـزء الثـاني للسـيد عبـد العزيـز سـالم والـذي يتنـاول فـي جـزء منـه الاحـتلال الونـدالي والبيزنطـي لشـمال أفريقيـا والجغرافيـة الطبيعيـة والبشـرية لهـذه المنطقـة، وكـذلك كتـاب(تـاريخ أفريقيـا الشـمالية، تـونس والجزائـر والمغـرب مـن البـدء إلـى الفـتح الإسـلامي)، لشـارل أندريه جوليان.

أمـا عـن أعظـم المشـتغلين بالدراسـات البيزنطيـة والـذين اعتمـدت علـيهم هـذه الدراسـة فتتمثـل فـي المـؤرخ بيـوري وجـونز وتشـارلز ديـل، إضـافة إلـى فيزيلييـف وستورجورسـكي وسـوزان رافـين. هـذا وتمثـل المقـالات القيمـة لشـارل صـوماني إضـافة جيـدة لموضـوع هـذه الدراسـة مـع بعـض المقـالات والبحـوث الأخـرى مـن مجلة الكراسات التونسية(Les Cahiers de Tunisie).

لقـد قسـمت خطـة البحـث إلـى مقدمـة وتمهيـد وأربعـة فصـول وخاتمـة، إضـافة إلـى ملحـق للخـرائط والأشـكال، وقائمـة للمصـادر والمراجـع، وهـي تفصـيلاً على النحو التالي.

التمهيد:

يدرس التمهيد بصورة رئيسة أهمية التحديد الجغرافي لشمال أفريقيا من حيث التطور التاريخي والسياسي الذي مرت به المنطقة وحدود وأسماء هذه المنطقة عبر هذا التطور، فضلاً عن دراسة أهم ملامح الجغرافيا الطبيعية للشمال الأفريقي من سهول وجبال وتضاريس ومناخ.

الفصل الأول: علاقة البيزنطيين بشمال أفريقيا ٣٩٥ - ٥٣٣ م .

هذا الفصل خصص لدراسة انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى إمبراطوريتين، شرقية ومركزها القسطنطينية، وغربية ومركزها روما مع التركيز على الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) وموقفها من الاحتلال الوندالي لشمال أفريقيا، وصولا إلى زمن الإمبراطور جستنيان وكيفية توليه الحكم، وأهم المشاكل التي واجهها في بداية حكمه.

الفصل الثاني: السيطرة البيزنطية على شمال أفريقيا وأهم نتائجها .

يتطرق هذا الفصل إلى الحديث عن الأسباب والدوافع التي جعلت البيزنطيين يحتلون المنطقة وعن الاستعدادات العسكرية والسياسية المتبعة قبل وأثناء الاحتلال من قبل البيزنطيين، فضلا عن تحرك القوات البيزنطية إلى الشمال الأفريقي والمعارك التي خاضتها مع القوات الوندالية، ثم ما آل إليه الأمر بعد ذلك من نشوب ثورة السكان المحليين ضد هذا الاحتلال وغير ذلك من التطورات السياسية حتى نهاية حكم الإمبراطور جستنيان.

الفصل الثالث: الحياة الاقتصادية في شمال أفريقيا أثناء حكم الإمبراطور جستنيان (دراسة مقارنة مع العصر الوندالي) .

هذا الفصل يتناول الأوضاع الاقتصادية التي كانت سائدة في المنطقة قبيل مجيء البيزنطيين، ثم النشاط الاقتصادي الذي كان معاشا أثناء فترة هذا الاحتلال والمتضمن للنشاط الزراعي وتربية الحيوانات والرعي والصيد، ثم النشاط التجاري وأهم مقوماته، وأخيرا الصناعات والحرف التي كانت موجودة في تلك الفترة مع عدم إغفال السياسة الاقتصادية للبيزنطيين نحو هذه الأنشطة من حيث القوانين والنظم الاقتصادية البيزنطية.

إضافة إلى ذلك فإن دراسة هذا الفصل قد عمدت إلى عقد مقارنة بين الحياة الاقتصادية زمن الإمبراطور جستنيان وما كان عليه الوضع الاقتصادي في العصر الوندالي هذا مع دراسة أهم العوامل المؤثرة في النشاط الاقتصادي في شمال أفريقيا.

الفصل الرابع: النظم الإدارية والدفاعية للبيزنطيين في شمال أفريقيا أثناء حكم الإمبراطور جستنيان .

يتضمن هذا الفصل النظم الإدارية والدفاعية نظراً لارتباطهما الشديد بالحياة السياسية والاقتصادية، وقد استهل بلمحة تاريخية عن النظم الإدارية والدفاعية قبيل الاحتلال البيزنطي، ثم تناول بعد ذلك النظم والتقسيمات الإدارية كالولايات والقنصليات وصولاً إلى دراسة النظم الدفاعية من حيث تشكيلات الجيش البيزنطي وإدارته العسكرية والتحصينات الدفاعية من حصون وقلاع وأسوار ، هذا وتم التطرق إلى أهم المشاكل التي واجهت المؤسسة العسكرية البيزنطية في شمال أفريقيا والتي تضمنت بشكل رئيس الفوضى العسكرية داخل الجيش البيزنطي، والأساليب الحربية والفنون القتالية التي تميزت بها القبائل المحلية في مواجهتها للقوات البيزنطية.

مع أنه ما من عمل إلا وله أخطاؤه وهفواته فأعمال بني البشر ناقصة على الدوام والكمال لله وحده، فإن الصعوبات التي واجهتني في هذه الدراسة كثيرة ومتعددة بدءاً بندرة الدراسات البيزنطية المتخصصة في شمال أفريقيا تاريخياً وأثرياً في هذه الفترة ومروراً بعدم توفر أية دراسة تعطى تصوراً هيكلياً واضحاً لموضوع بحثي بشكل عام أو جزئي، وصولاً في النهاية إلى قلة ترجمات الكتب والمؤلفات الأجنبية، وعدم إلمامي شخصياً بصورة جيدة بلغة هذه الكتب والمؤلفات مما زاد من صعوبة بحثي وطول مدة دراستي لهذا الموضوع.

على أية حال رغم هذه الصعوبات فإن هناك من كان سبباً في تذليل هذه الصعاب وتجاوز بي العديد من العقبات، ولذا فإني أتقدم بوافر شكري وتقديري البالغين إلى كل من ساهم في هذا العمل: إلى أستاذي الفاضل الدكتور أحمد

محمـد أنديشـة الـذي كـان تشـجيعه لـي منـذ دراسـتي فـي مرحلـة الدراسـات العليـا سـبباً فـي دخـولي هـذا التخصـص، والـذي لـم يبخـل علـي بشـيء طـوال فتـرة الدراسة والبحث.

كمـا أتقـدم بشـكري إلـى العـاملين بمكتبـة كليـة الآداب والعلـوم بـزليتن وكـل من ساعدني وشجعني من زملائي في قسم التاريخ بالكلية .

والشـكر موصـول إلـى مـوظفي مكتبـة مركـز جهـاد الليبيـين للدراسـات التاريخيـة الـذين كـانوا خيـر عـون لـي فـي حصـولي علـى الكتـب والـدوريات العلميـة الخاصـة بموضـوع بحثـي، وإلـى جامعـة قـاريونس والعـاملين بالمكتبـة المركزيـة فيهـا، وأخـص بالـذكر أيضـا مـن جامعـة قـاريونس الأسـتاذ الـدكتور الطيـب احمـادي والـدكتورة زكيـة بـن ناصـر علـى مسـاعدتهما وتـذليلهما لـبعض الصعوبات التي واجهتني.

أخيـراً ولـيس آخـراً أقـدم شـكري وتقـديري إلـى جامعـة التاسـع مـن أفريـل بتـونس العاصـمة علـى مـا أبـداه موظفـوا مكتبتهـا مـن خدمـة جليلـة بمسـاعدتي علـى الحصـول علـى المراجـع الفرنسـية والعربيـة المهمـة التـي خـدمت موضـوع دراسـتي أيمـا خدمـة، وإلـى كـل زملائـي التونسـيين فـي قسـم التـاريخ الـذين سـاعدوني فـي الوصول إلى تلك المصادر والمراجع .

والله من وراء القصد.

التمهيد.

أولاً : أهمية التحديد الجغرافي لشمال أفريقيا

اكتسب شمال أفريقيا (المغرب القديم)[١] مفهوماً جغرافياً تذكره المصادر القديمة بتعريفات وأسماء مختلفة، فقد عُرفت المنطقة التي تقع إلى الغرب من نهر النيل في الكتابات المصرية القديمة بأرض الغرب (أمنت Imnt)[٢] ، وورد في بعض تلك الكتابات أن هذه المنطقة كانت موطناً لعدد من القبائل التي اشتهرت في تاريخ مصر الفرعونية ومنها قبائل (الليبو) و(التحنو) و(المشواش)[٣].

ويشير هيرودوت[٤](القرن الخامس قبل الميلاد) في هذا الصدد إلى أن ليبيا كان يحيط بها البحر من جميع الجهات إلا من جهة اتصالها بآسيا . إذ كان الاعتقاد السائد عند الإغريق أن العالم يتكون من ثلاثة أجزاء هي أوروبا وآسيا وليبيا[٥] على أن الإغريق أنفسهم قد عرفوا ليبيا بأنها تلك البلاد التي كانوا يسكنونها[٦] وتحيط بمدنهم الخمس البنتابوليس (Pentapolis)[٧]، ثم ما لبث أن أطلقوا على قارة أفريقيا اسم ليبيا[٨]حسب مفهومهم القديم للقارة .

---

(١) لقد دأب العديد من المؤرخين والجغرافيين المسلمين على تسمية شمال أفريقيا من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسي باسم المغرب تميزاً له عن الشرق الإسلامي ، ينظر : عبد الرحمن بن خلدون ، تاريخ بن خلدون ، ج ٦ ، دار الكتاب اللبناني ١٩٥٩م، ص ص ١٧٥، ١٩٣؛ ابن عذاري المراكشي، البيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج١، ط٣ ،الدار العربية للكتاب، بيروت، ١٩٨٣م ، ص٥ .

(2) **Bates, O., The Eastern Libyans; Frank cass & co. Ltd. London, 1970. p.48 .**

(٣) عبد العزيز طريح شرف ، جغرافية ليبيا ، ط٢ ، الإسكندرية ، ١٩٧١م، ص٦ .

(4)**Herodotus, Vol.II. Translated by Godley, A.D, (L.C.L), Harvard University Press, London ,1971 , IV . 42 .**

(5) **Ibid, I. II. 16 .**

(٦) محمد مصطفى بازامة، ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية ، سلسلة التاريخ الليبي، طرابلس، ١٩٦٥، ص٥٠.

(٧) عبد العزيز طريح شرف ، مرجع سابق ، ص ٦.

(8) **Pliny, Natural History, VoI.II Translated by Rackham, H.M.A,(L.C.L), Harvard University Press, London , 1969,V.I.1.**

وعندما استطاعت قرطاجة طرد جيش دوريوس (Dorieus) من نهر كنبس (Kinyps وادي كعام حاليا) عام ٥١٤. ق. م بالتعاون مع قبيلة المكاي الليبية[١] برهنت على حمايتها للمنطقة التي تعرف باسم المراكز التجارية أو أمبوريا (طرابلس)[٢]. وأصبحت على اتصال مباشر مع الإغريق عند حدود قورينا[٣] الأمر الذي أدى إلى دخول الطرفين في نزاع طويل حول ترسيم الحدود بينهما .

ولم ينته هذا النزاع إلا في حوالي منتصف القرن الرابع قبل الميلاد وذلك بتعيين الحدود عند مذابح الأخوين فيلاني[٤] (Philaeni) ويذكر سالوست[٥] (٨٦–٣٥ق م) وهو من الكتاب القدامى الذين تحدثوا عن قصة الأخوين فيلاني القرطاجيين أن الحد الفاصل بين قورينا وقرطاجة متمثل في سهل رملي مستو من حيث تضاريسه وليس به نهر أو جبل . أما سترابو[٦] فيجعل من برج إيوفرنتاس (Euphrantas) الحد الفاصل بين الأراضي القرطاجية والأراضي القورينائية الخاضعة لبطليموس .

---

(١) مصطفي كمال عبد العليم ، " الوطنية الليبية والحكم الأجنبي في العصر اليوناني والروماني " (ليبيا القديمة) دراسات وتقرير اليونيسكو ، المطبعة الكاثوليكية ، لبنان ١٩٨٨. ص ١٧٠.

(٢) تطلق طرابلس (Tripolis) على الإقليم الذي يضم المدن الثلاث أويا أو طرابلس (Oea) وصبراتة (Sabrata) ولبده الكبرى (Leptis Magna) وعن اسم هذا الإقليم وحدوده ينظر : محمود أبو حامد ، محمود النمس، مدينة طرابلس من الاستيطان الفنيقي حتى العهد البيزنطي ، الدار العربية للكتاب،طرابلس، ١٩٧٨م، ص ص ٨– ٩ ؛ ول ديورانت، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، ج١١، ط١ ، دار الجيل بيروت ، ١٩٩٢ ص ٣٣.

(٣) د. ي. هاينز ، دليل تاريخ وآثار منطقة طرابلس ، منشورات دار الفرجان ، طرابلس ، ليبيا ، ص٣١.

(٤) محمود النمس ، محمود أبو حامد ، دليل متحف الآثار بالسرايا الحمراء بطرابلس ، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ١٩٧٧، ص ص ١٢– ١٣ .

(٥) مفاد هذه القصة أن القرطاجيين والإغريق بعد النزاع الطويل على الحدود فيما بينهما حاولوا الوصول إلى اتفاق لترسيم الحدود وذلك بأن ينطلق من كل مدينة (قورينا – قرطاجة) رياضيان في وقت واحد وبعد أن قطع الأخوان فيلاني القرطاجيين ثلثي المسافة اعترض الإغريق على ذلك واشترطوا دفن الإخوين حيث وصلا كشرط للقبول برسم الحدود ، فما كان من الأخوين فيلايني إلا أن قبلا ذلك ، وفي حقيقة الأمر فإن هذه القصة مزيج من الحقيقة والخيال ولا يمكن التثبت من صحتها ينظر : سالوست، حرب يوغرطة، ترجمة وتعليق محمد التازي سعود، مطبعة محمد الخامس الجامعية والثقافية فاس ، ١٩٧٩، ص ص ١٦١– ١٦٢.

(6) **Strabo, The Geography of Strabo.,Vol.VIII,Translated by Horace Leonard Jones, (L.C.L) , Harvard University Press, London , 1961 , VIII. 17 .3 . 20.**

وقد عثر على آثار النصب التذكارى الذي انشأ حديثا، خلف الرأس العالي في خليج سرت[١]غير أنه قد بني بعد تحديد الحدود بين البلدين ، وقد عرف فيما بعد بإسم قوس فيلانوروم ثم قوس الرخام[٢].

أما بالنسبة لكلمة أفريقيا فإنها كانت تطلق في البداية علي قرطاجة ومناطق نفوذها قبل أن تشمل القارة بأسرها[٣]. ويبدو أن الفينيقيين هم أول من أشاع اسم أفريقيا والذي مرده إحدى القبائل المحلية القديمة[٤] التي كانت تسكن (أوتيكا) وقرطاجة وهي قبيلة أفري(Aphri)[٥].

غير أنه من المرجح أن مفهوم أفريقيا لم يتضح كمفهوم جغرافي وسياسي إلا في القرن الثاني قبل الميلاد عندما أطلق الرومان كلمة أفريكا (Africa) في لغتهم اللاتينية لأول مرة على كل المناطق التي خضعت لسيطرتهم شمال القارة[٦]، والتي تنحصر تقريباً بين طنجة غرباً وخليج سرت شرقاً[٧] وإن كان معنى أفريقيا عندهم يدل دلالة واضحة على منطقة قرطاجة القديمة وما حولها .

وتجدر الإشارة إلى أن معني كلمة ليبيا وأفريقيا ظل يعني مفهوماً جغرافياً غير محدد حتى وقت متأخر ، إذ يذكر بروكوبيوس[٨](القرن السادس الميلادي) أن الأرض التي على يسار النيل حتى تبلغ الأقيانوس (أعمدة هرقل) تدعى قارة ليبيا ثم يشير بوضوح إلى أن ليبيا تعني في زمانه إقليم المدن الخمس (Pentapolis) فقط ، إلا أنه ما يلبث بعد ذلك أن يستعمل كلمة ليبيا للدلالة على مناطق نفوذ الوندال ومن بعدهم البيزنطيين دون أن يضع تحديداً جغرافياً واضحاً .

---

(١) محمود النمس ، محمود أبو حامد ، مرجع سابق ، ص١٣.

(٢) د. ي . هاينز ، مرجع سابق ، ص ٣٢.

(٣) أ. ف.غوتييه، ماض شمال أفريقيا ، ترجمة هاشم الحسيني، ط١، منشورات دار الفرجاني، طرابلس، ١٩٧٠م،ص ٨٩.

(٤) محمد مصطفى بازامة ، ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية ، ص ص ٥١-٥٢.

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب الكبير ، ج٢، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٨١م،ص ١٢٧.

(٦) عبد العزيز طريح شرف ، مرجع سابق ، ص ٧.

(٧) اتوري روسي ، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م، ترجمة خليفة التليسي ، ط٢، الدار العربية للكتاب، طرابلس ،١٩٩١م، ص ٣٥.

(8)**Procopius, Buildings., Vol. VII, Translated by Dewing, H.B,(L.C.L), Harvard University Press ,London, 1971 , VI .I. 9-11, VI.IV. 6 .**

في حين لا يتوانى كوريبوس[١].(القرن السادس الميلادي) على استعمال كل من ليبيا وأفريقيا كمفهوم واحد دون تحديد جغرافي واضح .

أما حدود شمال أفريقيا والذي هو موضوع هذه الدراسة فيشمل الأجزاء الغربية من ليبيا وكذلك تونس والجزائر والمغرب بأسمائها الحالية شمال الصحراء الكبرى. وبذلك يمكن اعتبار منطقة خليج سرت الحد الشرقي للمنطقة[٢]. أما الصحراء الكبرى فتمثل الحدود الجنوبية والتي لا يمكن عزلها عن شمال أفريقيا[٣]والتي تمتد لتشمل أراضي الجرمنت[٤]في حين يشكل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط الحدود الغربية والشمالية[٥] وهي أوضح الحدود مقارنة بالحدود الجنوبية والشرقية .

ثانياً: أهم الملامح الجغرافية للمنطقة

تعد المنطقة من الناحية الجغرافية والمناخية إقليماً واحداً[٦]يجعل منها كتلة متراصة يصعب تجزئتها[٧] وعلى الرغم من هذه الوحدة الجغرافية والبشرية أيضاً فإن الرومان ما أن استطاعوا بسط نفوذهم عليها حتى قسموها إلى ثلاث ولايات رئيسية[٨]وهي :

١. الولاية الإفريقية : تضم منطقة قرطاجة العاصمة وبعض المناطق المجاورة لها.
٢. ولاية نوميديا : وعاصمتها كرتا (قسنطينة) .
٣. ولاية موريتانيا[٩]:وتنقسم إلى ولاية موريتانيا القيصرية وموريتانيا الطنجية.

---

(١) كوريبوس ، ملحمة الحرب الليبية الرومانية ، ترجمة محمد الطاهر الجراري ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، ١٩٨٨ م ، ص ص ٢٣-٢٥ ، ٢٧-٢٨ وغيرها .

(٢) شارل أندريه جوليان ، تاريخ أفريقيا الشمالية ، ترجمة محمد مزالي ، البشير بن سلامة ، ط ٥، الدار التونسية للنشر تونس ١٩٨٥ م ، ص٢٦.

(٣) عبد الفتاح الغنيمي ، موسوعة تاريخ المغرب العربي ، ط٢ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة، ١٩٩٤ ،ص١٨.

(٤) عبد الحفيظ الميار ، الحضارة الفينيقية في ليبيا ، ط١ ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس ، ٢٠٠١م، ص٢١.

(٥) عبد العزيز بنعبد الله ، مظاهر الحضارة المغربية ، ج٢، ، الجزائر ، ١٩٥٨م ، ص ١ .

(٦) عبد الفتاح الغنيمي ، مرجع سابق ، ص ٢٠.

(٧) عبد العزيز بنعبد الله ، مرجع سابق، ص ١٤.

(٨) رشيد الناضوري ، تاريخ المغرب الكبير ، ج١، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١ م، ص ٢٩١.

(٩) هذه الولايات الثلاث تكاد تطابق ما يعرف بالمغرب الأدنى والأوسط والأقصى عند المؤرخين والجغرافيين المسلمين ، ينظر : أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس دار النهضة العربية، بيروت ، ص ص ١١. ١٠.

ولعل من أبرز مظاهر جزيرة المغرب[١] المظهر الجغرافي المتمثل في جبال أطلس والتي يصفها هيرودوت بأنها جبال شديدة الارتفاع يطلق أهلها على قمتها عمود السماء[٢].

وتنقسم هذه الجبال في مجملها إلى سلسلتين واضحتين هما : أطلس الشمالية التي تمتد من الغرب إلى الشرق والتي تبدو على شكل قوس يحتضن الساحل الشمالي تاركاً سهلاً ضيقاً بين سبتة ومليلة ، وتعرف هذه الجبال محلياً باسم جبال الريف[٣]. أما جبال أطلس الجنوبية التي تمتد في جوف الصحراء[٤] فهي أكثر ارتفاعاً من سابقتها وتضم عدداً من السلاسل الجبلية مثل أطلس العظمي والوسطي والداخلية، وتعرف الأخيرة بجبال درن[٥]، وتمتد من المحيط الأطلسي إلى الشمال الشرقي لتونس[٦]. هذا ويعد جبل نفوسة امتداداً طبيعياً لسلسلة جبال الأطلس المعروفة بجبال درن في المغرب الأقصى والذي يحيط بمنطقة طرابلس الساحلية كالهلال ويفصل بينها وبين الصحراء الجنوبية[٧].

والظاهرة الأخرى هي ظاهرة السهول وتنقسم في أقصى الغرب إلى فرعين الأول ويمتد من مصب نهر تنسيفت إلى الملوية ، في حين يضم الفرع الثاني سهل حوز وسهل تادلا الكبير[٨] وينحصر السهل الساحلي للغاية في المغرب الوسط كما هو الحال في سهل زيق وسهل متدجا[٩] وتمتد السهول في الجنوب التونسي في منطقة لا

---

(١) أطلق بعض الكتاب اسم جزيرة المغرب على منطقة أفريقيا تمييزاً لسطحها الجبلي ولإحاطة البحر بها من معظم الجهات ، يراجع: ابن عذاري ، مصدر سابق ، ص ٦؛ أ.ف.غوتييه ، مرجع سابق، ص١٠٧؛ شارل اندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ١٢.

(2) **Herodotus, IV. 184 .**

(٣) محمد الشرقاوي، محمد الصياد، ملامح المغرب العربي، ط١، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٥٩م، ص ١٣.

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ١٣٠.

(٥) عبد الرحمن ابن خلدون ، مصدر سابق، ص ١٩٨.

(٦) محمد الشرقاوي ، محمد الصياد ، مرجع سابق ، ص ١٤.

(٧) سعد زغلول عبدالحميد، تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) ، ج١ منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٩٩م،ص ٧٤.

(٨) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق، ص ٢٢.

(٩) محمد الشرقاوي ، محمد الصياد ، مرجع سابق ، ص١٩.

يتجاوز عرضها ٢٠٠كم مارةً بسهل جفارة في منطقة طرابلس[١]. أما السهل الممتد من لبدة الكبرى إلى خليج سرت فإنه يمثل شريطاً ساحلياً ضيقاً[٢]، فضلاً عن هذا كله هناك سهول الأنهار والأودية في المنطقة والتي لا يمكن إغفالها .

وآخر النطاقات التضاريسية نطاق الصحراء وهو أعظم الظواهر الطبيعية في شمال أفريقيا حيث تنحدر في شكل هضبة تدريجياً باتجاه الشمال حتى تنتهي بصورة واضحة في منطقة خليج سرت الكبير[٣].

أما المُناخ فإن شمال أفريقيا يتأثر بموقعه بين المحيط الأطلسي والبحر المتوسط من جهة، والصحراء الكبرى من جهة أخرى[٤].ويمثل رأس أنغيلا(شمال تونس) أقصى نقطة في الشمال باتجاه البحر عند درجة ٣٧،٢٠ شمالاً[٥]، في حين يمثل خليج سرت الكبير النقطة الأقصى للبحر المتوسط باتجاه الجنوب[٦]، والمنطقة عموماً تقع فيما يعرف بمناخ البحر المتوسط الحار جاف صيفاً البارد ممطر شتاءً[٧]. ويصل معدل درجات الحرارة على السواحل ٢٥ درجة تقريباً ، إلا أنه في فصل الصيف عندما يطول النهار ويجف الهواء ترتفع درجات الحرارة بسرعة كبيرة لتتعدى٤٥ درجة مئوية أحياناً [٨].

ولما كان الاعتقاد السائد بأن المناخ هو أهم العوامل الجغرافية المؤثرة في شمال أفريقيا فإن المطر يعد من أبرز التغيرات المناخية[٩]، إذ تتمتع المناطق الساحلية بكميات كافية من الأمطار تصل إلى ٤٠٠ مم بمسافة تتراوح بين ١٠٠و٢٠٠ كم ولا

---

(١) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ٢٦.

(٢) عبد الحفيظ الميار ، مرجع سابق ، ص ٢٥.

(٣) تشكل منطقة خليج سرت الكبير خليجاً هلالي الشكل، طويلاً جداً يمتد لمسافة ستة أيام _ حوالي ١٢٠ميلاً_ و بالرغم من أن هذه المنطقة قاحلة وقريبة جداً من الصحراء إلا أنها آهلة بالسكان والمتمثلة في عدد من القبائل الليبية، يراجع : **Procopius, Buildings .,VI.III.1-8; Strabo, Geog., VIII.17.3.19-20 ;Pliny, Nat. Hist .,V. IV. 27-28 .**

(٤) محمد الشرقاوي ، محمد الصياد ، مرجع سابق ، ص ٢٦.

(٥) محمد رياض، كوثر عبد الرسول، أفريقيا دراسة لمقومات القارة، ط٢ ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣م، ص٧١.

(6) **Strabo ,Geog.,I . 2.5. 25.**

(٧) عبد الفتاح الغنيمي ، مرجع سابق ، ص ٢٦.

(٨) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ص ١٦ _ ١٧ .

(٩) عبد الحفيظ الميار ، مرجع سابق ، ص ص ٣٠. ٣١.

تتجاوز هذا العدد إلا نادراً[١]، ومرد هذه الأمطار هي الأعاصير التي تصل من المحيط الأطلسي إلى منطقة الضغط المنخفض النسبي في البحر المتوسط[٢] وتقل الأمطار باتجاه الشرق حيث منطقة طرابلس التي تخضع لمناخ متقلب لا يمكن التنبؤ به[٣] لتأثره بعاملين متضادين البحر والصحراء[٤] وتتراوح كمية الأمطار في هذه المنطقة ما بين ٣٠٠- ٤٠٠ مم سنوياً وتكاد تقتصر على الجزء الشمالي الغربي فقط[٥].

ونظراً للارتباط الشديد بين الحياة النباتية والمناخية ، فإن نباتات شمال أفريقيا في مجموعها هي نباتات البحر المتوسط، وأهم النباتات التي يمكن تمييزها هي الغابات المختلفة الأنواع والإستبس أو المراعي[٦] ويبدو أن مساحات الغابات على مرِّ العصور قد أخذت في التناقص شيئاً فشيئاً ، فانتشار المزروعات أدى بدوره إلى تناقص تلك الغابات ولو بصورة نسبية[٧]، وهذا قد يتضح من خلال ما ذكره هيرودوت في معرض حديثه عن سكان جبال الأطلس المستقرين والعاملين بالزراعة، خلافاً للقبائل الليبية_ في بيزاكيوم وإقليم طرابلس_ المترحلة التي كانت تأكل اللحم وتشرب اللبن[٨] ، كما أشار في الوقت ذاته إلى خصوبة التربة في منطقة كنبس (وادي كعام) ومدى أهميتها في إنتاج الحبوب[٩].

ومع ذلك أيضاً فإن بيليني يشير إلى وجود المزارعين المستقرين بمنطقة بيزاكيوم (Byzacium) جنوب ووسط تونس[١٠] كما يؤكد استرابو أن رأس كيفالاي

(١) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ص ١٧.

(٢) محمد الشرقاوي ، محمد الصياد ، مرجع سابق ، ص ٣١.

(٣) د. ي. هاينز ، مرجع سابق ، ص ١٧.

(٤) أحمد محمد إنديشة ، التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاث ، ط١ ، الدار الجماهيرية مصراتة- ليبيا ١٩٩٣ م، ص ٢٤.

(٥) عبد العزيز طريح شرف، مرجع سابق ، ص ١٠٩.

(٦) محمد الشرقاوي ، محمد الصياد، مرجع سابق، ص ٤٤.

(٧) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ١٩.

(8) **Heradotus, IV. 18٦-18٧ .**

(9) **Ibid, IV. 198 .**

(10) **Pliny , Nat. Hist ., V.III.25.**

(Cephalae) كان أعلاه مغطى بالغابات عند بداية خليج سرت الكبير[١] .

أما أهم الأشجار التي تميزت بها المنطقة فهي أشجار الفواكه واللوز والكروم والحوامض[٢]، لكن أشهر تلك الأشجار الزيتون الذي تشهد آثار المعاصر القديمة علي انتشار زراعته على نطاق واسع[٣]بالإضافة إلى الأشجار الطبيعية الأخرى.

وبما أن أفريقيا كانت مصدراً لصيد الحيوانات البرية لاستخدامها في عروض المسارح المنتشرة في أنحاء الإمبراطورية الرومانية[٤] فإنه من المرجح أن تكون المدن الساحلية في شمال أفريقيا قد لعبت دوراً كبيراً في تصدير تلك الحيوانات والتي تشمل في الغالب الفيلة والغزلان والبقر الوحشي والأسود والنمور[٥] التي كانت تعيش في عدد من غابات هذه المنطقة على ما يبدو[٦] ناهيك عن الحيوانات الأخرى كالماعز والغنم والخيول والجمال التي كانت تربي في الشمال الأفريقي أيضا .

---

(١) هذا الموقع في منطقة قصر أحمد بمدينة مصراتة ، ينظر :

Strobo,Geog ., VIII. 17 .3. 18 .

(٢) عبد العزيز بنعبد الله ، مرجع سابق ، ص ١٤ ؛ يسرى الجوهرى ، شمال أفريقيا ، دراسة في الجغرافيا التاريخية والإقليمية ، منشأة المعارف، الإسكندرية ، ١٩٧٦م، ص ص ١١٠. ١١١.

(٣) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ١٩.

(٤) عبد الحفيظ الميار ، مرجع سابق ، ص ٣٤.

(5) **Strabo, Geog., VIII.17.3.4 .**

(6) **Pliny, Nat. Hist., V.IV.26.**

الفصل الأول

علاقة البيزنطيين بشمال أفريقيا ٣٩٥ - ٥٣٣ م

أولاً: انقسام الإمبراطورية الرومانية وآثاره على شمال أفريقيا

١. الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي

٢. آثار انقسام الإمبراطورية على الشمال الأفريقي

ثانياً: موقف الإمبراطورية البيزنطية من الاحتلال الوندالي

ثالثاً: الحملة البيزنطية ضد الوندال عام ٤٦٨ م

رابعاً: جستنيان ووصوله لحكم الإمبراطورية البيزنطية

خامساً: المشاكل الخارجية والداخلية التي واجهها جستنيان في بداية حكمه.

التمهيد.

أولاً : أهمية التحديد الجغرافي لشمال أفريقيا

اكتسب شمال أفريقيا (المغرب القديم)[١] مفهوماً جغرافياً تذكره المصادر القديمة بتعريفات وأسماء مختلفة، فقد عُرفت المنطقة التي تقع إلى الغرب من نهر النيل في الكتابات المصرية القديمة بأرض الغرب (أمنت Imnt)[٢] ، وورد في بعض تلك الكتابات أن هذه المنطقة كانت موطناً لعدد من القبائل التي اشتهرت في تاريخ مصر الفرعونية ومنها قبائل (الليبو) و(التحنو) و(المشواش)[٣].

ويشير هيرودوت[٤](القرن الخامس قبل الميلاد) في هذا الصدد إلى أن ليبيا كان يحيط بها البحر من جميع الجهات إلا من جهة اتصالها بآسيا . إذ كان الاعتقاد السائد عند الإغريق أن العالم يتكون من ثلاثة أجزاء هي أوروبا وآسيا وليبيا[٥] على أن الإغريق أنفسهم قد عرفوا ليبيا بأنها تلك البلاد التي كانوا يسكنونها[٦] وتحيط بمدنهم الخمس البنتابوليس (Pentapolis)[٧]، ثم ما لبث أن أطلقوا على قارة أفريقيا اسم ليبيا[٨]حسب مفهومهم القديم للقارة .

---

(١) لقد دأب العديد من المؤرخين والجغرافيين المسلمين على تسمية شمال أفريقيا من حدود مصر الغربية حتى المحيط الأطلسي باسم المغرب تميزاً له عن الشرق الإسلامي ، ينظر : عبد الرحمن بن خلدون ، تاريخ بن خلدون ، ج ٦ ، دار الكتاب اللبناني ١٩٥٩م، ص ص ١٧٥، ١٩٣؛ ابن عذاري المراكشي، البيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج١، ط٣ ،الدار العربية للكتاب، بيروت، ١٩٨٣م ، ص٥ .

(2) **Bates, O., The Eastern Libyans; Frank cass & co. Ltd. London, 1970. p.48 .**

(٣) عبد العزيز طريح شرف ، جغرافية ليبيا ، ط٢ ، الإسكندرية ، ١٩٧١م، ص٦ .

(4)**Herodotus, Vol.II. Translated by Godley, A.D, (L.C.L), Harvard University Press, London ,1971 , IV . 42 .**

(5) **Ibid, I. II. 16 .**

(٦) محمد مصطفى بازامة، ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية ، سلسلة التاريخ الليبي، طرابلس، ١٩٦٥، ص٥٠.

(٧) عبد العزيز طريح شرف ، مرجع سابق ، ص ٦.

(8) **Pliny, Natural History, VoI.II Translated by Rackham, H.M.A,(L.C.L), Harvard University Press, London , 1969,V.I.1.**

وعندما استطاعت قرطاجة طرد جيش دوريوس (Dorieus) من نهر كنبس (Kinyps وادي كعام حاليا) عام ٥١٤. ق. م بالتعاون مع قبيلة المكاي الليبية[١] برهنت على حمايتها للمنطقة التي تعرف باسم المراكز التجارية أو أمبوريا (طرابلس)[٢]. وأصبحت على اتصال مباشر مع الإغريق عند حدود قورينا[٣] الأمر الذي أدى إلى دخول الطرفين في نزاع طويل حول ترسيم الحدود بينهما .

ولم ينته هذا النزاع إلا في حوالي منتصف القرن الرابع قبل الميلاد وذلك بتعيين الحدود عند مذابح الأخوين فيلاني[٤] (Philaeni) ويذكر سالوست[٥] (٨٦–٣٥ق م) وهو من الكتاب القدامى الذين تحدثوا عن قصة الأخوين فيلاني القرطاجيين أن الحد الفاصل بين قورينا وقرطاجة متمثل في سهل رملي مستو من حيث تضاريسه وليس به نهر أو جبل . أما سترابو[٦] فيجعل من برج إيوفرنتاس (Euphrantas) الحد الفاصل بين الأراضي القرطاجية والأراضي القورينائية الخاضعة لبطليموس .

---

(١) مصطفي كمال عبد العليم ، " الوطنية الليبية والحكم الأجنبي في العصر اليوناني والروماني " (ليبيا القديمة) دراسات وتقرير اليونيسكو ، المطبعة الكاثوليكية ، لبنان ١٩٨٨. ص ١٧٠.

(٢) تطلق طرابلس (Tripolis) على الإقليم الذي يضم المدن الثلاث أويا أو طرابلس (Oea) وصبراتة (Sabrata) ولبده الكبرى (Leptis Magna) وعن اسم هذا الإقليم وحدوده ينظر : محمود أبو حامد ، محمود النمس، مدينة طرابلس من الاستيطان الفنيقي حتى العهد البيزنطي ، الدار العربية للكتاب،طرابلس، ١٩٧٨م، ص ص ٨– ٩ ؛ ول ديورانت، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، ج١١، ط١ ، دار الجيل بيروت ، ١٩٩٢ ص ٣٣.

(٣) د. ي. هاينز ، دليل تاريخ وآثار منطقة طرابلس ، منشورات دار الفرجان ، طرابلس ، ليبيا ، ص٣١.

(٤) محمود النمس ، محمود أبو حامد ، دليل متحف الآثار بالسرايا الحمراء بطرابلس ، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ١٩٧٧، ص ص ١٢– ١٣ .

(٥) مفاد هذه القصة أن القرطاجيين والإغريق بعد النزاع الطويل على الحدود فيما بينهما حاولوا الوصول إلى اتفاق لترسيم الحدود وذلك بأن ينطلق من كل مدينة (قورينا – قرطاجة) رياضيان في وقت واحد وبعد أن قطع الأخوان فيلاني القرطاجيين ثلثي المسافة اعترض الإغريق على ذلك واشترطوا دفن الإخوين حيث وصلا كشرط للقبول برسم الحدود ، فما كان من الأخوين فيلايني إلا أن قبلا ذلك ، وفي حقيقة الأمر فإن هذه القصة مزيج من الحقيقة والخيال ولا يمكن التثبت من صحتها ينظر : سالوست، حرب يوغرطة، ترجمة وتعليق محمد التازي سعود، مطبعة محمد الخامس الجامعية والثقافية فاس ، ١٩٧٩، ص ص ١٦١– ١٦٢.

(6) **Strabo, The Geography of Strabo.,Vol.VIII,Translated by Horace Leonard Jones, (L.C.L) , Harvard University Press, London , 1961 , VIII. 17 .3 . 20.**

وقد عثر على آثار النصب التذكارى الذي انشأ حديثا، خلف الرأس العالي في خليج سرت[١]غير أنه قد بني بعد تحديد الحدود بين البلدين ، وقد عرف فيما بعد بإسم قوس فيلانوروم ثم قوس الرخام[٢].

أما بالنسبة لكلمة أفريقيا فإنها كانت تطلق في البداية علي قرطاجة ومناطق نفوذها قبل أن تشمل القارة بأسرها[٣]. ويبدو أن الفينيقيين هم أول من أشاع اسم أفريقيا والذي مرده إحدى القبائل المحلية القديمة[٤] التي كانت تسكن (أوتيكا) وقرطاجة وهي قبيلة أفري(Aphri)[٥].

غير أنه من المرجح أن مفهوم أفريقيا لم يتضح كمفهوم جغرافي وسياسي إلا في القرن الثاني قبل الميلاد عندما أطلق الرومان كلمة أفريكا (Africa) في لغتهم اللاتينية لأول مرة على كل المناطق التي خضعت لسيطرتهم شمال القارة[٦]، والتي تنحصر تقريباً بين طنجة غرباً وخليج سرت شرقاً[٧] وإن كان معنى أفريقيا عندهم يدل دلالة واضحة على منطقة قرطاجة القديمة وما حولها .

وتجدر الإشارة إلى أن معني كلمة ليبيا وأفريقيا ظل يعني مفهوماً جغرافياً غير محدد حتى وقت متأخر ، إذ يذكر بروكوبيوس[٨](القرن السادس الميلادي) أن الأرض التي على يسار النيل حتى تبلغ الأقيانوس (أعمدة هرقل) تدعى قارة ليبيا ثم يشير بوضوح إلى أن ليبيا تعني في زمانه إقليم المدن الخمس (Pentapolis) فقط ، إلا أنه ما يلبث بعد ذلك أن يستعمل كلمة ليبيا للدلالة على مناطق نفوذ الوندال ومن بعدهم البيزنطيين دون أن يضع تحديداً جغرافياً واضحاً .

---

(١) محمود النمس ، محمود أبو حامد ، مرجع سابق ، ص١٣.

(٢) د. ي . هاينز ، مرجع سابق ، ص ٣٢.

(٣) أ. ف.غوتييه، ماض شمال أفريقيا ، ترجمة هاشم الحسيني، ط١، منشورات دار الفرجاني، طرابلس، ١٩٧٠م،ص ٨٩.

(٤) محمد مصطفى بازامة ، ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية ، ص ص ٥١-٥٢.

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المغرب الكبير ، ج٢، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٨١م،ص ١٢٧.

(٦) عبد العزيز طريح شرف ، مرجع سابق ، ص ٧.

(٧) اتوري روسي ، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م، ترجمة خليفة التليسي ، ط٢، الدار العربية للكتاب، طرابلس ،١٩٩١م، ص ٣٥.

(8)**Procopius, Buildings., Vol. VII, Translated by Dewing, H.B,(L.C.L), Harvard University Press ,London, 1971 , VI .I. 9-11, VI.IV. 6 .**

في حين لا يتوانى كوريبوس[١].(القرن السادس الميلادي) على استعمال كل من ليبيا وأفريقيا كمفهوم واحد دون تحديد جغرافي واضح .

أما حدود شمال أفريقيا والذي هو موضوع هذه الدراسة فيشمل الأجزاء الغربية من ليبيا وكذلك تونس والجزائر والمغرب بأسمائها الحالية شمال الصحراء الكبرى. وبذلك يمكن اعتبار منطقة خليج سرت الحد الشرقي للمنطقة[٢]. أما الصحراء الكبرى فتمثل الحدود الجنوبية والتي لا يمكن عزلها عن شمال أفريقيا[٣]والتي تمتد لتشمل أراضي الجرمنت[٤]في حين يشكل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط الحدود الغربية والشمالية[٥] وهي أوضح الحدود مقارنة بالحدود الجنوبية والشرقية .

ثانياً: أهم الملامح الجغرافية للمنطقة

تعد المنطقة من الناحية الجغرافية والمناخية إقليماً واحداً[٦]يجعل منها كتلة متراصة يصعب تجزئتها[٧] وعلى الرغم من هذه الوحدة الجغرافية والبشرية أيضاً فإن الرومان ما أن استطاعوا بسط نفوذهم عليها حتى قسموها إلى ثلاث ولايات رئيسية[٨]وهي :

١. الولاية الإفريقية : تضم منطقة قرطاجة العاصمة وبعض المناطق المجاورة لها.
٢. ولاية نوميديا : وعاصمتها كرتا (قسنطينة) .
٣. ولاية موريتانيا[٩]:وتنقسم إلى ولاية موريتانيا القيصرية وموريتانيا الطنجية.

---

(١) كوريبوس ، ملحمة الحرب الليبية الرومانية ، ترجمة محمد الطاهر الجراري ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، ١٩٨٨ م ، ص ص ٢٣-٢٥ ، ٢٧-٢٨ وغيرها .

(٢) شارل أندريه جوليان ، تاريخ أفريقيا الشمالية ، ترجمة محمد مزالي ، البشير بن سلامة ، ط ٥، الدار التونسية للنشر تونس ١٩٨٥ م ، ص٢٦.

(٣) عبد الفتاح الغنيمي ، موسوعة تاريخ المغرب العربي ، ط٢ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة، ١٩٩٤ ،ص١٨.

(٤) عبد الحفيظ الميار ، الحضارة الفينيقية في ليبيا ، ط١ ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس ، ٢٠٠١م، ص٢١.

(٥) عبد العزيز بنعبد الله ، مظاهر الحضارة المغربية ، ج٢، ، الجزائر ، ١٩٥٨م ، ص ١ .

(٦) عبد الفتاح الغنيمي ، مرجع سابق ، ص ٢٠.

(٧) عبد العزيز بنعبد الله ، مرجع سابق، ص ١٤.

(٨) رشيد الناضوري ، تاريخ المغرب الكبير ، ج١، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١ م، ص ٢٩١.

(٩) هذه الولايات الثلاث تكاد تطابق ما يعرف بالمغرب الأدنى والأوسط والأقصى عند المؤرخين والجغرافيين المسلمين ، ينظر : أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس دار النهضة العربية، بيروت ، ص ص ١١. ١٠.

ولعل من أبرز مظاهر جزيرة المغرب[١] المظهر الجغرافي المتمثل في جبال أطلس والتي يصفها هيرودوت بأنها جبال شديدة الارتفاع يطلق أهلها على قمتها عمود السماء[٢].

وتنقسم هذه الجبال في مجملها إلى سلسلتين واضحتين هما : أطلس الشمالية التي تمتد من الغرب إلى الشرق والتي تبدو على شكل قوس يحتضن الساحل الشمالي تاركاً سهلاً ضيقاً بين سبتة ومليلة ، وتعرف هذه الجبال محلياً باسم جبال الريف[٣]. أما جبال أطلس الجنوبية التي تمتد في جوف الصحراء[٤] فهي أكثر ارتفاعاً من سابقتها وتضم عدداً من السلاسل الجبلية مثل أطلس العظمي والوسطي والداخلية، وتعرف الأخيرة بجبال درن[٥]، وتمتد من المحيط الأطلسي إلى الشمال الشرقي لتونس[٦]. هذا ويعد جبل نفوسة امتداداً طبيعياً لسلسلة جبال الأطلس المعروفة بجبال درن في المغرب الأقصى والذي يحيط بمنطقة طرابلس الساحلية كالهلال ويفصل بينها وبين الصحراء الجنوبية[٧].

والظاهرة الأخرى هي ظاهرة السهول وتنقسم في أقصى الغرب إلى فرعين الأول ويمتد من مصب نهر تنسيفت إلى الملوية ، في حين يضم الفرع الثاني سهل حوز وسهل تادلا الكبير[٨] وينحصر السهل الساحلي للغاية في المغرب الوسط كما هو الحال في سهل زيق وسهل متدجا[٩] وتمتد السهول في الجنوب التونسي في منطقة لا

---

(١) أطلق بعض الكتاب اسم جزيرة المغرب على منطقة أفريقيا تمييزاً لسطحها الجبلي ولإحاطة البحر بها من معظم الجهات ، يراجع: ابن عذاري ، مصدر سابق ، ص ٦؛ أ.ف.غوتييه ، مرجع سابق، ص١٠٧؛ شارل اندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ١٢.

(2) **Herodotus, IV. 184 .**

(٣) محمد الشرقاوي، محمد الصياد، ملامح المغرب العربي، ط١، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٥٩م، ص ١٣.

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ١٣٠.

(٥) عبد الرحمن ابن خلدون ، مصدر سابق، ص ١٩٨.

(٦) محمد الشرقاوي ، محمد الصياد ، مرجع سابق ، ص ١٤.

(٧) سعد زغلول عبدالحميد، تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) ، ج١ منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٩٩م،ص ٧٤.

(٨) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق، ص ٢٢.

(٩) محمد الشرقاوي ، محمد الصياد ، مرجع سابق ، ص١٩.

يتجاوز عرضها ٢٠٠كم مارةً بسهل جفارة في منطقة طرابلس[١]. أما السهل الممتد من لبدة الكبرى إلى خليج سرت فإنه يمثل شريطاً ساحلياً ضيقاً[٢]، فضلاً عن هذا كله هناك سهول الأنهار والأودية في المنطقة والتي لا يمكن إغفالها .

وآخر النطاقات التضاريسية نطاق الصحراء وهو أعظم الظواهر الطبيعية في شمال أفريقيا حيث تنحدر في شكل هضبة تدريجياً باتجاه الشمال حتى تنتهي بصورة واضحة في منطقة خليج سرت الكبير[٣].

أما المُناخ فإن شمال أفريقيا يتأثر بموقعه بين المحيط الأطلسي والبحر المتوسط من جهة، والصحراء الكبرى من جهة أخرى[٤].ويمثل رأس أنغيلا(شمال تونس) أقصى نقطة في الشمال باتجاه البحر عند درجة ٣٧،٢٠ شمالاً[٥]، في حين يمثل خليج سرت الكبير النقطة الأقصى للبحر المتوسط باتجاه الجنوب[٦]، والمنطقة عموماً تقع فيما يعرف بمناخ البحر المتوسط الحار جاف صيفاً البارد ممطر شتاءً[٧]. ويصل معدل درجات الحرارة على السواحل ٢٥ درجة تقريباً ، إلا أنه في فصل الصيف عندما يطول النهار ويجف الهواء ترتفع درجات الحرارة بسرعة كبيرة لتتعدى٤٥ درجة مئوية أحياناً [٨].

ولما كان الاعتقاد السائد بأن المناخ هو أهم العوامل الجغرافية المؤثرة في شمال أفريقيا فإن المطر يعد من أبرز التغيرات المناخية[٩]، إذ تتمتع المناطق الساحلية بكميات كافية من الأمطار تصل إلى ٤٠٠ مم بمسافة تتراوح بين ١٠٠و٢٠٠ كم ولا

---

(١) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ٢٦.

(٢) عبد الحفيظ الميار ، مرجع سابق ، ص ٢٥.

(٣) تشكل منطقة خليج سرت الكبير خليجاً هلالي الشكل، طويلاً جداً يمتد لمسافة ستة أيام _ حوالي ١٢٠ميلاً_ و بالرغم من أن هذه المنطقة قاحلة وقريبة جداً من الصحراء إلا أنها آهلة بالسكان والمتمثلة في عدد من القبائل الليبية، يراجع : **Procopius, Buildings .,VI.III.1-8; Strabo, Geog., VIII.17.3.19-20 ;Pliny, Nat. Hist .,V. IV. 27-28 .**

(٤) محمد الشرقاوي ، محمد الصياد ، مرجع سابق ، ص ٢٦.

(٥) محمد رياض، كوثر عبد الرسول، أفريقيا دراسة لمقومات القارة، ط٢ ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣م، ص٧١.

(6) **Strabo ,Geog.,I . 2.5. 25.**

(٧) عبد الفتاح الغنيمي ، مرجع سابق ، ص ٢٦.

(٨) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ص ١٦ _ ١٧ .

(٩) عبد الحفيظ الميار ، مرجع سابق ، ص ص ٣٠. ٣١.

تتجاوز هذا العدد إلا نادراً[١]، ومرد هذه الأمطار هي الأعاصير التي تصل من المحيط الأطلسي إلى منطقة الضغط المنخفض النسبي في البحر المتوسط[٢] وتقل الأمطار باتجاه الشرق حيث منطقة طرابلس التي تخضع لمناخ متقلب لا يمكن التنبؤ به[٣] لتأثره بعاملين متضادين البحر والصحراء[٤] وتتراوح كمية الأمطار في هذه المنطقة ما بين ٣٠٠- ٤٠٠ مم سنوياً وتكاد تقتصر على الجزء الشمالي الغربي فقط[٥].

ونظراً للارتباط الشديد بين الحياة النباتية والمناخية ، فإن نباتات شمال أفريقيا في مجموعها هي نباتات البحر المتوسط، وأهم النباتات التي يمكن تمييزها هي الغابات المختلفة الأنواع والإستبس أو المراعي[٦] ويبدو أن مساحات الغابات على مرِّ العصور قد أخذت في التناقص شيئاً فشيئاً ، فانتشار المزروعات أدى بدوره إلى تناقص تلك الغابات ولو بصورة نسبية[٧]، وهذا قد يتضح من خلال ما ذكره هيرودوت في معرض حديثه عن سكان جبال الأطلس المستقرين والعاملين بالزراعة، خلافاً للقبائل الليبية_ في بيزاكيوم وإقليم طرابلس_ المترحلة التي كانت تأكل اللحم وتشرب اللبن[٨] ، كما أشار في الوقت ذاته إلى خصوبة التربة في منطقة كنبس (وادي كعام) ومدى أهميتها في إنتاج الحبوب[٩].

ومع ذلك أيضاً فإن بيليني يشير إلى وجود المزارعين المستقرين بمنطقة بيزاكيوم (Byzacium) جنوب ووسط تونس[١٠] كما يؤكد استرابو أن رأس كيفالاي

---

(١) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ص ١٧.

(٢) محمد الشرقاوي ، محمد الصياد ، مرجع سابق ، ص ٣١.

(٣) د. ي. هاينز ، مرجع سابق ، ص ١٧.

(٤) أحمد محمد إنديشة ، التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاث ، ط١ ، الدار الجماهيرية مصراتة. ليبيا ١٩٩٣ م، ص ٢٤.

(٥) عبد العزيز طريح شرف، مرجع سابق ، ص ١٠٩.

(٦) محمد الشرقاوي ، محمد الصياد، مرجع سابق، ص ٤٤.

(٧) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ١٩.

(8) **Heradotus, IV. 18٦-18٧ .**

(9) **Ibid, IV. 198 .**

(10) **Pliny , Nat. Hist ., V.III.25.**

(Cephalae) كان أعلاه مغطى بالغابات عند بداية خليج سرت الكبير[١] .

أما أهم الأشجار التي تميزت بها المنطقة فهي أشجار الفواكه واللوز والكروم والحوامض[٢]، لكن أشهر تلك الأشجار الزيتون الذي تشهد آثار المعاصر القديمة علي انتشار زراعته على نطاق واسع[٣]بالإضافة إلى الأشجار الطبيعية الأخرى.

وبما أن أفريقيا كانت مصدراً لصيد الحيوانات البرية لاستخدامها في عروض المسارح المنتشرة في أنحاء الإمبراطورية الرومانية[٤] فإنه من المرجح أن تكون المدن الساحلية في شمال أفريقيا قد لعبت دوراً كبيراً في تصدير تلك الحيوانات والتي تشمل في الغالب الفيلة والغزلان والبقر الوحشي والأسود والنمور[٥] التي كانت تعيش في عدد من غابات هذه المنطقة على ما يبدو[٦] ناهيك عن الحيوانات الأخرى كالماعز والغنم والخيول والجمال التي كانت تربي في الشمال الأفريقي أيضا .

---

(١) هذا الموقع في منطقة قصر أحمد بمدينة مصراتة ، ينظر :

Strobo,Geog ., VIII. 17 .3. 18 .

(٢) عبد العزيز بنعبد الله ، مرجع سابق ، ص ١٤ ؛ يسرى الجوهرى ، شمال أفريقيا ، دراسة في الجغرافيا التاريخية والإقليمية ، منشأة المعارف، الإسكندرية ، ١٩٧٦م، ص ص ١١٠. ١١١.

(٣) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ١٩.

(٤) عبد الحفيظ الميار ، مرجع سابق ، ص ٣٤.

(5) **Strabo, Geog., VIII.17.3.4 .**

(6) **Pliny, Nat. Hist., V.IV.26.**

الفصل الأول

علاقة البيزنطيين بشمال أفريقيا ٣٩٥ - ٥٣٣ م

أولاً: انقسام الإمبراطورية الرومانية وآثاره على شمال أفريقيا

١. الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي

٢. آثار انقسام الإمبراطورية على الشمال الأفريقي

ثانياً: موقف الإمبراطورية البيزنطية من الاحتلال الوندالي

ثالثاً: الحملة البيزنطية ضد الوندال عام ٤٦٨ م

رابعاً: جستنيان ووصوله لحكم الإمبراطورية البيزنطية

خامساً: المشاكل الخارجية والداخلية التي واجهها جستنيان في بداية حكمه.

أولا: انقسام الإمبراطورية الرومانية وآثاره على شمال أفريقيا

١.الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي

كانت الإمبراطورية الرومانية منذ القرن الأول الميلادي تمثل أقرب المحاولات لإقامة دولة عالمية ، وكان السلام الروماني يعني الوصول لحدود ثابتة بما يحقق لها الأمن والاستقرار[١]، وقد وصل أقصى اتساع للإمبراطورية في زمن الإمبراطور هادريان(١١٧-١٣٨م) فشملت بذلك معظم العالم القديم يومئذ تقريباً[٢]. غير أن فترة الازدهار والاتساع النسبي التي صحبت السلام الروماني (Pax Roman) ، والتي دامت قرنين من الزمان ما لبث أن لحقته أوقات عصيبة مليئة بالفوضى والاضطرابات[٣].فقد جاء مقتل الإمبراطور اسكندر سفيروس سنة ٢٣٥ م ، ليضع حداً لأسرة الأباطرة الرومان الأفريقيين ، ويوقع العالم الروماني في فترة من الفوضى العسكرية التي أوصلته إلى حافة الانهيار ، ولقد شهدت خمسون عاماً من الصراع الأهلي أكثر من عشرين إمبراطوراً يولون بقوة السلاح والجيش[٤].

ومنذ منتصف القرن الثالث الميلادي أخذت الإمبراطورية الرومانية تتعرض لأزمات عنيفة هددت كيانها وهزت دعائمها تمثلت داخلياً في سوء أحوال الجيش، وتزايد قوة الحركات الانفصالية عن الإمبراطورية . كما أن الأوضاع الاقتصادية كانت سيئة جداً ، في حين مثَّل الخطر الفارسي على الحدود الشرقية وتزايد هجمات قبائل البرابرة (حسب النظرة الرومانية) وراء نهري الدانوب والراين على الحدود الغربية أهم الأسباب الخارجية لانهيار الإمبراطورية الرومانية[٥]

---

(١) حسين الشيخ، الرومان ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠ م ، ص ١٠٩ .

(٢) إبراهيم علي طرخان،" نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب ٤٧٦ م"، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، مج٢٠ ، ج١ ، القاهرة ، ١٩٥٨ م ، ص٦٨ .

(٣) خليفة أبوبكر بن ناصر ، صلاح هادي الحيدري ، الموجز في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها ، منشورات جامعة درنة ، ص ٢١ .

(٤) د. ي . هاينز ، مرجع سابق ، ص ٦٥ .

(٥) محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ط٢ ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٦م، ص ص ٣١-٣٢.

ويبدو أن الإمبراطورية الرومانية منذ ذلك الوقت اقتصرت على سياستها الدفاعية بدلاً من سياسة الهجوم والتوسع ؛ لأن اتساعها وبعد الولايات والأقاليم عن الحكومة المركزية ، كان سبباً مهماً في انتهاج هذه السياسة .

عندما تولى دقلديانوس (Diocletian 284-305م) عرش الإمبراطورية كانت المهمة التي تواجهه هي أن يضع حداً للانقلابات العسكرية ، والمنازعات المتصلة من أجل الوصول إلى العرش[١]. وأمام تعدد المشاكل الداخلية والخارجية رأى دقلديانوس أنه أصبح من المتعذر إدارة شئون الإمبراطورية بنجاح ما لم توزع السلطة العليا بين حكومة رباعية؛ حيث قسم الإمبراطورية إلى أربع ولايات كبرى عرفت باسم بريفيكتوري (Prefecture) وهي إيطاليا وغالياً وإلليريا والشرق تحكم من قبل إمبراطورين يحمل كل منهما لقب أغسطس . وقيصرين مساعدين لهما[٢]

وعلى الرغم من الإصلاحات السياسية والاقتصادية التي قام بها الإمبراطور دقلديانوس ، فإن استقالته وتنحِّيه عن الحكم سنة ٣٠٥ م جاءت لتنذر ببداية صراع جديد على السلطة[٣]. فقد انحصر الصراع هذه المرة في الحكام الذين ورثوا نظام الحكم الرباعي الذي وضعه دقلديانوس بنفسه من قبل .

لقد استطاع قسطنطين الأول (Constantin I 306-337م) بعد صراع طويل على عرش الإمبراطورية أن يحسم الصراع لصالحه وينفرد بحكم الإمبراطورية حتى نهاية حياته ، ويصبح إمبراطوراً للعالم الروماني بأكمله[٤] الذي استمر في مشروعات سلفه دقلديانوس بتقسيم الإمبراطورية إلى أربع ولايات كبرى ، وتركيزه على إعلاء

---

(١) دونالد.ر. دولي ، حضارة روما ، ترجمة جميل يواقيم الذهبي ، فاروق فريد ، دار نهضة مصر ، ١٩٦٤ م ، ص ٣٤٤ .

(٢) يبدو أن أول ما قام به دقلديانوس عند توليه العرش تعيين رفيقه مكسيمان " Maximian " كأمبراطور مشارك له في الحكم عام ٢٨٦ م على القسم الغربي للإمبراطورية على أن يتنازلا معاً عن الحكم للقيصرين بعد عشرين عاماً ، ينظر:
Starr, C.G., The Roman Empire 27.B.C-A.D.476, A study in Survival, Oxford University Press, 1982, p.157.

(3) **Kent, J.P.C. and Painter , k.S., Wealth of the Roman World. A.D300-700, Published For British Museum, London, 1977,p.15.**

(٤) حول الإمبراطور قسطنطين الأول وكيفية وصوله إلى عرش الإمبراطورية ينظر:
Loverance, R.,Byzantium, British Museum, London, 1988, p.6.

المنصب الإمبراطوري والحط من سلطة الجيش ، ونقل مركز الإمبراطورية من روما إلى القسطنطينية[١](Constantinople) .

على أن أساس تنظيم دقلديانوس وقسطنطين الإداري هو الفصل التام بين السلطتين العسكرية والمدنية أي بين واجبات القائد العسكري (Dux) والحاكم المدني(Praeses) واقترن هذا بإنقاص حجم الولايات بوجه عام حتى لا ينفرد القائد أو الحاكم بسلطة تخلق منه منافساً خطراً للعرش[٢]. أما المسألة المهمة التي اختلف عليها الاثنان فهي أن دقلديانوس اشتهر باضطهاده للمسيحيين في حين ناصر قسطنطين المسيحية واعترف بها كدين رسمي للإمبراطورية[٣].

منذ منتصف القرن الرابع الميلادي أصبحت الإمبراطورية الرومانية تتعرض لهجمات جديدة من قبل القبائل الجرمانية على أطراف الإمبراطورية، فبعد وفاة الإمبراطور جوفيان (Jovian ٣٦٣-٣٦٤م) اقتسم أخواه الحكم حيث حكم فالنتنيان (Valentinian٣٦٤-٣٧٥ م) الشطر الغربي من الإمبراطورية، أما الشطر الشرقي فقد حكمه فالنز[٤](Valens ٣٦٤-٣٧٨م).

زادت هجمات القبائل الجرمانية خطورة على القسم الشرقي حين توغل القوط الغربيون ومن انضم معهم من القبائل الأخرى في تراقيا، الأمر الذي أجبر الإمبراطور فالنز على العودة من الجهة الفارسية إلى القسطنطينية ثم توجه على الفور لمواجهة خطر هذه القبائل في ٩ أغسطس سنة ٣٧٨م، فدارت المعركة التاريخية على أرض أدرنة ولقي جيش الإمبراطور هزيمة ساحقة انتهت بمقتله[٥].

---

(١) أنشئت القسطنطينية على مستعمرة يونانية قديمة اسمها بيزنطيوم ، وقد سميت باسم الإمبراطور قسطنطين الأول ، ينظر : لبيب عبد الساتر، الحضارات ، ط١٥ ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص ٢٢٠ ؛ عبد العزيز فهمي باشا، ملاحق مدونة جستنيان ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، مصر ، ١٩٥١ م ، ص ٦٠.

(٢) فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، ج٣، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر ١٩٦٦، ص٦.

(٣) عبد العزيز فهمي باشا ، مرجع سابق ، ص ٦٠.

(4) **Vasiliev, A.A., History of the Byzantine Empire 324-1453 , Vol.I, the University of Wisconsin Press, 1973,p.78; Caldwell,W.E.,The Ancient World, Third Edition ,Late of the University of North Carolina ,1966, p.570.**

(5) **Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, Rutgers University Press, 1969, p.52.**

وبموته تنتهي أسرة قسطنطين ويبدأ حكم أسرة الإمبراطور ثيودوسيوس[(١)].

تمكن الإمبراطور ثيودوسيوس الأول(٣٧٩-٣٩٥م) الذي تولى عرش الإمبراطورية في عام ٣٧٩م من معالجة الخطر القوطي بعدما لجأ للسياسة السلمية بدلاً من الحرب وعقد معهم اتفاقاً في عام ٣٨٢م أصبحوا بموجبه معاهدين للإمبراطور بعد أن أعفاهم من الضرائب المفروضة عليهم مقابل الخدمة العسكرية في صفوف الجيش الإمبراطوري، كما نجح بالدهاء في نقل بعضهم إلى آسيا الصغرى وتراقيا[(٢)].

ولم تمض سنوات طويلة حتى صار عدد من دخل في خدمة الإمبراطور ثيودوسيوس الأول من فرسان القوط يقدر بالآلاف إلا أن الخطأ الكبير الذي ارتكبه إزاء هؤلاء أن تركهم تحت قيادة رؤسائهم الوطنيين ثم ترقيتهم على حساب الجنود الرومان[(٣)]. وبالاعتماد عليهم وتغلغلهم في أجهزة الدولة وصل بعض قادتهم إلى أعلى المناصب الإدارية العسكرية فمثل ذلك خطراً محققاً على الإمبراطورية لا يمكن تجاهله.

أما على صعيد الاصلاحات الداخلية فإن الإمبراطور ثيودوسيوس سعى إلى تطوير نظام الإدارة في الإمبراطورية حيث قسمها إلى أربعة أقسام رئيسية يسمى كل منها لواء (Praefectura) وعلى رأس كل منها رئيس لواء إمبراطوري (Praefectus Praetorius) وينقسم كل لواء إلى عدد من الأقسام الإدارية (Dioceses) يشرف على كل منها نائب رئيس (Vicarius) وكل قسم إداري منها ينقسم إلى عدد من الولايات (Provinces) على كل منها وال يخضع لنائب رئيس اللواء[(٤)].

وبهذا يبدو أن الإمبراطورية الرومانية منذ نهاية القرن الثالث الميلادي وحتى القرن الرابع الميلادي بكامله شهدت أنظمة حكم مختلفة في إدارتها تتأرجح ما بين السيادة المطلقة لإمبراطور واحد إلى حكومة رباعية أكثر اتقاناً ابتدعها دقلديانوس[(٥)] إلى أن وصل شكل النظام الإداري إلى ما هو عليه في زمن ثيودوسيوس الأول.

---

(١) جوزيف نسيم يوسف، تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤-١٤٥٣م) دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٩٩٦م، ص٦٣.

(٢) محمود سعيد عمران، مرجع سابق، ص٦٨، وللمزيد عن السياسة السلمية التي تبناها ثيودوسيوس الأول مع القوط ينظر: **Vasiliev ,A.A., op.cit., p.87 .**

(٣) محمود محمد السيد، تاريخ الدولة البيزنطية، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، مصر،٢٠٠٠م، ص٢٨.

(٤) فتحي عثمان، مرجع سابق، ج٣، ص٦.

(٥) ج.م.هسي، العالم البيزنطي، ترجمة رأفت عبد الحميد، ط٣، دار المعارف،مصر١٩٨٤م، ص ص٩٦-٩٧.

بيد أن أهم الأعمال التي اتخذت زمن الإمبراطور ثيودوسيوس الأول هي جعل الديانة المسيحية هي الديانة الرسمية والوحيدة في الدولة، ورفض كل الديانات والمذاهب الأخرى التي لم تعد تجد ما تستند عليه في وجودها وكيانها من نفوذ(١).

لقد ظلت الإمبراطورية الرومانية حتى هذا الوقت إمبراطورية موحدة ولو من الناحية الشكلية يحكمها إمبراطور مقيم في القسطنطينية على الرغم من وجود توجه عام نحو التقسيم الجغرافي والسياسي والثقافي بين الشرق والغرب(٢). لكن جاءت سنة ٣٩٥م في حقيقة الأمر لتمثل إعلاناً نهائياً لانقسام الإمبراطورية إلى جزئين شرقي وغربي، أخذ كل منهما يختط لنفسه طريقاً مغايراً له أهدافه السياسية والاقتصادية الخاصة به(٣). إذ رأى ثيودوسيوس أن يقسم الإمبراطورية بين ولديه حتى يضمن بقاءها وحمايتها وحسن إدارتها، وبذلك يبدو أنه يسير على خطى دقلديانوس ومن بعده قسطنطين في تقسيم الإمبراطورية(٤).

وعلى أثر وفاة ثيودوسيوس في عام ٣٩٥م انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين: القسم الشرقي وهو الذي عرف بالإمبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية، ويشمل تراقيا وداكيا ومقدونيا وآسيا الصغرى وسوريا ومصر، ويحكم هذا القسم ابن ثيودوسيوس الأكبر اركاديوس(Arcadius٣٩٥-٤٠٨م) وكان عمره حينئذ ثمانية عشرة سنة، أما القسم الغربي فكان يتكون من إيطاليا وولاية نوريكوم وبانونيا ودالماشيا وكذلك أفريقيا وغاليا وأسبانيا وبريطانيا وولى هذا القسم الابن الأصغر هونوريوس (Honorius٣٩٥-٤٢٣م) والذي لم يتجاوز آنذاك عمره الحادية عشرة سنة تقريبا، أما

---

(١) عندما دخل ثيودوسيوس القسطنطينية بعد مقتل فالنز أنكر مذهب الأريوسية، وناصب الوثنيين والهراطقة العداء واشتد في إنزال العقوبات عليهم، وأعلن في القرار الذي أصدره عام ٣٨٠م، أنه لا يعد من المسيحيين الكاثوليك إلا من آمن بالثالوت المقدس: الأب، الابن، والروح القدس وفقاً لما ورد في كتب الرسل والأناجيل، كما لم يعتبر الأماكن التي يجتمعون فيها كنائس، وفي قرار آخر حرم على الهراطقة عقد اجتماعاتهم عامة كانت أم خاصة ينظر:

Vasiliev,A.A.,op.cit.,pp.80-83.

(٢) محمد الطاهر المنصوري، الحياة الدينية في بيزنطة من الانبعاث إلى القطيعة مع روما ، ط١، دار أمل للنشر والتوزيع، صفاقس، ٢٠٠٣م، ص١٠.

(٣) ج. م. هسي، مرجع سابق، ص٩٧.

(٤) إبراهيم على طرخان، نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب ٤٧٦م ، ص٦٨.

ولاية الليريا(Illyricum) فقد قسمت بين الاثنين نظراً لغنائها بالمال والرجال[١] وهى تمثل الحد الفاصل بين الإمبراطوريتين في قارة أوروبا (ينظرالخريطة رقم ١) .

والواقع أن انقسام الإمبراطورية في أواخر القرن الرابع الميلادي جاء تعبيراً واضحاً عما لحق البلاد من اختلافات اجتماعية ودينية وثقافية إضافة إلى الاختلافات السياسية والاقتصادية، فلقد جاء القسم الشرقي يونانياً شرقياً في لغته وثقافته وكنيسته، بينما جاء القسم الغربي لاتينياً غربياً في لغته وثقافته وكنيسته، ولهذا لم يكن غريباً أن تختلف أقدار القسمين وتجري الأحداث فيهما بغير ما كان يفترض[٢].

مع استمرار فكرة وحدة الإمبراطورية من خلال أن للإمبراطورية شطرين يحكم كل منها إمبراطور وأن ما يصدر من مراسيم من إحداهما يسري مفعولها في سائر أنحاء الإمبراطورية، وكذلك إن موت أحد الإمبراطورين يخول للآخر الحق في تعيين إمبراطور يخلفه، فإن كل ذلك لم يمنع أن تكون عوامل التفرق بين شطري الإمبراطورية أكثر مما يجمع بينهما[٣].

وتبدو خطورة هذا الانقسام واضحاً من خلال صغر سن ولدى ثيودوسيوس الأول أركاديوس وهونوريوس الأمر الذي جعل لهما أوصياء متنفذين يديرون شئون الدولة، هذا من جهة، ومن جهة ثانية الغارات الجرمانية التي أخذت في ازدياد كبير على شطري الإمبراطورية، لاسيما القوط الغربيين بقيادة ألاريك، إضافة إلى استقلالية الشرق عن الغرب التي أصبحت قائمة وبصورة واضحة في تلك الفترة.

ويمكن القول بأن أهم ما ميز القرن الرابع الميلادي أنه مثل العصر الذي اجتمعت وتفاعلت فيه مختلف العناصر الأساسية التي كيفت تاريخ العصور الوسطى وهي الكنيسة وقبائل الجرمان والإمبراطورية[٤]، إضافة إلى الثقافة اليونانية الشرقية التي

---

(١) إبراهيم على طرخان، نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب ٤٧٦م، ص٦٩.

(٢) محمد محمد الشيخ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٤م، ص١٣٧؛
Lancaster,O., Sailing to Byzantium an Architectural companion, Illustrated by the Author, 1961,p.10.

(3) **Ostrogorsky ,G. ,op.cit.,p.54.**

(٤) نورمان بينز، " الأفكار السياسية للقديس أغسطين عن مدينة الله " ترجمة أسامة زكي زيد، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، مج ٢٩ ، مصر،١٩٨١م، ص١٤٥.

ميزت حضارة الإمبراطورية البيزنطية بصفة خاصة[١] الأمر الذي انعكس بطبيعة الحال على حكم الإمبراطورين اركاديوس وهونوريوس وألحق أعظم الأذى بالإمبراطورية إذ تركوا الكنيسة للرهبان والدولة للخصيان والولايات لبرابرة الجرمان على حد تعبير أحد المؤرخين[٢].

كانت السياسة التي وضعها ثيودوسيوس الأول لمعاملة الجرمان قد تعرضت بعد وفاته لأزمة بالغة الخطورة، إذ بدأ القوط الغربيون بقيادة ألاريك بمهاجمة أجزاء كبيرة من شبه جزيرة البلقان، وامتد تخريبهم ليصل أسوار القسطنطينية، في الوقت الذي ازدادت فيه المنازعات بين حكومتي القسطنطينية وروما[٣].

وللحيلولة دون أعمال النهب الأخرى قام الإمبراطور الشرقي اركاديوس بتعيين ألاريك رئيسا للجند في منطقة الليريا[٤] ويتضح من ذلك أن اركاديوس حاول إبعاد خطر القوط الغربيين بتوجيههم نحو الإمبراطورية الغربية وكان قد نجح في مساعيه فعلاً. كما تزامن ضغط القبائل القوطية مع ازدياد تغلغل العناصر الجرمانية في المناصب الإدارية والعسكرية في الإمبراطوريتين الشرقية والغربية على حد سواء.
وذلك من خلال نفوذ القائد الوندالي ستيليكو (Stilicho) وتأثيره على اتخاذ القرارات في حكومة الإمبراطور هونوريوس، في حين لم يكن الإمبراطور اركاديوس أحسن حالاً من أخيه فقد وقع هو أيضا تحت تسلط القائد القوطي روفينوس(Rufinus) ردحاً من الزمن[٥].

وفي الوقت الذي كانت فيه حاضرتا الإمبراطورية الشرقية والغربية تتعرضان لهجمات القبائل الجرمانية كانت العديد من الأقاليم والولايات التابعة لهما تلاقي المصير نفسه في نهاية القرن الرابع وبداية الخامس الميلادي[٦] حيث تعرضت هذه

(1) **Hollister, C.W., Medieval Europe A Short History, Second Edition, New York ,1968 , p.29.**

(٢) عبد القادر أحمد اليوسف، العصور الوسطى الأوروبية، ٤٧٦-١٥٠٠م، ص٤٩.

(3) **Ostrogorsky,G.,op.cit.,p.55.**

(٤) محمود سعيد عمران، مرجع سابق، ص٧٠.

(٥)عبد القادر أحمد اليوسف، الإمبراطورية البيزنطية، المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٦٦م، ص٤٣.

(6) **Painter, S., A History of the Middle Ages 284-1500, The Johns Hopkins University, London, 1970,p.33.**

الولايات إلى أخطار مشابهة تمثلت بشكل واضح في قيام العديد من الثورات والاضطرابات.

كان شمال أفريقيا إحدى الولايات التي تعرضت للاضطرابات في نهاية هذا القرن فقد اضطر الأباطرة الرومان إلى تدعيم السلطة العسكرية وقد تجلى ذلك في مدن تريبوليتانيا (Tripolitania) التي أخذت تتهددها قبيلة الأستورياني (Austurians) في سنة ٣٦٣م، وبخاصة مدينة لبدة الكبرى الذي استنجد أهلها بالقائد الروماني رومانوس (Romanus) فاشترط على المدينة أن تقدم له أربعة آلاف من الإبل لمقاتلة هذه القبيلة[١].

أما أهم الثورات في تلك الفترة في شمال أفريقيا فكانت ثورة فيرموس في نوميديا سنة ٣٧٢م التي امتدت من جيجل ولمباز شرقاً إلى قرطنة (تنس) والشلف غرباً وأوزيا ومسيلة جنوباً، وشكل الدوناتيون[٢] قوام هذه الثورة الذين تحالفوا مع فيرموس ضد الرومان مما أعطاها طابعاً عرقياً، إضافة إلى طابعها الديني لاسيما بعد عقد تحالفات بين فيرموس والقبائل الموريتانية[٣]. لكن هذه الثورة لم تدم طويلاً إذ استطاع الرومان القضاء عليها بعد تعرض فيرموس للخيانة من قبل أخيه جيلدون في سنة ٣٧٥م[٤].

ولقد كوفئ جيلدون على موقفه من ثورة أخيه فقلدته حكومة روما منصب كونت أفريقيا (Conte Africa) سنة ٣٨٥-٣٨٦ م فأصبح قائداً لأركان الحرب ورئيسًا

---

(١) حول هذه القبيلة ودروها في إنهاء الحكم الروماني في هذه المنطقة ينظر :أحمد محمد انديشة، مرجع سابق، ص ص١٠٧-١١١.

Bakir,T., Historical and Archaeological Guide to Leptis Magna, 2nd.Edition , Triopli-Libya, 1981,p.19 .

(٢) ظهرت الدوناتية(Donatism) كحركة أو مذهب ديني في شمال أفريقيا في نهاية القرن الثالث الميلادي واشتد أمرها في القرن الرابع الميلادي، وسميت بالدوناتية نسبة إلى المؤسس دوناتس (Donatus) ولقد ناصب الدوناتيون العداء لأولئك المسيحيين الذين فرطوا في دينهم أثناء الاضطهاد الذي تعرضوا له في زمن الإمبراطور دقلديانوس، وقد تعرض الدوناتيون منذ زمن الإمبراطور قسطنطين الأول للاضطهاد والتعذيب ولعدة مرات ودخلوا في منافسة شديدة مع الكنيسة الكاثوليكية في قرطاجة ينظر:

Loverance,R., op.cit.,p.12.

(٣) محمد الهادي حارش، " ثورة فيرموس، ٣٧٢-٣٧٥م " ، مجلة الدراسات التاريخية، العدد السابع، جامعة الجزائر، ١٩٩٣م، ص ص١١-١٢.

(٤)عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج١، ط٢، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م، ص ص١٠٠-١٠١.

للجيش الروماني في أفريقيا، واختار لنفسه اسمًا رومانيًا هو (ليسيوس كيتوس جيلدونيكوس)[(١)].

زادت مكائد جيلدون ونفوذه في ولاية أفريقيا بعدما ارتبط بعلاقة مصاهرة مع أحد أقرباء الإمبراطورة فلاكسيلا (Flccilla) ونحا في توجهاته منحى آخر فكشف عن نواياه بتدخله في عملية تزويد القمح لروما بعد وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس عام ٣٩٥م، غير أن قمة هذه التوجهات الخطيرة تمثلت في تخليه عام ٣٩٧م، عن ولائه المطلق للحكومة الرومانية وإعطاء ولائه لإمبراطور الشرق اركاديوس، وعلى الرغم مما كان ينطوي عليه تصرف جيلدون من رغبة في تحقيق طموحاته إلا أنه كان ممن رحب به في حكومة القسطنطينية[(٢)]، وما لبث أن تبددت طموحات جيلدون إثر اصطدامها بمصالح روما لينتهي نهاية أخيه فيرموس وتعرضه هو الآخر للخيانة من قبل أخيه مقزيل بعد فترة حكم دامت أكثر من اثني عشر عاماً[(٣)] في ٣٩٨م.

٣ . آثار الانقسام الروماني على منطقة شمال أفريقيا

إن منطقة شمال أفريقيا منذ نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلادي أصبحت منطقة مهمة لاسيما في تصدير القمح والغلال، فكان من يسيطر عليها بمثابة من يهدد ويعبث بأمن روما السياسي والاقتصادي، وربما يتضح ذلك جلياً في فترة الأزمات التي كانت تمر بها الإمبراطورية الغربية فضلاً عن أن قيام أي ثورة في هذه المنطقة ضد الرومان يعني بالنهاية قطع الإمدادات الاقتصادية من قمح وغلال عن روما، وهو ما يؤكد حقيقة التنافس القائم بين هونوريوس وأركاديوس في تلك الفترة.

استهل القرن الخامس الميلادي بتجدد غارات القوط الغربيين بقيادة ألاريك على الإمبراطورية الغربية، وقد استطاع القائد ستيليكو صد بعض تلك الغارات على إيطاليا

---

(١) أحمد صفر، مدنية المغرب العربى فى التاريخ،ج١، دار بوسلامة، تونس، ص٣٧٨.

(٢) ب. هـ. ورمنقتن، تاريخ ولايات شمال أفريقيا الرومانية من دقلديانوس إلى الاحتلال الوندالي، ترجمة عبد الحفيظ فضيل الميار، ط١، ١٩٩٤م، ص ص٣٠-٣١؛

Decret, F.et Fantar, M., L`Afrique Du Nord dans L`Antiquitè, Histoire et Civilisation (des origines au Ve siècle) ,Paris, 1981,p.338.

(٣) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، مرجع سابق، ص١٠١ ؛

Decret, F.et Fantar, M., op.cit., p.339.

في سنة ٤٠٢م، إلى أن تمكن في النهاية من عقد هدنة معهم، لكن سرعان ما وقع ستيليكو ضحية غدر الإمبراطور هونوريوس سنة ٤٠٨م لاتهامه بمحاباة القوط(١).

وتمثلت قمة الأخطار التي حاقت بالإمبراطورية الغربية في الحصار الذي بدأ يضربه ألاريك على مدينة روما بحجة مساعدة أرملة ستيليكو سرينا ومعاونيه، كما حاول ألاريك أثناء ذلك إرغام مجلس الشيوخ على انتخاب حاكم المدينة اثالوس (Attalus) كإمبراطور جديد في نهاية عام ٤٠٩م(٢).

وفي ٢٣ أغسطس عام ٤١٠م وبعد فترة من المفاوضات والهدنة بين الطرفين اقتحم ألاريك مدينة روما ودخلها عنوة، وعاث فيها فساداً مع عمليات السلب والنهب التي دامت لعدة أيام، وقد شكل سقوط روما على يد القوات القوطية نهاية العالم الروماني، لما لهذه المدينة من أهمية تاريخية مهمة على كل النواحي(٣). وفي هذا الوقت اتخذ الإمبراطور هونوريوس مدينة رافنا (Ravenna) عاصمته الجديدة(٤) أما ألاريك فما لبث بعد سقوط روما أن توجه إلى شمال أفريقيا معرجاً في البداية على جزيرة صقلية وعندما توجه إلى الساحل الإفريقي تعرض أسطوله لعاصفة مفاجئة، أدت إلى تحطم معظم سفنه مما أجبرته إلى الرجوع بقواته إلى مدينة كوسينزا (Cosenza) التي مات فيها نهاية عام ٤١٠م(٥).

وتأتي محاولة ألاريك في العبور إلى شمال أفريقيا دليلاً على الأهمية الاقتصادية التي تتمتع بها هذه الولاية، وترسخ ذلك بوضوح لألاريك عندما امتنع كونت أفريقيا هيراكليان (Heraclian)عن تزويد روما بالقمح أثناء حصار ألاريك لها من قبل القوط

---

(١) عبد القادر أحمد اليوسف، الإمبراطورية البيزنطية، ص ص٤٤-٤٥؛

Pirenne, H.,A History of Europe From the Invasions to the XVI Century , London, 1961, p.28.

(2) **Previté-Orton.C.W., The Shorter Cambridge Medieval History, vol.I, Cambridge University Press,London, 1978 , p. 84 .**

وتجدر الإشارة هنا أن الإمبراطور هونوريوس نقل الثقل السياسي من روما إلى مدينة رافنا حيث شكلت قلعة حصينة ضد الغارات التي كانت تتعرض لها الإمبراطورية الغربية وقد استمرت على قدر من الأهمية لسنوات طويلة ، للمزيد ينظر :

Loverance,R.,op. cit.,p.16 ; Starr,C.G.,op.cit.,p.162.

(3) **Previté-Orton,C.W.,op.cit.,p.85.**

(4) **Pirenne, H., op.cit.,p.28.**

(٥) محمود سعيد عمران، مرجع سابق، ص٧٢.

الغربيين وبقائه على الولاء للإمبراطور هونوريوس، وعدم قبوله للإمبراطور المرشح اثالوس[١].

أما أهم ما ميز تاريخ شمال أفريقيا في هذه الفترة فهو الصراع الديني المذهبي بين الكنيستين الدوناتية والكاثوليكية، ففي الوقت الذي أيدت فيه الإمبراطورية الكنيسة الكاثوليكية، وجدت الكنيسة الدوناتية في حركة الدوارين[٢] خير عون لها ضد أعدائها الكاثوليك. وقد عقد في سنة ٤١١م في قرطاجة اجتماع ضم أكثر من ستمائة اسقف كاثوليكي ودوناتي، وإن دل هذا العدد على أهمية اكليروس الكنيسة المسيحية[٣] فإنه يدل كذلك على حدة الصراعات بين المذهبين وتحولها من خلافات مذهبية دينية إلى نزاعات سياسية واجتماعية أيضا.

كانت الإمبراطورية الغربية قد عهدت إلى واليا (Walia) زعيم القوط (٤١٥-٤٢٠م) بمهاجمة الوندال في أسبانيا كما لجأت إلى قبائل السويفي لضرب الوندال والآلان كذلك ، وقد نجحت قبائل السويفي فى الضغط على الوندال والآلان ودفعهم إلى جنوب أسبانيا، أما واليا فقد ذهب أبعد من ذلك بمحاولته التوجه إلى الساحل الإفريقي عبر مضيق هرقل (جبل طارق) إلا أن حملته باءت بالفشل[٤]. ومن المرجح أن الإمبراطورية الرومانية قد سعت من خلال ذلك لضرب القبائل أو الشعوب الجرمانية بعضها ببعض وإشغالها بنفسها درءاً للخطر الذي كانت تهدده على ما تبقى لها من هيبة ومكانة فاتخذت القوط والسويفي معاهدين لها ضد غيرهم من الوندال والآلان.

---

(١) ب. هـ. رومنفتن، مرجع سابق، ص٣٢.

(٢) فيما يتعلق بماهية الدوارين يتضح بأنهم كانوا يشكلون فئة اجتماعية محددة حسب ما يظهر من قانون هونوريوس الصادر في سنة ٤١٢م والذي يحدد قيمة الغرامات المفروضة على الدوناتيين بما يتناسب مع الإمكانيات الاقتصادية لكل فئة من فئات المجتمع ويبدو أن اضطهاد الدوناتيين قد أدى بهم إلى الاعتماد على أكثر الفئات فقراً كفئة الدوارين، للمزيد ينظر: محمد المبكر" حركة الدوارين في شمال أفريقيا في القرنين الرابع والخامس الميلادي " ، مجلة كلية الآداب بفاس، العدد السابع، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٤م، ص ص٢٦٣-٢٦٤.

(٣) مادلين هورس ميادان، تاريخ قرطاجة، ترجمة إبراهيم بالش، ط١، منشورات عويدان، بيروت، باريس، ١٩٨١م، ص ١٢٧؛

Raven, S., Rome in Africa, Third Edition, London, 1993, p.193.

(٤) محمود سعيد عمران، مرجع سابق، ص٧٣؛

Caldwell, W.E., op.cit.,pp.578-579.

في سنة ٤٢٢ م ولى الإمبراطور هونوريوس على شمال أفريقيا شخصية بارزة وقائداً محنكاً هو الكونت بونيفاس (Boniface) الذي كان متحفزاً ليشغل هذا المنصب(١). وعلى إثر وفاة الإمبراطور هونوريوس في سنة ٤٢٣ م قامت مشكلة خطيرة حول ولاية العرش في الغرب، إذ أن الإمبراطور لم يكن له من يخلفه من أسرته، فانتهى الأمر بتولية إمبراطور جديد هو حنا رئيس الموثقين، وكان الساعي إلى تعيينه القائد العام للجيش الروماني في الغرب قسطينوس(٢) (Castinus) ولكن الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني(٣) (Theodosius II ٤٠٨-٤٥٠م) قام بتدخل في عرش الإمبراطورية الغربية، وأعاد حكمها لأسرة ثيودوسيوس الأول، فولى ابن عمته بلا سيديا (Placidia) فالنتنيان الثالث (Valentinien III ٤٢٥-٤٥٥م) على أن تكون أمه وصية على العرش لصغر سنه(٤).

وفي الوقت الذي كان فيه بونيفاس يؤيد الإمبراطورة بلاسيديا في صراعها من أجل تولي عرش الإمبراطورية الغربية كان ايتيوس (Aetius) قائد الجيش الروماني يميل إلى تأييد مغتصب العرش حنا، ومن ثم فإن تنافس هذين القائدين قد ألقى بظلاله على الإمبراطورية وشمال أفريقيا على حد سواء، ويبدو أن العلاقة بين بونيفاس والإمبراطورة بلاسيديا في رافنا قد أخذت تتوتر بعد الزواج الثاني لبونيفاس من فتاة اريوسية المذهب(٥) المعارض للمذهب الكاثوليكي، إضافة إلى المؤامرة التي بدأ ايتيوس وأعوانه يدبرونها ضد بونيفاس، إلى أن تطور الأمر في النهاية إلى عداء

---

(١) محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير،ط١، ج١، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاءه، ١٩٦٤م، ص٤١٤.

(٢) إبراهيم على طرخان، نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب ٤٧٦م، ص٦٩.

(٣) تولى هذا الإمبراطور الحكم وفق الأصول الإمبراطورية عن عمر يناهز السابعة بعد وفاة أبيه الإمبراطور آركاديوس في عام ٤٠٨ م، وكان حكم الإمبراطورية في حقيقة الأمر يسير بإمرة وزراء أركاديوس ، ينظر:

Oman, C.W.C., The Byzantine Empire, New York ,p.54.

(٤) محمد على دبوز، مرجع سابق، ص٤١٤.

(٥) كان ظهور الأريوسية (Arianism) في عهد الإمبراطور قسطنطين الأول ، ويعد اريوس (Arius) الليبي الأصل هو المؤسس الحقيقي لها، والذي دافع عن وحدة الله المطلقة ، وعدم الاعتراف بالمساواة بين الثالوث المقدس (الأب ، الابن ، والروح القدس) ، وعلى الرغم من الاضطهاد الذي تعرض له الأريوسيون لاعتبار مذهبهم بدعة وهرطقة، لكن هذا المذهب حظي بانتشار واسع بين الشعوب الجرمانية في أوروبا ، ينظر : محمد الطاهر الجراري " الحياة الفكرية في ليبيا خلال القرن الرابع الميلادى : اريوس الليبي وأثره في الفكر المسيحي " مجلة البحوث التاريخية ، العدد١، السنة ١٩، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس، ١٩٩٧ م، ص ص ١١ وما بعدها ؛

Ostrogorsky, G.,op.cit.,pp.48-49.

مستحكم عندما شق بونيفاس عصا الطاعة على الإمبراطورة برفضه أمر استدعائه إلى مدينة رافنا بسنة ٤٢٧م، ورغم تمكنه من صد قوات القائد الروماني فليكس (Felix) في نفس السنة، لكن استيلاء الجيش الروماني بقيادة القائد القوطي سيجيسفولت (Sigisvult) على عنابة وقرطاجة قد وضع بونيفاس في موقف حرج دفعه إلى التفكير في إيجاد حليف له ضد الرومان[١] لاسيما أن أحوال شمال أفريقيا قد أخذت تسوء بعد تزايد خطر القبائل المحلية .

كان الحليف الذي طلب بونيفاس عقد التحالف معه ، ومساعدته هم الوندال الذين كانوا يقطنون الجزء الجنوبي من أسبانيا ، والذي لم يتردد قائدهم جيزريك (Gizeric) في تلبية هذه الدعوة التي كان ينتظرها منذ زمن طويل ، لأنه رأى أن شمال إفريقيا منطقة مهمة من الناحية الاقتصادية ومن حيث كونها أقرب المناطق المقابلة لسواحل شبه جزيرة أيبيريا ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لان القوات القوطية منذ بداية القرن الخامس الميلادي قد بدأت تهاجمهم ، وتعمل علي إخراجهم من أسبانيا[٢]. وهناك من يشير إلى أن الاستنجاد بالوندال ربما جاء أيضاً من القائد سيجيسفولت ضد خصمه بونيفاس[٣].

على أية حال قاد جيزريك الوندال عام ٤٢٩م إلى الساحل الإفريقي عبر مضيق هرقل وبلغ عددهم نحو الثمانين ألفاً بما فيهم الرجال والنساء والأطفال وإن كان هذا العدد يظل غير محدد بدقة[٤]. كما كان من ضمنه خمسة عشر ألف جندي وندالي[٥]. وقد اشترط بونيفاس عند استنجاده بجيزريك أن يقتسم معه شمال إفريقيا على أن يكون للوندال المنطقة الغربية الممتدة من موريتانيا غرباً حتى وادي مبساجا شرقاً بينما يحتفظ بونيفاس ببقية أفريقيا الرومانية[٦].

---

(١) السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص٧ .

(٢) محمد محي الدين المشرفي، أفريقيا الشمالية في العصر القديم، ط٢، مطبعة دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٥٧م، ص ص١١٠-١١١؛

Pirenne,H.,op.cit.,p.34.

(3) **Previté-Orton.C.W.,op.cit.,p.90.**

(4) **Pehrson, J.D.R., Barbarians and Romans the birth Struggle of Europe, A.D.400-700,University of Oklahoma Press, Norman, 1983,p.153; Raven, R., op.cit.,p.195.**

(5) **Previté-Orton.C.W.,op.cit.,p.90.**

(٦) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص٨ .

لقد اختلف المؤرخون في كيفية عبور الو ندال من أسبانيا إلى سواحل إفريقيا ، إذ اعتقد البعض أنهم عبروا براً من طنجة أو سبته على الطريق المعروف بممر تازة الذي يربط ما بين طنجة وتلمسان[١]. (ينظر الخريطة رقم٢) في حين كان الاعتقاد سائداً عند آخرين بأن الوندال إنما عبروا بحراً من طنجة إلى نوميديا (الساحل الجزائري) بعدما نزلوا في مدينة الغزوات[٢] (AdFratres). ومن المرجح أن الطريق البحري كان أسهل وأوضح بالنسبة للوندال الذين كانوا علي دراية بتلك السواحل منذ عدة سنوات بفضل تنامي قواتهم البحرية وسهولة تحركهم في تلك السواحل .

كان تحرك الأسطول الوندالي محاذياً للشواطئ وإلى أغنى الولايات الرومانية حيث اخذ يسلب و ينهب دون أن يعترضه شيء ، والدليل علي تدهور الإمبراطورية الغربية أن الأسطول الوندالي لم يلق أية مقاومة تذكر حتى وصل إلى نوميديا وإفريقيا البروقنصلية عندئذ شعر الرومان بالخطر الجسيم من زحف القوات الوندالية فسعوا إلى توحيد الجيوش الرومانية في الوقت الذي أجريت فيه الاتصالات مع بونيفاس في إفريقيا لا قناعه بالوقوف ضد الوندال[٣].

وبعد المصالحة التي جرت بين بونيفاس والبلاط الإمبراطوري حاول بونيفاس إقناع الوندال بالتراجع والعودة إلى أسبانيا ، فرفضوا هذا العرض ، فقرر التصدي لهم لكن ألحقت به هزيمة كبيرة في موريتانيا انسحب علي أثرها إلى مدينة هيبوريجيوس[٤] (HippoRegius) (عنابة الحالية) فضرب الوندال عليها حصاراً قي سنة ٤٣٠م ليشكل ذلك بداية النهاية للرومان في إفريقيا[٥]. وبداية البداية لموقف الإمبراطورية البيزنطية من الاحتلال الوندالي لشمال إفريقيا .

---

(1) **Ade Ajayi,J.F. & Crowder,M.,Historical Atlas of Africa, Longman ,1985, p.٤٣.**

(٢) محمد محي الدين المشرفي، مرجع سابق ، ص١١١.

(٣) عبد الحفيظ محمد علي ، قوة الوندال البحرية في غرب البحر المتوسط وأثرها على غرب أوروبا ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٧م ، ص ص٢٣-٢٤.

(٤) حول احتلال هذه المدينة من قبل الوندال عام ٤٣١م ، ينظر:

Dennis, H.V.M., Another note on the Vandal Occupation of Hippo Regius, J.R.S, Vol. 15, 1967, pp.263-268.

(5) **Mattingly,D.J., Tripolitania,First Published ,London,1995,p.215;**

ب. هـ . ورمنقتن، مرجع سابق ، ص٣٤.

ثانيا: موقف الإمبراطورية البيزنطية من الاحتلال الوندالي

كان حصار هيبوريجيوس قد بدأ نهاية شهر مايو من عام ٤٣٠م وتقع هذه المدينة غربي قرطاجة على بعد ١٨٠ ميلاً تقريباً[١].وقد دام حصار الوندال لها عدة أشهر بسبب حصانتها ، ومدى القوة التي أبداها الرومان للدفاع عنها[٢].

كانت روح المقاومة في هيبوريجيوس قد تمثلت بدرجة كبيرة في شخص القديس أوغسطين (٣٥٣-٤٣٠م) الذي حث الأساقفة الكاثوليك علي البقاء مع الأهالي ، ومشاركتهم محنتهم في صد الهجوم الوندالي علي المدينة ، ولكن هذه الدعوة لم تجد نفعاً أمام إصرار الوندال علي فتح المدينة، الأمر الذي أجبر الكثيرين منهم على الفرار ، أما أوغسطين[٣] فقد مات في أغسطس عام ٤٣٠م أثناء فترة الحصار.

إن الخطر الحقيقي الذي واجهه الوندال عندما أرسلت الإمبراطورية البيزنطية جيشاً بقيادة اسبار (Aaspar) أحد القادة الجرمان الذين كانت لهم مكانة في بلاط القسطنطينية ، وقد انضمت قواته إلى قوات بونيفاس؛ غير أن القوات البيزنطية تعرضت لهزيمة فادحة في عام ٤٣١م[٤]. وقررت هذه المعركة في الواقع مصير شمال إفريقيا نهائياً بعدم وجود أحد يتولى الدفاع عنه ،حيث عاد إسبار إلى القسطنطينية وتوجه بونيفاس إلى ايطاليا لتوليه الإمبراطورة بلاسيديا منصب القائد العام للجيوش الرومانية بعد مقتل القائد فليكس على يد ايتيوس عام ٤٣٠م[٥].

ويبدو أن موقف الإمبراطورية البيزنطية من الاحتلال الوندالي لشمال أفريقيا قد جاء بناءً علي تنامي قوة الو ندال البحرية والتي أصبحت تشكل خطراً حقيقياً علي

---

(١) إبراهيم علي طرخان ، " شمالي أفريقية والوندال ٤٣٩-٥٣٤م " المجلة التاريخية المصرية ، مج١١، منشورات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، مصر، ١٩٦٣م، ص١١٠.

(2) **Murabet, M., A Brief History of Tripolitania,Tripoli-Libya,1965,p.19.**

(٣) يعد القديس أوغسطين من الشخصيات البارزة و المهمة في تاريخ الكنيسة الغربية ولقد استمرت أعماله تؤثر بشكل واضح في الفكر المسيحي الغربي منذ ذلك الوقت حتى اليوم ، إذ ترك أوغسطين العديد من المؤلفات والكتب كان أهمها كتاب (مدينة الله) ينظر : نورمان بينز ، مرجع سابق ، ص ص ١٤٨ وما بعدها ؛

Wood, R., Roman Africain Colour, London, 1966,p.40.

(٤) عبد الحفيظ محمد علي ، مرجع سابق ، ص ص٢٤-٢٥؛

Ade Ajayi,J.F.& Crowder,M., op.cit.,p.٤٥.

(٥) إبراهيم علي طرخان ، شمالى أفريقية والوندال ٤٣٩-٥٣٤م، ص١١٣.

الإمبراطوريتين الغربية والشرقية، وربما أيضاً استجابةً لنداءات الإمبراطورة بلاسيديا المتكررة .

إن المدن التي استطاعت الصمود وراء أسوارها المحصنة ضد التوسع الوندالي هي قرطاجة وكرتا (Cirta – قسنطينة الحالية) إضافةً لهيبوريجيوس، وعلى الرغم من ذلك فإن خطر الوندال أصبح يهدد أملاك الإمبراطورية الرومانية بأسرها في المنطقة، إذ بدأ الأسطول الوندالي يطال معظم موانئ الساحل الإفريقي[(١)] وبالنسبة لمدينة هيبوريجيوس التي دام حصارها أربعة عشر شهراً فإنها سقطت في أيدي الوندال في شهر ديسمبر عام ٤٣١م[(٢)].

وبعد عودة بونيفاس إلى رافنا تقلد منصب القائد العام للجيش الروماني وليتجدد التنافس القديم مع ايتيوس ، لكن بونيفاس مات بعد أشهر قليلة من عودته ففرض ايتيوس نفسه علي بلاسيديا قائداً عاماً للجيش مركزاً جهوده على منطقة غاليا (فرنسا الحالية) وترك شمال أفريقيا يواجه مصيره أمام زحف القوات الوندالية[(٣)].

لقد رغب ايتيوس الدخول في عملية التفاوض مع جيزريك حيث اقترح علي الإمبراطور فالنتينان وأمه بلاسيديا عقد معاهدة سلام مع الوندال فلقي بذلك استحسان الإمبراطور الذي أرسل سفيراً للتفاوض معهم ، و كان هذا السفير هو تريجتيوس (Trigetius) الذي عقد في ١١ فبراير عام ٤٣١م معاهدة السلام مع الوندال في مدينة هيبوريجيوس[(٤)].

كانت هذه الاتفاقية الأولى بمثابة الهدنة بين الطرفين وتضم أهم بنودها النقاط التالية:

١-أن يدفع جيزريك غرامة سنوية.

٢-لا يتجاوز ملكه حدود نوميديا الشرقية و هي مدينة طبرقة.

---

(١) كما يشير المؤرخ فيكتور دي فيتا (Victor de Vita) أثناء حصار هيبوريجيوس إلى وجود الوندال في مدينتين من مدن الولاية وهما فيتا (Vita) ويروسي (Urusi) ينظر :

Selmane ,K., La Byzacène à L'époque Vandale Société et Economie(mémoire Pour L'obtention du diplomome des etudes Approfondies)Unversité Tunis I , 2000,p.2 ;Previté - Orton, C.W., op .cit.,p.90; Dennis, H.V.M., op. cit.,p. 263.

(٢) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، مرجع سابق ، ص١٠٩ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص١١؛

Pehrson, J.D.R., op.cit.,p.154.

(٤) إبراهيم علي طرخان ، شمالي أفريقية والوندال ٤٣٩-٥٣٤م ، ص ص١١٥-١١٦.

٣-يعطي ولده هونريك رهنا علي الوفاء.

٤-يعمل بهذه الاتفاقية لمدة ثلاثين سنة(١).

على أن أهم ما تضمنته هذه الاتفاقية هو دخول الوندال بموجبها في خدمة الإمبراطور بصفتهم سكان معاهدون (Féderé) مقابل اعتراف الإمبراطورية بسيادة جيزريك علي جزء من موريتانيا وكامل نوميديا والبروقنصلية الغربية(٢). وتجدر الإشارة إلى أن هناك من يشير إلى أن اتفاقية هيبوريجيوس عقدت بين الوندال والإمبراطورية البيزنطية(٣). علي أنه لا يوجد ما يؤكد هذا الاعتقاد وإن كانت قوة الوندال وتوسعاتهم في غرب البحر المتوسط لابد وقد حظيت باهتمام الإمبراطورية الغربية والشرقية على السواء .

لقد أصبح قيام مملكة الوندال في شمال إفريقيا حقيقة واقعة من خلال معاهدة عام ٤٣٥م التي وطدت حكم جيزريك والذي ما فتئ يهدىء من مخاوف الرومان حتى نجح في استرجاع ابنه هونريك وبدأ في الاستيلاء على ما تبقى للرومان في شمال أفريقيا منتهكاً بذلك ما كان قد اتفق عليه معهم(٤).

في ١٩ أكتوبر عام ٤٣٩م دخل جيزريك قرطاجة أكبر المدن في الشمال الأفريقي دون مقاومة تذكر ، كما أنه باستيلائه علي هذه المدينة سيطر علي معظم الموانئ التي ذاع صيتها في تصدير الغلال والقمح إلى إيطاليا(٥).

أحدث سقوط قرطاجة صدى عميقاً في جميع أنحاء الإمبراطورية خاصة في روما ، وعلي أثر هذا السقوط سعت الإمبراطورية الغربية إلى تعبئة قواتها الموزعة في سائر أوروبا للدفاع عن سواحلها بعدما أصبح هدف جيزريك واضحاً من خلال استهدافه للخطوط الدفاعية الأمامية ، وهي جزر صقلية و كورسيكا وسردينيا، وجاء

---

(١) محمد علي دبوز ، مرجع سابق ، ص٤٢٢.

(2) **Selmane, K., op.cit.,p.2.**

(٣) محمد محي الدين المشرفي ، مرجع سابق ، ص١١٤.

(٤) عبد الحفيظ محمد علي ، مرجع سابق ، ص٢٧؛ شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص٣٢٧.

(5) **Laroui, A., L'Histoire du Maghreb un essai de Synthése, editions François Maspero,Paris,1970,p.66; Courtois, C., Les Vandales et L`Afrique Arts et Metiers Graphiques, Paris, 1955,p.405.**

الرد أيضاً من الإمبراطور البيزنطي ثيودوسيوس الثاني بالتدخل لحماية الإمبراطورية الغربية[١].

ففي سنة ٤٤٠ م أضحت جزيرة صقلية الهدف الرئيسي لغزوات الوندال التي اقتحموها واتخذوها قاعدةً لهم وقد فشلت الحملة البيزنطية التي أرسلها الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني في عام ٤٤١م لمساعدة الإمبراطورية الغربية في حربها ضد الوندال ، ويبدو أن فشل هذه الحملة راجع إلى اختلاف كلمة قادتها بالدرجة الأولى وكذلك استعادة البيزنطيين لقواتهم سنة ٤٤٢م[٢] بسبب ما كان يواجههم من خطر الهون بقيادة أتيلا الذي أخذ يشن هجمات تدميرية على معظم شبه جزيرة البلقان[٣].

وفي أثناء هذه السنة عقد جيزريك اتفاقية جديدة مع الإمبراطور فالنتينيان الثالث تحصل بموجبها الأول على البروقنصلية وبيزاكيوم وجيتولى والبريتان وجزء من نوميديا والجزء الساحلي من تريبوليتانيا فيما تركت نوميديا الغربية وموريتانيا للإمبراطورية الرومانية وهذه الاتفاقية هي التي وضعت تقسيماً واضحاً بين الطرفين وأقامت بالفعل مملكة الوندال في شمال أفريقيا[٤].

أطلقت اتفاقية عام ٤٤٢م يد جيزريك في البحر المتوسط فبعد سيطرته على أهم المناطق في شمال أفريقيا اتخذ من بعض الجزر في غرب البحر المتوسط قواعد لقواته وأسطوله البحري ولاسيما جزيرة صقلية.

في عام ٤٥٥م جاءت الفرصة مواتية للوندال لغزو روما، فقد أدى مصرع الإمبراطور فالنتينيان الثالث على يد أحد أعضاء مجلس الشيوخ و يدعى بترونيوس ماكسيموس (Petronius Maximus) بأرملة الإمبراطور يود كسيا (Eudoxia) إلى

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص١٣.

(٢) إبراهيم علي طرخان، شمالي أفريقية والوندال٤٣٩-٥٣٤م ، ص ١١٩ .

(3) **Ostrogorsky, G. ,op.cit.,p.57.**

(٤) لقد حظيت هذه الاتفاقية بتأييد الإمبراطور الشرقي ثيودوسيوس الثاني ينظر :

Selmane, K., op.cit.,p.3;

شارل اندريه جوليان ، مرجع سابق ص ٣٢٨.

أن طلبت من الوندال تقديم المساعدة لها في استرجاع عرش الإمبراطورية خاصة بعد أن أجبرت على الزواج بمغتصب العرش الجديد(١).

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه هنا لماذا لم تطلب الإمبراطورة يودكسيا العون والمساعدة من الإمبراطورية البيزنطية على أساس الروابط التي تربط الإمبراطوريتين من علاقة النسب الإمبراطوري أولاً ثم الروابط السياسية والتاريخية بينهما ثانياً ؟ .

وعلى الرغم من أن المصادر المعاصرة لتلك الفترة قد لا تجيب على هذا السؤال بشكل صريح وواضح، فإنه باستقراء تاريخ الإمبراطورية البيزنطية حينذاك يتضح أنها قد تعرضت ومنذ أوائل القرن الخامس الميلادي إلى أزمة خطيرة في سياستها الخارجية بسبب ما قام به الهون بزعامة أتيلا من غارات مدمرة امتدت في أراضي الدولة حتى بلغت أسوار القسطنطينية واستنزفت أموال الإمبراطورية البيزنطية ونتيجة لكثرة ما طلبه الهون من إتاوات ومنح(٢). أما بروكوبيوس(٣) فيكاد يحصر سبب استغاثة الإمبراطورة يودكسيا فى أنه لم يعد في بيزنطة منذ وفاة الإمبراطور ثيوديوسيوس الثاني عام ٤٥٠م أحد يستطيع أن يثأر للإمبراطورية الغربية إضافة إلى أن يودكسيا رأت في جيزريك صديقاً وحليفاً قوياً يمكن أن يعيد لها عرشها الذي سلب.

أياً كانت الأسباب فإن جيزريك في صيف عام ٤٥٥م قد توجه بإسطوله المكون من جيش الوندال وسكان الشمال الإفريقي نحو ايطاليا ، واقتحم مدينة روما واستباحها للجنود لمدة أربعة عشر يوماً(٤). ثم عاد علي الفور إلى قرطاجة يحمل معه عدداً كبيراً من الأسرى بلغ عدة آلاف من النساء والرجال وكان من بينهم الصناع و أرباب

---

(1) **Procopius, History of the Wars, Vol. II,Books III-IV, Translated by H.B. Dewing, (L.C.L), Harvard University Press, London, 1968, III.IV.36-38;**

عبد الحفيظ محمد علي، مرجع سابق ، ص ٦٤.

(2) **Vasiliev, A.A., op.cit.,p. 98.**

(3) **Procopius,Hist.War.,III.IV.38-39.**

(4) **Raven,R.,op.cit.,p.199.**

الحرف[١]. علي أن أهم من كان مع هؤلاء الأسرى الإمبراطورة يودكسيا وابنتاها يودكسيا (Eudoxia) وبلاسيديا (Placidia)[٢] .

إن سقوط روما علي أيدي الوندال في سنة ٤٥٥م قد ألصق بهم صفة التخريب والتدمير[٣] لما لحق بهذه المدينة من أعمال السلب والنهب ، من عمائر و كنوز الشرق التي كانت موجودة في معابد وكنائس روما[٤]. ولكن من المرجح أن العداء المذهبي بين الوندال الأريوسيين والرومان الكاثوليك كان سبباً رئيساً في إطلاق هذه الصفة أو تثبيتها على الأقل عليهم، إذ بسقوط روما سقطت الإمبراطورية والكنيسة الكاثوليكية في الغرب فمثل ذلك نهاية السلطة السياسية والروحية لروما ولو لفترة من الزمن[٥].

تولى الإمبراطور ماركيان (Marcian) حكم الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة ثيودوسيوس الثاني في عام ٤٥٠م وكانت القسطنطينية حينذاك قد استنفذت كل قواها في حروبها مع الفرس والهون ولم يعد لديها من القوة ما يكفل التدخل في

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص١٥.

(2) **Previté-Orton, C.W.,op.cit.,p. 97.**

(٣) ترجع أصول الوندال العرقية إلى البلطيق –أحد الشعوب الجرمانية في شمال أوروبا–الذين أشيع بأنهم زرعوا الخوف والذعر في نفوس الأهالي عبر سلوكهم التخريبي ، وكانوا علي عداء شديد مع الرومان وحتى كلمة فينداليزم (Vandalisme) التي تعني الوحشية والتخريب لم تعد توحي إلى هذه الصورة السلبية التي انطبعت عليهم ، ومع ذلك لا يجب الانجرار كلياً وراء هذه الصورة إنما أخذ الحيطة والحذر خاصة في عدم وجود المصادر المحايدة، للمزيد ينظر :
Boutbouqalt,T. ''L'évolution des rapports Maroco –Chrétiens de L'époque Romaine aux Almoravides (IIIe-XIe Siècle)'',Islamo Christiana,vol.27, Roma, 2001, p.67.

(٤) كانت كنيسة جوبيتركابيتولنس من ضمن ما نهب حيث اقتلع نصف السقف الذي كان مكسواً بطبقة سميكة من الذهب وقيل أن إحدى السفن التي مع جيزريك والتي كانت محملة بالتماثيل قد فقدت ، ولكن جميع السفن الأخرى وصلت مع الونداليين إلى قرطاج ينظر:

Procopius,Hist.War., III . V.3-6.

(5) **Boutbouqalt,T.,op.cit., p.68.**

إيطاليا حربياً أو حتى في شمال إفريقيا وعندما دعي الإمبراطور الرومانى الجديد افتيوس(Avitus) في يوليو سنة ٤٥٥م (أي بعد شهر من سقوط روما) للقيام بحملة مشتركة ضد الوندال اكتفى الإمبراطور ماركيان بأن وجه إلى الوندال إنذاراً لم يكترث له جيزريك بطبيعة الحال(١).

لقد استمر جيزريك رغم كبر سنه بإرسال سفنه الحربية المشحونة بالمقاتلين الوندال وسكان الشمال الإفريقي الذين كانوا يتقاسمون غنائم الحروب التي كانوا يخوضونها معاً موجهاً قواتهم وكفاءتهم الحربية ضد أعدائه الرومان، وكانت وجهة هذه السفن نحو الشواطئ الإيطالية أو شواطئ صقلية وسردينيا وكورسيكا ، مقتصراً في هذه الحملات علي الاستيلاء والنهب فقط دون الاستيطان(٢).

وإن كانت هذه الغارات في أغلب الأحيان تتوج بالنجاح فإنها في أحايين أخر تنتهي بفشل ذريع ، ففي سنة ٤٥٦م ، استطاع القائد الروماني ريكيمر (Ricimer) أن يغرق ٦٠ مركباً شراعياً من الأسطول الوندالي بالقرب من مدينة أجرجنتيوم (Agrigentium) وإجبارهم على الفرار إلى جزيرة كورسيكا ، وبعد عامين من هذه الحادثة تمكن الإمبراطور ماجوريان (Majorian) من هزيمة قوة بحرية من الوندال بالقرب من سينوسا (Sinuessa) وأغرق جزءاً كبيرًا منها حيث تركوا وراءهم عدداً كبيرًا من القتلى من بينهم أحد أقرباء جيزريك(٣).

هذا ويتفق ماجوريان مع ليون الأول (LeonI) إمبراطور الشرق (٤٥٧-٤٧٤م) في طريقة وصوله إلى العرش، فكما كان ريكيمر صانع الأباطرة في الغرب قد ولي ماجوريان العرش، كذلك فعل اسبار (Aspar) الآلاني القائد العام لجيوش الإمبراطورية البيزنطية، عندما ولى ليون العرش (٤). وقد بعث ليون بتأييده

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص١٦؛

Bréhier, L., The Life and Death of Byzantinum, Translated by Margaret Vaughan, New York 1977,p.10

(2) **Pavy,,A.,Histoire de La Tunisie,editeur Bouslama, 2em Edition,Tunis,p.246**.

(3) **Idem.**

(٤) حول شخصية كل من ريكيمر وأسبار ودورهما في الإمبراطوريتين الغربية والشرقية ينظر : إبراهيم علي طرخان ، نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب ٤٧٦م ، ص ص٧٦-٨٠؛

Bréhier, L., op.cit.,p.10.

لتولي ماجوريان عرش الإمبراطورية الغربية في سنة ٤٥٧م(١).

بذل الإمبراطور ماجوريان جهداً كبيراً في سبيل إصلاح وضع الإمبراطورية الرومانية في الغرب ، وبما انه كان يتمتع بمؤهلات عالية فإنه آلى على نفسه أن يضع حداً لقوة الوندال التي ما فتئت تدمر وتجوع ايطاليا ، لاسيما بعد النجاح الذي حققه القائد ريكيمر على القوات البحرية الوندالية، وربما اعتقد ماجوريان من خلال ذلك النجاح انه يملك من القوة ما يكفيه لاسترداد شمال إفريقيا من الوندال(٢).متبعاً إستراتيجية قديمة اتبعها سكيبيو الإفريقي (Scipion L`Aafricain) عند هجومه على قرطاجة فحاول أن يباغت الوندال بالهجوم عليهم عبر التسلل من أسبانيا(٣).

ففي سنة ٤٥٧م جهز الإمبراطور ماجوريان في خليج أليكانت (Alicante) ثلاثمائة سفينة شراعية خرجت لتوها من المصانع البحرية لمدينة إكيليه (Aquilee) ورافين (Ravenne) ومسين (Miséne)، وقد انتاب جيزريك شيء من القلق في البداية عندما سمع بهذه الاستعدادات مما دفعه إلى تجنب هذا الخطر والمحاولة عبر التفاوض لعقد صلح معهم لكن المفاوضات التي أبداها جيزريك رفضت ، ولكي يجعل هذا الغزو مستحيلاً أو على الأقل يؤجل سير هذه الحملة ويعيق تحركها عبر جيزريك إلى موريتانيا وطنجة وقام بتدمير المدن التي كان من المفترض أن تمر بها الحملة وسمم آبارها(٤).

ورغم أن هذه الحملة جهزت بقدر كبير من الاهتمام فإن الوندال تمكنوا من القضاء علي الأسطول الروماني بخيانة بعض قادته مما أدى بماجوريان إلى الرجوع إلى غاليا وإذعانه للمفاوضات، حيث وقع اتفاق سلام جديدًا مع الوندال فى سنة ٤٦٠م، وبهذه الهزيمة ومقتل الإمبراطور ماجوريان عام ٤٦١م أوقفت الإمبراطورية

---

(١) شارل اندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص٣٣٤.

(2) **Bel Khodja,K. et Autres.,Histoire Generale de la Tunisie ,Livre I ,L`antiquite, Editions de L`offic Pédag ogique,Tunis,1966,p.235.**

(3) **Saumagne, C.,''Points de vue sur la reconquête Byzantine de L'Afrique au VI siècle'',C.T, ,tome VII , annee 1959,Tunis ,p.284**.

(4) **Pavy, A.,op.cit.,p.246.**

الرومانية في الغرب محاولاتها ضد الوندال[١].

لقد حاول جيزريك التدخل في شئون إيطاليا بعد مقتل إمبراطور الغرب ماجوريان في أغسطس عام ٤٦١م وقام بترشيح أوليبريوس (Olybrius) لمنصب الإمبراطور وعندما لم تسر الأمور في صالحه أخذ بمهاجمة إيطاليا وجزيرة صقلية ما بين عامي ٤٦١-٤٦٢م[٢]. ولم ينشط جيزريك في المجال العسكري والسياسي كما نشط في هذه الظروف حيث بدأ في إبرام بعض الاتفاقيات والأحلاف، فعقد معاهدة مع ايجديوس (Aegidius) قائد الجيش في شمال بلاد غاليا وتفاوض مع أوريك ملك القوط الجديد سنة٤٦٦م ومع ريميسموند (Remismund) زعيم السواف[٣]. ويتضح من هذه التحالفات التي عقدها جيزريك مع هؤلاء أنه أراد تأييدهم في التدخل في شئون الإمبراطورية الغربية أو وقوفهم على الحياد فيما كان يشنه من غارات على السواحل الإيطالية وبعض جزر البحر المتوسط ولاسيما الغربية منها .

ثالثا: الحملة البيزنطية ضد الوندال عام ٤٦٨م

حاولت الإمبراطورية البيزنطية التدخل ضد جيزريك الذي كانت له طموحات كبيرة في المطالبة بوراثة الإمبراطور فالنتينيان الثالث ، فضلاً عن قيامه بعدة عمليات بحرية على الشواطئ اليونانية[٤] البيلوبونيز (Peloponnese) وألليريا والحد من الحركة التجارية بعد قطع الاتصال فيما بين عامي ٤٦١-٤٦٧ م بين بيزنطة والإسكندرية[٥].

كان موقف الإمبراطورية البيزنطية متمثلاً في شخص الإمبراطور ليون الأول الذي سعى حثيثاً من أجل ضرب قوة الوندال ومحاولة إعادة شمال أفريقيا لسيطرة الإمبراطورية وكانت قمة جهوده قد جاءت بتحرير نفسه من التأثير الكبير الذي كان يمارسه عليه القائد أسبار وكذلك تأثير العنصر القوطي الذي أخذ في التنامي منذ منتصف القرن الخامس الميلادي في الجيش البيزنطي[٦]. وعلى ضوء ذلك أرسل

---

(1) **Bel Khodja,K. et Autres.,op.cit.,p.236.**

(٢) عبد الحفيظ محمد علي ، مرجع سابق ، ص ص ٦٨-٦٩.

(٣) شارل اندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ٣٣٥.

(4) **Bel Khodja,K. et Autres.,op.cit.,p.236.**

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ١٨؛

Raven,S.,op.cit.,p.199.

(6) **Ostrogorsky, G.,op.cit.,p.61; Vasiliev,A.A.,op.cit.,p.104.**

الإمبراطور ليون سفارة إلى جيزريك يحثه على الانسحاب من إيطاليا وصقلية وإعادة نساء البلاط الإمبراطوري، ومع إرسال عدة سفارات إلى جيزريك فإن هذا الأخير احتفظ بالبنت الكبرى يودكسيا للإمبراطور فالنتينيان الثالث والتي كان قد زوجها لابنه، في حين أرسل إلى القسطنطينية الإمبراطورة يودكسيا وابنتها الصغرى بلاسيديا المتزوجة من أليوبريوس(Olybrius) أحد اشهر أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى[١].

بعد وفاة إمبراطور الامبراطورية الغربية سيفروس (Severvs) ٤٦١م -٤٦٥م ظل القائد ريكيمر صاحب السلطة الفعلية لمدة ثمانية عشر شهراً وخلال هذه الفترة اقتنع بعجزه عن مقاومة القوة البحرية الهائلة التي يملكها الوندال ، لذلك اضطر إلى الاتفاق مع السناتو الروماني (مجلس الشيوخ) على مخاطبة الإمبراطور ليون ليختار إمبراطورا للغرب حتى يضمن مساعدة الشرق ضد الخطر الوندالي ، وبالفعل جاء اختيار انتيميوس (Anthemius) إمبراطوراً للغرب في عام ٤٦٨م حائزاً للرضى العام في الشرق والغرب على السواء[٢].

اتفق الإمبراطوران على إنقاذ الغرب من خطر الوندال باستعادة شمال إفريقيا والنفوذ الروماني في البحر المتوسط، وتم الإعداد لحملة كبيرة جداً تكبدت الإمبراطورية البيزنطية العبء الأكبر في إعدادها وتجهيزها في عام ٤٦٨م[٣]. وقد أوكلت مهمة قيادتها إلى صهر الإمبراطور ليون الأول باسيليسكوس (Basiliscus) ، وكان جهد الإمبراطورية البيزنطية واضحاً على المستوى العسكري والمالي إذ وصل عدد سفن الأسطول إلى حوالي ١١٠٠ سفينة ،كما طلب من الإمبراطورية الغربية تحت حكم انتيميوس الانضمام إلى هذه الحملة[٤]. وفي أثناء الأعداد للحملة كان أسبار يلح مراراً وتكراراً علي باسيليسكوس ليبقي علي جيزريك والونداليين خشية أن يهزم ليون الونداليين

---

(1) **Procopius,Hist.War.,III.V.6-7 ;Previté-Orton,C.W.,op.cit.,p.99.**

(٢) إبراهيم علي طرخان ، نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب ٤٧٦م ، ص ص ٨١-٨٢.

(٣) إبراهيم علي طرخان ، شمالي أفريقية والوندال ٤٣٩-٥٣٤م ، ص ١٤٢ .

(٤) يبدو أن بعض المؤرخين البيزنطيين قد بالغوا في حجم هذه الحملة لغرض الإشارة إلى قوة و جدارة الحملة التي قادها بليزاريوس في عهد الإمبراطور جستنيان ، لتأكيد القول إن هذه الحملة سحقت الوندال بقوة أقل من قوة حملة ليون الأول وأنتيموس اللذين فشلا في هذه الحملة ، وسيتم توضيح حملة الإمبراطور جستنيان عام ٥٣٣م فيما بعد، ينظر:
Bel Khadja,K. et Autres.,op.cit.,p.236.

ويرسخ سلطته بشكل أكثر أمانا، وربما لاتفاق مصالح جمعت بين اسبار وجيزريك وتوافقهما في المذهب الديني كان لهما دور في ذلك(١).

كانت خطة هذه الحملة لمهاجمة الوندال تنطلق من ثلاث جهات رئيسية فالجيش الرئيسي يسير تحت قيادة باسيليسكوس مباشرة إلى قرطاجة ، والجيش الأخر تحت قيادة هراقليوس (Heraclius) ومارسوس (Marsus) يتقدم عن طريق مصر إلى شمال أفريقيا، بينما ماركللينوس (Marcellianus) يخترق بأسطوله مركز الوندال في البحر المتوسط(٢). وكان هذا الأخير حاكم دلماشيا وقد أعلن انضمامه للحملة بعد إعطاء ولائه للإمبراطور الجديد إنتيميوس(٣).

أما هيراقليوس قائد القوة التي عبرت مصر عن طريق البحر فقد مر أولاً ببرقة ووضع بعض قواته في تريبوليتانيا بعد أن احتلها ، ثم توجه بقواته نحو قرطاجة(٤). في أثناء ذلك تمكن ماركللينوس من أن يلحق بالوندال هزيمة كبيرة بعد ما استولى على جزيرة سردينيا بدون صعوبة تذكر(٥).

بيد أن الأسطول الرئيسي للحملة تحت قيادة باسيليسكوس قد وصل إلى الشمال الغربي من الوجه القبلي عند راس بون(Capbon) – على ساحل تونس – في سنة ٤٦٨م ، ولم تنزل قواته إلى الساحل ، وبدلاً من أن يبدأ باسيليسكوس

---

(١) إبراهيم علي طرخان ، نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب ٤٧٦م، ص٨١.

(٢) عبد الحفيظ محمد علي ، مرجع سابق ، ص٧٢.

(٣) كان ماركللينوس(Marcellianus) أحد أبناء ماسيليا علي صلة قرابة بالقائد ايتيوس وبعد موت الأخير قام ماركللينوس بثورة ضد الإمبراطورية وتولي السلطة في دلماشيا بنفسه ، وعندما استماله الإمبراطور ليون الأول جدد ولاءه للإمبراطور الجديد انتيميوس ودخل معه في الحملة الموجهة ضد الوندال عام ٤٦٨م ينظر:

Procopius.Hist.War.,III.VI.7-8; Previté-Orton,C.W.,op.cit.,p.٩٩.

(4) **Pavy,A. ,op.cit.,p.247.**

(5) **Procopius, Hist.War.,III.VI. 9.**

بالهجوم المباشر دخل في مفاوضات مع جيزريك حيث استطاع من خلالها الوندال أن ينالوا هدنة لمدة خمسة أيام مكنتهم من تنظيم أنفسهم وتجميع قواتهم ومن ثم شن الوندال هجوماً مباغتاً على الأسطول البيزنطي واستطاعوا حرق معظم سفنه الراسية بالقرب من الساحل وفي الوقت الذي كان فيه الأسطول الوندالي يمنع البيزنطيين من الهرب عبر البحر، وعندئذ قضى الوندال نهائياً على هذه الحملة(١). ولقد اضطر باسيليسكوس للفرار إثر هذه الهزيمة إلى القسطنطينية وبقي في كنيسة أيا صوفيا حتى عفا عنه الإمبراطور ونجا من حكم الإعدام(٢). في حين قتل ماركللينوس علي يد أحد زملائه الريان بتهمة الخيانة(٣).

أما مصير هراقليوس فبعد الكارثة التي تعرض لها الأسطول البيزنطي أخذ في الرجوع من قرطاجة إلى تريبوليتانيا حيث اتخذها كقاعدة للبيزنطيين في شمال إفريقيا ، وبقى هناك لمدة ثلاث سنوات حتى استدعاه الإمبراطور ليون الأول إلى القسطنطينية في عام ٤٧١م(٤). وتجدر الإشارة إلى أن هناك من يشيرإلى أن الإمبراطور ليون قد أرسل حملة أخرى بقيادة هراقليوس في سنة ٤٧٠م إلى تريبوليتانيا وكان مصيرها الفشل أيضا(٥). غير أن هذه الحملة في حقيقتها كانت جزءاً من الحملة الكبيرة السابقة عام ٤٦٨م .

وعلى أية حال فإن هذه الهزيمة الكبيرة التي منيت بها الإمبراطورية البيزنطية كان لها أثر كبير علي الناحية المعنوية والمادية للبيزنطيين ، إذ كلفت خزينة الدولة ما يعادل١٣٠،000ليرة ذهبية(٦). وعلى الرغم من هذه الجهود المضنية التي بذلتها الإمبراطورية لم تحقق الحملة النتائج المرجوة منها(٧).

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص١٩؛

Bréhier, L., op.cit.,p.12.

(٢) إبراهيم علي طرخان ، شمالي أفريقية والوندال ٤٣٩_٥٣٤م ، ص١٤٤.

(3) **Procopius, Hist.War.,III.VI. 25-26.**

(٤) عبد الحفيظ محمد علي ، مرجع سابق ، ص ٧٣؛

Bakir,T.,op.cit .,p.20.

(5) **Bel Khodga,K. et Autres.,op,cit.,p.237; Mattingly, D.J.,Tripol.,p.215.**

(6) **Pavy, A.,op.cit.,p.247; Ostrogorsky,G.,op.cit.,p.61.**

(7) **Saumagne,C.,Reco .Byz.Afr.,p.284.**

سرعان ما بدأ الأسطول الوندالي بعد ذلك في شن الغارات علي أجزاء عديدة من البحر المتوسط، ففي عام ٤٧٢م حاول غزو الإسكندرية و التي تعد مخزن الغلال الرئيسي للقسطنطينية – كما كانت قرطاجة تمثل الشيء نفسه لروما – وقد ظهر الوندال أيضاً بشكل متكرر في كل من ألليريا ودلماشيا والبيلوبونيز وكل الجزر القريبة منها ثم مرة أخرى إلى صقلية وإيطاليا واستمروا في نهب وسلب كل المناطق التي مروا بها حتى عام ٤٧٦م(١) وخلال الفترة مابين ٤٦٨-٤٧٦م كانت الإمبراطورية الغربية قد بلغت ذروة الاضطرابات والفوضى، وتولى عرشها أباطرة ضعفاء حتى سقطت نهائياً على يد القائد الجرماني أدواكر (Odoacer) في ٢٣ أغسطس عام ٤٧٦م(٢)، الذي خلع الإمبراطور الصبي رومولوس أوغستولوس (Romulus Augustulus) ، وأرسل سفارة مؤيدة من مجلس الشيوخ في روما إلى الإمبراطور البيزنطي زينون (Zenon) الذي تولى عرش الإمبراطورية بعد صهره ليون الأول في سنة ٤٧٤م ، يؤكد فيها أنه لم تعد هناك حاجة لوجود الإمبراطور في الغرب وأنه في نظرهم إمبراطور واحد وهو الإمبراطور الشرقي يكفي لرعاية شؤون ومصالح الشرق والغرب ولتصبح القسطنطينية المركز الوحيد للإمبراطورية بدلاً من روما(٣).

أما العلاقة بين البيزنطيين والوندال منذ ذلك الوقت فقد بدأت تأخذ منحى آخر نحو السلام ، فبعد النجاحات التي حققتها غارات الأسطول الوندالي خاصة تلك الحملة التي قام بها جيزريك ضد إيبر (Epire) والتي خرب خلالها مدينة نيوكوبوليس (Nicopolis) قد أجبرت الإمبراطورية البيزنطية على التفاوض مع الوندال ، وعند رجوع جيزريك إلى قرطاجة وجد مبعوث الإمبراطور زينون سيفر (Severe) ، الذي قدم عرضاً لاتفاقية سلام دائم مع قرطاجة ، وكان رد جيزريك بأنه مستعد لتوقيع هذه

(١) كانت غارات جيزريك تنطلق بمساعدة المغاربة – سكان الشمال الإفريقي – في بداية كل ربيع من كل عام، حيث تستولي على بعض المدن و تنهب و تخرب مدناً أخرى ، وإن كانت هذه الغارات في البداية مقتصرة على الجزء الغربي من البحر المتوسط فإنها في هذه الفترة بدأت تشن على أملاك الإمبراطورية البيزنطية في شمال البلقان والبيلوبونيز وكل الجزر القريبة منها ينظر:

Procopius,Hist.War.,III.V.18-25.

(2) **Loverance,R.,op.cit.,p.16; Oman, C.W.C.,op.cit.,p.63.**

(٣) إبراهيم علي طرخان ، نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب٤٧٦ م، ص٩٢؛

Starr,C.G.,Rom. Emp.,p.176; Jean- Claude Cheynet, Byzance L'empire Romain d'Orient, Editions Armand Colin ,Paris ,2002,p .25.

الاتفاقية، وبالفعل حصل الاتفاق بين الطرفين ، وتلته اتفاقيات أخرى أهم ما فيها أنها اعترفت بسيادة جيزريك الفعلية على شمال إفريقيا ، وعلى كل من صقلية وسردينيا وكورسيكا وكذلك جزر البليار[١].(ينظر الخريطة رقم٣).

كان هذا السلام مع بيزنطة ذروة السياسة الخارجية للوندال إذ عاش جيزريك طويلاً ليشهد السقوط النهائي للإمبراطورية الرومانية في الغرب من جهة، ويفرض إرادته وشروطه على الإمبراطورية البيزنطية الشرقية من جهة ثانية[٢]. حتى وفاته في ١٨ فبراير سنة ٤٧٧م ، بعد فترة حكم دامت لأكثر من ٤٨ سنة[٣].

هكذا استطاع الوندال السيطرة على شمال إفريقيا طيلة هذه الفترة والصمود ضد كل المحاولات التي سعت من خلالها كل من الإمبراطورية البيزنطية والغربية لاسترجاعه[٤]. غير أنه بوفاة جيزريك أخذت هذه السيطرة الوندالية تضعف شيئاً فشيئاً بسبب ضعف الملوك الوندال وتوالي الثورات ضدهم ، الأمر الذي أدى في النهاية إلى ظهور العديد من الأقاليم المستقلة تحت حكم ملوك محليين مع نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الميلاديين[٥].

رابعا: جستنيان ووصوله لحكم الإمبراطورية البيزنطية

أصبحت الإمبراطورية البيزنطية في أواخر القرن الخامس الميلادي وبعد سقوط نظيرتها في الغرب سنة ٤٧٦م الإمبراطورية الوحيدة في أوروبا، ومع أن الجرمان الذين اقتطعوا لأنفسهم ممالك في الغرب في غاليا و أسبانيا وإيطاليا وإفريقيا قد اعترفوا بنوع من التبعية الاسمية للإمبراطورية البيزنطية، لكنها كانت إمبراطورية شرقية شملت شبه

---

(1) **Pavy,A.,op.cit.,p.247; Previté –Orton,C.W.,op.cit.,p.99 .**

(2) **Bel Khodja, K. et Autres.,op.cit.,p.237.**

(3) **Boutbouqalt,T.,op.,cit.,p.69; Courtois, C., op.cit.,p.407.**

(٤) منذ القرن الخامس كانت العديد من الولايات الرومانية تسقط في أيدي الشعوب المتبربرة – حسب النظرة الرومانية – كبريطانيا وأسبانيا وغاليا وإيطاليا وكان شمال إفريقيا من ضمن أهم هذه الولايات أيضاً ينظر :
Kent,J.P.C.and Painter,K.S.,op.cit.,p.12.

(٥) محمد علي دبوز ، مرجع سابق، ص ص ٤٢٥-٤٢٦.

جزيرة البلقان ما عدا الأجزاء الشمالية الغربية وشبه جزيرة الأناضول حتى جبال أرمينيا والشام حتى الفرات كما شملت مصر وبرقة(١).

أما أهم ما ميز الإمبراطورية البيزنطية عن الغرب الأوروبي فهو وجود مدن كبيرة فيها ، وهي مدن كانت أهميتها الاقتصادية والثقافية لا تقل عن أهمية نشاط سكان الريف في الأقاليم ، وكان تأثير هذه المدن على الإمبراطورية ربما أكثر من تأثير الأقاليم الأخرى مجتمعة(٢). ومن هذه المدن ما كان في مصر وسوريا وآسيا الصغرى(٣) وإضافة إلى الموارد الاقتصادية المتوفرة كانت كثرة السكان عاملاً آخر ساعد على بقائها وازدهارها(٤). لكن كل ذلك بطبيعة الحال لم يكن ليجعل الإمبراطورية بمنأى عن الأزمات و المشاكل الداخلية والخارجية .

ففي زمن الإمبراطور أنستاسيوس الأول (Anstasius I 491-518 م) والذي تولى عرش الإمبراطورية ، خلفاً للإمبراطور زينون توالت غارات البلغار والسلاف على منطقة البلقان ، لكنها لم تشكل خطراً جسيماً على الإمبراطورية بسبب اقتصارها على أعمال السلب والنهب في مناطق التخوم ، وأهم ما يمكن ملاحظته في هذه الفترة هو قيام مملكة القوط الشرقيين في إيطاليا تحت حكم ثيودريك (Theodoric) ومملكة الفرنجة في غاليا تحت حكم كلوفس (Clovis)، ولقد سعى كل من ثيودريك وكلوفس إلى الحصول على اعتراف بممتلكاتهم من الإمبراطور أنستاسيوس وهذا ما حدث فعلاً إذ أصبحا نائبين للإمبراطور في ولايتيهما ولو من الناحية الشكلية(٥).

ويبدو على الرغم من انقسام الإمبراطورية الرومانية القديمة إلى شطرين شرقي وغربي ثم سقوط القسم الغربي في أيدي الشعوب الجرمانية أن فكرة الإمبراطورية الرومانية العالمية الواحدة ظلت قائمة إلى حد ما ، يحمل رسالتها أباطرة الشرق تحديداً من حيث أن الإمبراطور لازال يعد زعيماً للعالم الروماني ، ولا زالت كل الولايات

---

(١) عمر كمال توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ،٢٠٠٥م، ص ٧٦.

(٢) وسام عبد العزيز فرج، دراسات في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،١٩٨٥م ، ص ٣.

(3) **Hoyt, R.S.,Europe in the Middle Ages, Second Edition, University of Minnesota, America,1966,p.105.**

(٤) السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ٣٢٣-١٠٨١ م ، دار النهضة العربية، بيروت ، ١٩٨٢م ، ص ٦٤.

(5) **Vasiliev, A.A.,op.cit.,pp.110-111.**

خاضـعة للسـلطة الإمبراطوريـة[١] فكانـت الإمبراطوريـة البيزنطيـة بـذلك دولـة مركزيـة ، وكانت السلطة وأمور الحكم فيها تتركز في شخص الإمبراطور الذي تعد سلطته مطلقة من الناحيـة النظريـة والعمليـة علـى أنهـا (الإمبراطوريـة البيزنطيـة) وإن اعتبـرت كامتداد للإمبراطورية الرومانية لم تكن من الناحية الدستورية إمبراطورية وراثيـة بل انتخابيـة هذا من جهة، ومن جهة ثانيـة فالمجتمع البيزنطـي كـان مجتمعاً مفتوحاً يسمح للفرد الذي يمتلك المواهـب والكفـاءات بالارتقـاء الاجتمـاعي حتـى القمـة مهمـا كـان أهلـه أو بيئتـه الأولى[٢].

عنـدما مـات الإمبراطـور أنستاسـيوس الأول فـي عـام ٥١٨م ، كانـت المنافسـة شديدة حول تولي العرش[٣] إذ نشطت التحركات السياسية في الخفاء من أجل الفوز بـالعرش الإمبراطـوري ، فكبيـر الخصـيان فـي القصـر أمـانتيوس(Amantius) أراد أن ينصـب شخصـاً مـن أنصـاره وهـو تيوكريت فـأعطى مبلغـاً كبيـراً مـن المـال لجسـتينوس (Justinus)– الـذي عـرف فيمـا بعـد بـالإمبراطور جسـتين الاول– قائـد الحـرس الإمبراطـوري ليوزعـه علـى عناصـره بغيـة تأييدهم للمرشـح الإمبراطـوري، لكن جستينوس خدع أمـانتيوس ومرشـحه تيوكريت واستغل هذه الأمـوال لصـالحه ، وهكـذا فـي العاشـر من تموز سنة ٥١٨م انتُخب جستينوس إمبراطوراً من قبل الحرس الإمبراطوري ومجلس الشيوخ وممثلي حزبي الزرق والخضر[٤]. وليؤسس بهذا المنصب بداية أسرة إمبراطوريـة جديدة هي الأسرة الجستنيانية .

هذا ويرجـع أصـل الإمبراطـور جسـتينوس الأول ٥١٨–٥٢٧ م إلـى أسـرة فلاحيـة بسـيطة مـن قريـة فيـدريانا (Vederiana) غربــي البلقـان بـالقرب مـن مدينـة اسـكوب الحالية بإقليم إلليريا[٥]وقد قدم إلى العاصمة القسطنطينية والتحق بالخدمة العسكرية في

---

(1)**Ostrogorsky.G.,op.cit.,p.69.**

(٢) وسام عبد العزيز فرج ، مرجع سابق ، ص ص ٢٣٥–٢٣٦.

(3) **Previté-Orton, C.W.,op.cit.,p.185.**

(٤) نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، ج١ ، منشورات جامعة دمشق ، مطبعة طربين ، دمشق ، ١٩٧٨م ، ص١٠٤ ؛
Oman, C.W.C., op.cit.,p.65; Brehier, L., op.cti.,p.15.

(٥) كان خروج جستينوس واثنين من رفاقه زيمارخوس (Zimarchus) وديتيفيستوس (Dityvistus) في شبابهم من قريتهم إلى القسطنطينية في زمن الإمبراطور ليون الأول وسرعان ما التحق هؤلاء الشباب الثلاثة بالخدمة العسكرية ينظر :
Procopius, The Anecdota or Secret History ,Vol.VI, Translated by H.B.Dewing,(L.C.L), Harvard University Press,London, 1960,VI.1-2.

الجـــيش حيـــث أظهـــر كفاءتـــه كجنـــدي باســـل فـــأُلحق بـــالحرس الإمبراطـــوري وظل يرتقي المناصب العسكرية حتى أصبح قومس[١] (Comes) إحدى فرق الحرس ، وكان لشدة بلائه لفترة طويلة في حروب أيزوريا (Isauria) (قسم من ولاية غلاطية الرومانية بآسيا الصغرى) وحروب الفرس قد مكنه من أن يحظى بعضوية السناتو ، ثم توليه قيادة الحرس الإمبراطوري ، حتى ظهوره في الأزمة الخطيرة بعد وفاة الإمبراطور أنستاسيوس ليفوز في النهاية بمنصب الحلة الإمبراطورية وينال بالإجماع رضا الجنود ورجال الدين والشعب[٢].

ويبـدو واضـحاً أن مـؤهلات وكفـاءات الإمبراطـور جسـتينوس الأول قـد كانـت محصورة في شجاعته وحنكته العسكرية وبما حظي به من تدرج في المجال العسكري ، عدا ذلك فقد كان ينقصه العديد من الصفات لتوليه المنصب الإمبراطوري ، لاسيما في المجال السياسي والدبلوماسي بسبب كونه رجلاً أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، إضافة إلى أنه كـان متقـدماً فـي السـن عنـد توليـه العـرش[٣]. أمـا أهـم المشـاكل الداخليـة التـي كانـت تعصـف بالإمبراطوريـة فـي زمنـه فهـي مشـكلة الخلافـات الدينيـة المذهبيـة حـول طبيعـة المسيح[٤].

لقد عاش جستينوس حتى صار إمبراطوراً دون أن يكون لـه ولد لذا فقد تبنى ابن أخته فلافيوس بتروس ساباتيوس[٥] (Fl.Petrus Sabbatus) الذي أطلق عليه اسمًا رومانيًا هو جستنيانوس (Justinianus) والذي استدعاه إلى القسطنطينية في حداثته ، وعني بتثقيفه وتهذيبه على يد كبار أساتذة العاصمة ، وكانت اللغة الأصلية لجستنيان هـي اللغـة اللاتينيـة ، ولكنـه تكلـم اللغـة اليونانيـة أيضـاً بلهجـة رديئـة وحينمـا تـولى

---

(١) القومس هو الرائد الذي يقود الفرقة العسكرية المكونة من ثلاثمائة أو أربعمائة جندي ينظر: اسمت غنيم ، إمبراطورية جستنيان ، منشورات المجمع العلمي بجدة ،١٩٧٧م ، ص ١٤.

(٢) إدوارد جيبون ، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، ترجمة لويس إسكندر ، ج٢، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ص ٣٩٢.

(٣) إسمت غنيم ، مرجع سابق ، ص ص١٤-١٥ ؛

Oman, C.W.C., op.cit.p.65.

(٤) حول الخلافات المذهبية المسيحية في هذه الفترة وخاصة بعد تنامي المذهب المونوفيزيتي (Monophysite) أصحاب الطبيعة الإلهية الواحدة للمسيح ينظر :

Vasiliev,A.A.,op.cit.,p.131.

(5) **Brehier, L., op. cit., p.15.**

جستينوس العرش كان جستنيان قد أنهى دراسته وأصبح على دراية كبيرة بأصول الحكم والسياسة فشارك خاله جستينوس في إدارة وحكم الإمبراطورية حتى حظي بلقب قيصر (Caesar) في سنة٥٢٥م[١]. كما أضفى عليه مجلس السناتو اللقب الملكي (Nobilissimus) وصادق عليه الإمبراطور جستينوس الذي لم تدم حياته بعد ذلك إلا نحو أربعة أشهر ، ليتولى جستنيان عرش الإمبراطورية البيزنطية عام ٥٢٧م عن عمر ناهز التاسعة والأربعين[٢].

وعن أصل عائلة الإمبراطور جستنيان ومولده فإنه قد كان بالقرب من أطلال سارديكا (مدينة صوفيا الحالية) في عرقٍ وضيع من المتبربرين الذين كانوا يسكنون المنطقة التي أطلق عليها تباعاً اسم داردانيا (Dardania) ثم داكيا فبلغاريا[٣]. وسواء أكانت العائلة الجستنيانية صقلبية أم ألليرية ألبانية من إحدى قرى مقدونيا (بالقرب من مدينة سكوب على الحدود الألبانية) أو حتى رومانية الأصل[٤] فإن شخصية جستنيان وكفاءته كانت الدافع الأساسي في مشاركة الإمبراطور جستينوس في بداية الأمر ومن ثم تسلمه مقاليد الحكم في الإمبراطورية وتولي عرشها .

كان نجاح جستنيان يرجع في الواقع إلى شخصيته التي امتازت بأنها شخصية عمليه من خلال ما اكتسبته من علوم ومعارف ذلك العصر، وبفعل المشاركة الحقيقية في صنع قرارات الإمبراطورية قبل توليه العرش ، كما كان لجلده في العمل وعزيمته على مباشرة مهام الحكم وشغفه بالإطلاع ومعرفته كل دقائق الأمور في حكومته والبث في أمورها بنفسه ما قد جعل منه أعظم الأباطرة البيزنطيين[٥] حتى لقب بـ(الإمبراطور الساهر)[٦].

---

(١) نعيم فرج ، تاريخ بيزنطة ، ص ١٠٤ ؛ أسد رستم ، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلتهم بالعرب، ج١، ط١ ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٥م ، ص ١٦٧؛ إسمت غنيم ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

(٢) إدوارد جيبون ، مرجع سابق ، ص ص ٣٩٦-٣٩٧.

(٣) المرجع نفسه ، ص ٣٩١ .

(٤) أسد رستم ، مرجع سابق ، ص ص ١٦٥-١٦٦.

(٥) جوزيف نسيم يوسف ، مرجع سابق ، ص ٧٠.

(6) **Hollister**, **C.W., op.cit.,p.36;**

عمر كمال توفيق ، مرجع سابق ، ص ٨٠؛ محمود سعيد عمران ، مرجع سابق ، ص ١١١.

ولكن مع تلك الصفات التي كان يتحلى بها جستنيان فإن جانبًا من الضعف قد اعتراه في شخصيته وسياسته ، ومن المرجح أن تقييمات جستنيان المتباينة عند المؤرخين القدامى والحديثين كانت وليدة التناقض في شخصيته من جهة ، ووليدة الظروف السياسية المعقدة التي عاشها ولعب دوراً فاعلاً في تسيير أحداثها من جهة أخرى[١].

وحقيقة القول أن شخصية الإمبراطور جستنيان قد تجلت بوضوح في مدى قدرته على انتخاب وانتقاء مستشاريه ومعاونيه إذ اقترنت فترة حكمه بعدد من هؤلاء، كان على رأسهم القائدان نارسيس (Narses) وبليزاريوس (Belisarius) في فن الحرب وقيادة الجيوش[٢] وأنتيموس (Anthemius)[٣] في فن البناء والعمارة، والمشرع والقانوني تريبونيان (Tribonian)[٤] في حين كان كبير مستشاريه يوحنا الكبادوكي (John The Cappadocion) وزيراً للمالية[٥]. إلى جانب هذه المجموعة البارزة من الشخصيات كانت هناك زوجته الإمبراطورة ثيودورا(Theodora) والتي ذاعت شهرتها، وكان لها تأثير كبير على جستنيان، ومن الأهمية بمكان الحديث أيضاً عن أصل ثيودورا قبل زواجها من الإمبراطور جستنيان .

كانت ثيودورا ابنة مروض الدببة في ملعب القسطنطينية المدعو أكاكيوس (Acacius) من مواطني جزيرة قبرص واشتق لقبه من مهنته (سيد الدببة) وبعد موته كان قد خلف وراءه ثلاث بنات هن : كوميتو، ثيودورا، وأنسطاسيا، ولم تتجاوز أكبرهن السابعة من عمرها ومع مرور الوقت انخرطن في الأعمال المسرحية، أما ثيودورا فقد برعت في فن التمثيل الهزلي لاسيما في انتحال شخصية البهلوان[٦]. ويبدو

---

(١) يرجع هذا التناقض في وصف شخصية جستنيان إلى ما نقله المؤرخ بروكوبيوس في كتابه التاريخ السري من إظهار عيوبه ونقائصه من ناحية وإظهار محاسنه وفضائله في مؤلفاته الأخرى من ناحية أخرى ينظر :

Procopius,Anecdota., XI. 2-7,XII.13-23.

(2) **Caldwell, W.E., op. cit., p. 584; Painter, S., op.cit., p.33.**

(٣) حول هذه الشخصية ودورها في المشاريع المعمارية للإمبراطورية ينظر :

Runciman,S.,Byzantine Style and Civilization,First Published Great Britain ,1975,pp.50-53.

(٤) جوزيف نسيم يوسف ، مرجع سابق ، ص ٧١.

(٥) وهو كذلك رئيس الوزراء للإمبراطورية البيزنطية، ينظر :

Diehl,C.,Justinien et la Civilisation Byzantine au VIe siẻcle,Vol.I-II, Paris,1901,pp.55-56.

(٦) إدوارد جيبون ، مرجع سابق ، ص ص ٤٠٠-٤٠١.

أنها في هذه الفترة انحرفت كما ينحرف من يعملن في هذه المهنة بل اكتسبت شهرة خاصة في هذا الصدد[١]. حتى وصفت بأنها مصدر التسلية في القسطنطينية ومصدر العار لها أيضاً[٢].

لكن ثيودورا لم تلبث أن هجرت المسرح بعدما أصبحت محظية هيكيبوليوس (Hecobolius) الذي عين حاكماً على برقة في ليبيا حيث رافقته إلى هناك ولم تدم عشرتها معه طويلاً فاضطرت إلى التوجه إلى الإسكندرية و منها عادت إلى القسطنطينية ، وعند رجوعها إلى العاصمة تعرف عليها جستنيان واتخذها خليلةً له قبل أن يصبح إمبراطوراً[٣].

لما كانت القوانين الرومانية تحرم صراحةً زواج عضو السناتو من أية امرأة حط من قدرها أو أصلها أو عملها (كالممثلات)[٤] ، فقد عارضت أيوفيميا (Euphemia) زوجة الإمبراطور جستينوس زواج جستنيان من ثيودورا كما رفضت فيجيلانتيا (Vigilantia) والدة جستنيان هذا الزواج أيضاً وأمام إصرار جستنيان وموت أيوفيميا من جهة وضعف حالة جستينوس في نهاية حياته من جهة ثانية تمكن جستنيان من إجبار الإمبراطور على إصدار قرار جاء في مرسومه بالنص: « فتح باب التوبة النصوح أمام النسوة التعيسات اللاتي دنسن أنفسهن على المسرح وأجيز لهن عقد القران المشروع على أبرز الشخصيات الرومانية »[٥].

بذلك أصبحت ثيودورا زوجة جستنيان شرعاً وقانوناً على أن المؤرخ بروكوبيوس[٦] لا يجد غضاضةً في إظهار تعجبه من هذا الزواج بقوله: « الغريب حقاً إنه لم يرتفع صوت معارض لهذا الزواج ، لا من رجال الدين ولا من القادة العسكريين ولا من السياسيين عندما تقدموا لتأدية يمين الإخلاص والولاء لثيودورا

---

(١) عمر كمال توفيق ، مرجع سابق ، ص ٨١؛

Hoyt, R.S., op.cti., p. 106.

(2) **Vasiliev,A.A.,op.cit.,p.132.**

(٣) عبد القادر أحمد اليوسف ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٦٨.

(4) **Oman, C.W.C., op.cit.,p.67.**

(٥) جوزيف نسيم يوسف ، مرجع سابق ، ص ٧٣؛ إدوارد جيبون ، مرجع سابق ، ص ٤٠٤.

(٦) عبد القادر أحمد اليوسف ، الإمبراطورية البيزنطية ،ص ٦٩.

وأغرب من هذا كله أن هتافات الجماهير كانت تتعالى لها معتبرين أنفسهم عبيداً لها »
.

وأياً كانت الأقوال التي أثيرت حول أخلاقها وحياتها ما قبل زواجها فإنها ما إن تزوجت جستنيان وأصبحت إمبراطورة بعد تولي زوجها عرش الإمبراطورية حتى انسجمت مع منصبها الجديد عن طريق استعمالها الذكي للسلطة ، فبدت شخصيتها في الإنفراد والقوة والترفع والذكاء ، وحظيت بكل التشريفات والسلطات الكبرى حيث كان اسمها مقروناً باسم جستنيان في الكتابات والتي حفرت على الكنائس وفوق أبواب بعض الحصون والقلاع ، كما أظهرت الأعمال الفنية الفسيفسائية اقتران صورتها بصورة جستنيان ، إضافة إلى أن صورها نقشت على الأختام الإمبراطورية[١] ويؤكد هذا الارتباط الوثيق بين جستنيان وزوجته ثيودورا على المكانة التي تتمتع بها والتي تعادل فيها مكانة الإمبراطور نفسه حتى أصبحت السيدة الأولى في الإمبراطورية[٢] وتشارك جستنيان في كل شيء لاسيما الحياة السياسية وفي فترة المحن والأزمات التي كانت تمر بها الإمبراطورية آنذاك .

---

(١) ليس أدل على مكانة الإمبراطورة ثيودورا ونفوذها في الإمبراطورية البيزنطية من ولاء القضاة و القساوسة وقواد الحرب وحكام الولايات الذين يدلون باليمين أمامها و باسمها كما يفعلون باسم الإمبراطور وكان القسم على النحو التالي "اقسم باسم الله العزيز وباسم ابنه الأوحد عيسى المسيح ربنا (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً) وباسم الروح القدس وباسم ثيودورا الممجدة وباسم العذراء البتول وباسم الأناجيل الأربعة وبالملكين جبريل وميكائيل أن أخدم بكل إخلاص وتفاني التقيين القديسين العاهلين جستنيان وثيودورا زوج فخامة الإمبراطور وأن أؤدي كل الواجبات التي يطلبان مني القيام بها بكل إخلاص" ينظر :

Diehl,C., Just .Civi.Byz.,pp.52-53.

(٢) خليفة أبو بكر بن ناصر، صلاح هادي الحيدري، مرجع سابق ، ص ٤٤؛

Oman, C.W.C., op.cit.,p.67.

خامساً : المشاكل الخارجية والداخلية التي واجهها جستنيان في بداية حكمه

كانت أكثر الأخطار الخارجية التي تحيط بالإمبراطورية هي الحروب الفارسية والتي تعد في الواقع امتداداً للصراع التقليدي القديم بين الفرس والإغريق ثم مع الرومان فالبيزنطيين ، لكن السبب المباشر في هذه المرحلة يرجع إلى أن الملك الفارسي قباذ الأول (Khobad.I) كان قد بلغ الثمانين من عمره وأراد أن يضمن العرش لابنه الأصغر كسرى أنو شيروان فلجأ قباذ إلى الإمبراطور جستنيان لكي يتبنى ابنه ويحمي عرشه، في الوقت ذاته كان الأمر يتطلب تسوية مشكلة الحدود عند مدينة لازيكا (Lazica) الواقعة على شرق البحر الأسود ، والواضح أن الشروط التي وضعها جستنيان لم ترض قباذ فتوترت العلاقة بينهما[١].لاسيما بعد ما زاد البيزنطيون من تقوية حصون و قلاع مدينة دارا(Dara) المجاورة لمدينة نصيبين (Nisibis) الفارسية لتنشب الحرب بين الطرفين في سنة ٥٢٨م[٢].

وعلى الرغم من تعدد أسباب الصراع البيزنطي الفارسي وتنوعه فإن الأسباب الاقتصادية لعبت دوراً مهماً في هذا الصراع خاصة وأن الفرس سعوا إلى احتكار تجارة الشرق القادمة من الهند والصين و حاولوا إيجاد منفذ تجاري لهم على البحر المتوسط[٣]. إضافة إلى الأسباب السياسية كون بيزنطة وفارس شكلتا أقوى إمبراطورتين في القرن السادس الميلادي ولم يكن التصادم الحربي بينهما بسبب النزاع على الحدود فحسب وإنما من أجل فرض كل من الطرفين سلطة على الدويلات والشعوب والقبائل المجاورة كدولة أرمينيا ودولة كروزيا في القوقاز والقبائل العربية الغساسنة والمناذرة في سوريا والعراق[٤].

---

(١) محمود سعيد عمران ، مرجع سابق ، ص ١١٨.

(٢) تعد الحروب الذي خاضتها بيزنطة ضد الفرس والقلاع والحصون التي بناها البيزنطيون على الحدود قد ظهرت بشكل واضح منذ بداية القرن السادس الميلادي في زمن الإمبراطور أنستاسيوس للمزيد ينظر :

Stark,F.,Rome on the Euphrates the story of a Frontier,Edited by John Murray ,London,pp.363-365.

(٣) نعيم فرح، "الصراع العربي البيزنطي للسيطرة على البحر المتوسط في القرن الثامن الميلادي"، مجلة دراسات تاريخية، العدد الثاني عشر ، منشورات جامعة دمشق ،١٩٨٣م ، ص٢٩.

(٤) نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة، ص ص ١٢٧-١٢٨.

بعدما بدأت الحرب بين البيزنطيين والفرس وضع جستنيان قواته تحت قيادة بليزاريوس الذي توجه إلى مدينة دارا في عام ٥٣٠م ونجح في صد القوات الفارسية، على أن المنذر اللخمي ملك الحيرة (في العراق) وحليف الفرس قام في سنة ٥٣١م بمهاجمة ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية في قنسرين ثم أنطاكيا وتوجه بليزاريوس مرة أخرى لصد هذه الغارات وبالفعل انتصر على قوات المناذرة في معركة كاللينيكوم (Callinicum) عند الفرات وردهم عن غزو شمال سوريا[١].

وعندما توفى قباذ في عام ٥٣٢م تولى بعده ابنه كسرى انوشروان العرش الفارسي لكن الصعوبات الداخلية الكثيرة كالصراع على العرش من قبل أخوة كسرى أنوشروان اضطرته إلى قبول الصلح مع الإمبراطور جستنيان وتوقيع سلام دائم في عام ٥٣٢م ، وإن لم تمثل هذه الاتفاقية أهمية كبيرة للبيزنطيين لكنها قد أمنت الحدود ولعدة سنوات[٢] وقد سعى جستنيان من ورائها للتفرغ لمشاريعه في الغرب وليحقق وحدة الإمبراطورية القديمة[٣].

وكان واضحاً أن حروب جستنيان انقسمت إلي قسمين رئيسيين : يصح أن يعد جانب منها حروباً دفاعية والجانب الآخر حروباً هجومية ، فالحروب الدفاعية التي قصد منها الدفاع عن أطراف الإمبراطورية فهي التي تم توجيهها ضد الفرس في الشرق والصقالبة أو السلاف في الشمال، أما الحروب الهجومية فهي التي بدأ جستنيان يعد لها ضد الممالك الجرمانية في غرب أوروبا[٤] وشمال أفريقيا على أن المشاكل الداخلية التي تعرضت لها الإمبراطورية كادت أن تعيق مشاريع جستنيان وحروبه الهجومية في الغرب .

تزامنت الأخطار الخارجية بما تعرضت له الإمبراطورية البيزنطية من اضطرابات داخلية عنيفة كاختلال الأمن وانتشار الفقر وزيادة وطأة الضرائب، إضافة

---

(١) أسد رستم ، مرجع سابق ، ص ١٨٦؛ اسمت غنيم ، مرجع سابق ، ص ٤١.

(2) Lot,F.,la fin du Monde Antique et le début de Moyen ậge, Editions.Albin Michel ,Paris ,1968,p.٢81.

(٣) خليفة أبوبكر بن ناصر، صلاح هادي الحيدري ، مرجع سابق ، ص ٥٣.

(4) **Vasiliev, A.A.,op.cit.,p.133.**

إلى تعقد الموقف بتنازع الأحزاب الدينية فيما بينها[١].أما أكبر الأخطار التي هددت حياة الإمبراطور جستنيان ونفوذه عقب الانتهاء من الحرب الفارسية وكانت قمة تلك الأوضاع السيئة هو خطر ثورة نيقيا (Nika) في عام ٥٣٢م[٢].

من الملاحظ أنه منذ بداية زمن الإمبراطور جستنيان تفاقم الصراع الطبقي والذي ظهر بأشكال مختلفة كالصراع الديني بين المذاهب المسيحية والصراع الحزبي الذي بلغ أشده بين حزب الزرق وحزب الخضر[٣]. وكانت القواعد الشعبية لكلا الحزبين متشكلة من الطبقات الكادحة التي انحازت إلى هذا الحزب أو ذاك بدافع يتلائم مع مصلحتها الاقتصادية ويتوافق مع توجهها المذهبي إذ كان أتباع حزب الزرق أرثذوكسيين، بينما أتباع حزب الخضر مونوفيزيتيين (Monophysitism) أي أصحاب الطبيعة الإلهية الواحدة للمسيح[٤].

باعتلاء جستنيوس ومن بعده جستنيان العرش حظي حزب الزرق بمكانة عالية في الإمبراطورية في حين أيدت ثيودورا حزب الخضر الذي كان قد حظي بتأييد الإمبراطور انستاسيوس ثم بتأييد أبناء أخيه الذين اعتبروا جستينوس وجستنيان مغتصبين لحقهم في الحكم[٥].

ومن المرجح أن العامل المباشر الذي أشعل ثورة نيقيا ٥٣٢م كان لاعتماد الإمبراطور جستنيان على شخصيات اتسمت بالفساد والرشوة ومن هؤلاء تريبونيان في القضاء ويوحنا الكبادوكي في الإدارة واللذان تجاوزا الحدود في ابتزاز الأموال وفي فرض الضرائب على الشعب[٦]. على أن هذا الأمر كان يتوافق مع تطلعات

---

(1) **Ostrogorsky,G.,op.cit.,p.72.**

(٢) محمود محمد السيد ، مرجع سابق ، ص ٤٨ .

(٣) كانت الفرق الرياضية الأربعة التي عرفتها القسطنطينية تمثل عناصر الحياة الأربعة : الماء والهواء والنار والتراب (الأزرق ، الأبيض، الأحمر ، الأخضر) وقد اندمجت في فريقين فقط هما الأزرق والأخضر ، وتعدى نشاطهم الرياضي ليشمل نواحي أخرى، فعهد إليهما بالحفاظ على الأمن في العاصمة ليلاً ثم مهمة الدفاع عنها ثم أصبحوا يمثلون الطبقات الاجتماعية، فالزرق يضم أهل المدن والتجار والنبلاء، والخضر أهل الريف، وراحوا يعبرون تبعاً لذلك عن التيارات العقائدية المتصارعة للمزيد ينظر : ج . م. هسي، مرجع سابق، ص ص ١١٥ -١١٦.

(٤) نعيم فرح، تاريخ بيزنطة، ص ١٤٦.

(٥) اسمت غنيم ، مرجع سابق ص ٢١ ؛

Lancaster, O., op. cit., p.12.

(٦) خليفة أبوبكر بن ناصر ، صلاح هادي الحيدري ، مرجع سابق، ص ٥٨.

وطموحات الإمبراطور جستنيان الذي نظر إلى هذه الأعمال بشكل مختلف تماماً من حيث أنها توفر الأموال التي يتطلبها سير الحكم في أي وقت احتاجت فيه الدولة، ومهما كان الاضطهاد والمصاعب التي يتعرض لها الرعايا من شعبه فهو كان يخرج دائماً بنتائج مذهلة[١].

ومن الواضح أن الجهود الكبيرة التي بذلها الإمبراطور جستنيان والأموال الباهظة التي صرفها على تحصين نحو ١٥٠ مدينة قد أثارت استياء واضحاً في أوساط الشعب الذي وقع على كاهله تكاليف تلك التحصينات[٢]. كما تجدر الإشارة في هذا الصدد أن جستنيان قد بدأ يحاول التخلص نهائياً من تأييده لكلا الحزبين وأخذ في إجراءات صارمة ضد الفئات الشعبية المؤيدة لهذا الحزب أو ذاك بما يتماشى مع مصالحه السياسية والاقتصادية، فأدى ذلك إلى اتحاد حزب الزرق والخضر ضد الإمبراطور جستنيان وحكومته[٣].

وسرعان ما تطور الوضع إثر إعدام خمسة أشخاص لإدانتهم بارتكاب بعض الجرائم وتمكن اثنان من الفرار كان أحدهما من حزب الزرق والآخر من حزب الخضر فزاد هذا الأمر من وحدتهم وتآزرهم[٤] فتوجهوا إلى حلبة سباق العربات الهيبودروم (Hippodrome) واندفعوا منه يدمرون ويخربون وهم يصيحون نيقيا(Nika) أي النصر فسميت هذه الثورة بهذا الاسم وأصبحت شعاراً لهم فاتسعت حتى شملت سكان الريف الذين أرهقتهم الضرائب الفادحة[٥].

كان يوم ١٤ يناير عام ٥٣٢م هو اليوم الذي انطلقت فيه هذه الثورة التي أحرقت ودمرت العديد من المباني الحكومية والمرافق العامة والمنشآت[٦].وكان من

---

(1) **Diehl, C., Just,Civi. Byz.,p.56.**

(2) **Lançon,B.,Le Monde Romain Tardif IIIe-VIIe Siècle ap.j-c. Editions Armand Colin, Paris, 1992,p.49.**

(3) **Ostrogorsky,G.,op.cit.,p.72.**

(٤) عبد القادر أحمد اليوسف ، الإمبراطورية البيزنطية، ص ٧٠.

(٥) محمود سعيد عمران ، مرجع سابق ، ص ١١٢؛ أسد رستم ، مرجع سابق ، ص ص ١٧٠-١٧١.

(6) **Lancaster,O.,op.cit.,p.12;**

ج .م. هسي ، مرجع سابق، ص ص ١١٦-١١٧.

ضمن ما أحرق كنيسة أيا صوفيا في القسطنطينية[١].ولقد زادت مطالب الثوار بعزل الوزيرين تريبونيان ويوحنا الكبادوكي اللذين اعتبرا رأس الاستبداد والفساد في الحكومة،ومع محاولة الإمبراطور جستنيان التخفيف من حدة هذه الثورة بعزل الوزيرين ووالي المدينة يودايموس(Eudamoius)والاعتراف بما ارتكبه من أخطاء في حق الثوار،لكن الأمور اتخذت اتجاها آخر عند إعلان انتخاب هيباتيوس ابن أخي أنستاسيوس إمبراطوراً جديداً بدلا من جستنيان في اليوم السادس لاندلاع الثورة[٢].

أمام هذا الوضع الحرج وبعدما تم مهاجمة القصر الإمبراطوري جمع الإمبراطور جستنيان مستشاريه ووزراءه واستشارهم في الإجراءات الواجب اتخاذها، إذ لم يبق من قواته سوى ثلاثة آلاف جندي تقريباً ، وربما وصل إلى قناعة مفادها أن ترك العرش أهون عليه من فقدان حياته ، وكان يشاطره في هذا الرأي بعض من مستشاريه وضباطه الذين سارعوا لشحن السفن للفرار مباشرةً عن طريق البحر. لكن ثيودورا التي حضرت هذه النقاشات لم تجار جستنيان في اتخاذ قرار الفرار ، وأشارت إليه بأنه بإمكانه أن يحمل في سفنه ما يشاء ويهرب هو ومن معه، أما بالنسبة لها فإنها باقية ، مرددة الحكمة القديمة التي تقول « ما أجمل الأرجوان عندما يتحول إلى كفن » [٣] وإن كان يبدو في موقف ثيودورا شيء من المبالغة فإنه يتضح ميولها لمواجهة الأزمة باستعمال أقسى أساليب القمع ضد الثائرين[٤].

ومهما كان الأمر فإن الإمبراطور جستنيان سرعان ما اتخذ قراره بالقضاء على هذه الثورة وأمر قواته بإخمادها بقوة السلاح ، فقام القائد نارسيس بالتفاوض مع حزب الزرق وشق بذلك وحدة الثوار، في حين باغت بليزاريوس مع بعض قواته ميدان السباق

---

(1) **Runciman,S.,op.cit.,p.53.**

(٢) إدوارد جيبون، مرجع سابق، ص ص ٤١٧-٤١٨ ؛ ج. م هسي، مرجع سابق، ص ١١٦؛ **Vasiliev, A.A.,op.,cit.,p.157.**

(3) **Diehl,C.,Just.Civi.Byz.,pp.51-52.**

(٤) يشكك بعض المؤرخين في جرأة الإمبراطورة ثيودورا وقدرتها على اتخاذ مثل هذا الموقف الحساس في الوقت الذي تخلى فيه الرجال عن واجباتهم ينظر:

Willis, F.R.,Western Civilization A brief Introduction, University of California ,Davis Macmillan Pubishing company ,New York,1987, p.134; Lançon,B.,op.cit.,p.49.

الهيبودروم وقضى على الساخطين في مذبحة كبيرة ذهب ضحيتها ما يقدر بنحو الثلاثين ألف مواطن كما أعدم أقارب الإمبراطور أنستاسيوس(١).

بذلك تمكن الإمبراطور جستنيان من القضاء نهائياً على هذه الثورة ووطد دعائم حكمه رغم التأثير الكبير لفداحة الخسائر المادية والبشرية، وسعياً منه لصرف أنظار الشعب البيزنطي عن المشاكل الداخلية سارع إلى تنفيذ مشاريعه العسكرية نحو الغرب ، خاصة بعد تأمين جهة الشرق باتفاقية السلام الطويلة مع الفرس ، ولتكون أول هذه المشاريع محاولة احتلال شمال أفريقيا عام ٥٣٣م .

---

(1) **Ostrogorsky, G.,op.cit.,p.73; Willis, R.F.,op.cit.,p.134 ;**

إدوارد جيبون، مرجع سابق، ص ص٤١٩-٤٢٠ .

الفصل الثاني :

السيطرة ا لبيزنطية على شمال أفريقيا وأهم نتائجها

أولاً: أسباب ودوافع الاحتلال البيزنطي

١. الأسباب والدوافع السياسية

٢. الدوافع الدينية

٣. الدوافع الاقتصادية والاجتماعية

ثانياً: الاستعدادات السياسية والعسكرية للبيزنطيين

ثالثاً: تحرك القوات البيزنطية نحو الشمال الأفريقي

رابعاً: الحرب بين البيزنطيين والوندال

١. معركة ديكيموم (Decimum)

٢. احتلال قرطاجة وتجدد الصراع البيزنطي الوندالي

٣. نهاية المملكة الوندالية في شمال أفريقيا

خامساً: علاقة البيزنطيين بالسكان المحليين

١. استكمال الاحتلال البيزنطي ومحدوديته

٢. بداية الصدام مع السكان المحليين

٣. سياسة سولومون في عقد السلام والتوسع

سادساً: ثورة القبائل المحلية الكبرى

1. **بداية الثورة وأسبابها**
2. **موقف الإمبراطورية من ثورة القبائل المحلية**
3. **دور القائد جون تروجليتا في القضاء على الثورة**
4. **حرب تروجليتا ضد كاركاسان وإنتالاس**

من الأهمية بمكان معرفة أولاً ماهية الاحتلال البيزنطي لشمال أفريقيا عام ٥٣٣ م من خلال طرح هذا السؤال : **هل الاحتلال البيزنطي للمنطقة احتلال جديد أم أنه إعادة سيطرة سابقة ؟.**

إن مفهوم إعادة بناء الإمبراطورية الرومانية بعد سقوطها قد يكون أمراً مبالغاً فيه إذ كان يشكل مهمة صعبة جداً في الجمع بين تناقض الأهداف وتباين الوسائل[١] ، ومع ذلك يبدو أن بعض المؤرخين كانوا متأثرين في الغالب فيما يخص هذا الموضوع بالدعاية التي قام بها الإمبراطور جستنيان منذ بداية غزوه للغرب بوصفه (إعادة احتلال) محاولاً إرجاع الأمور إلى وضعها السابق[٢].

إذ كان يريد من وراء ذلك التأكيد على أهمية مزدوجة باعتباره وريثاً للأباطرة الرومان من جهة ، وحاكماً مسيحياً من جهة ثانية ، وإن هذه الأهمية قد خولته استعادة أملاك الدولة من المتبربرين وتخليص السكان الوطنيين من ظلم الجرمان الأريوسيين[٣].

إن احتلال شمال أفريقيا لم يكن بالشأن العظيم ، فلم يحرك هذا الاحتلال إلا مصالح وطموحات هامشية ، فالوندال والرومان كانوا على تماس شبه يومي في السابق ، وكانت علاقتهم تتسم دائماً بعنف تعقبه تهدئة، وكذلك العكس ، في حين لم ينتبهوا إلا وقد ظهرت بالقرب منهم مجموعات قبلية تسعى هي الأخرى إلى بسط نفوذها على المنطقة[٤].

إذاً ما المراد هنا بـ (إعادة الاحتلال) ، وفي أي سياق تاريخي يمكن إدراج هذه العملية ؟

---

(1) **Diehl, C., Byzantium : Greatness and Decline, Translated by Naomi Walford, Rutgers University Press, 1957,p.179.**

(2) **Moderan ,Y., "La Decouverte des Maures : Reflexions Sur La " Reconquete " Byzantine de L`Afrique en 553" ,C.T, Tomes XXXXIII ,No 155 -156 ,le-2e Trimestres 1991,Tunis, p. 211 .**

(٣) السيد الباز العريني ، مرجع سابق ، ص ٦٨؛

Hoyt, R.S., op. cit.,p.106.

(4) **Saumagne,C., Reco. Byz . Afr., p.283 .**

من المرجح أن هناك جزءًا من أفريقيا الصغرى(Afrique Mineure) والتي تحتل مساحة شاسعة ، هذا الجزء لم يفكر أي من الأباطرة الرومان في الاستيلاء عليه ، وهو الذي أُجبر الإمبراطور دقلديانوس على مغادرته قبل قرنين ، والمقصود به المغرب حالياً والجزء الأكبر من جنوب قسنطينة ومدينة الجزائر ، وعليه فإن إعادة الاحتلال لم يكن يتعلق إلا بأراضي تونس الحالية والجزء الشرقي من قسنطينة [١] .

إضافة إلى ذلك فإن الإمبراطورية البيزنطية لم تمارس أية سيطرة فعلية على شمال أفريقيا منذ الانفصال عام ٣٩٥ م ، فسمحت لنفسها في هذا الوقت بأن تحاول بعيداً عن قواعدها بهذا الجهد الكبير الذي لا يخدم إلا هدف إعادة عجلة التاريخ ، وقبل كل شيء فإن الإمبراطور جستنيان لم يكن في الحقيقة سوى إمبراطوراً شرقياً ، وكان الرجال الذين أرسلهم لاحتلال قرطاجة كلهم من شرق البحر المتوسط أو المناطق المجاورة ، وعلى ذلك فلم تكن لديهم أي خبرة حول واقع شمال أفريقيا ، لذلك فإن احتلال عام ٥٣٣ م ، يمكن أن ينظر إليه على أنه بمثابة اتصال بين حضارتين ، مما لا يعني أنه تلاق جديد بين الرومان وأفريقيا ، بل هو اكتشاف حقيقي لأفريقيا الرومانية من قبل الشرقيين [٢].

ورغم تسمية الإغريق البيزنطيين أنفسهم بالرومان وإيمان أباطرتهم بوحدة الإمبراطورية الرومانية؛ إلا أنهم كانوا أشبه بالغرباء في المناطق المروَّمنة ، كما كان الوندال من قبلهم[٣]. لذلك كله فمن المرجح أن الحقبة الوندالية التي

(١) من الواضح أن السيطرة البيزنطية على المنطقة زمن الإمبراطور جستنيان كانت تضم تريبوليتانيا ، وبيزاكيوم والبروقنصلية ونوميديا ، وموريتانيا الستيفية وباستثناء بعض الأماكن الساحلية التي أهمها قلعة سبتة كان غرب ولاية أفريقيا كله خارج سيطرة جستنيان ، وكانت قيصارية وتنجيتانيا دائماً مستقلتين عن الإمبراطورية ولم ترتبطا بها إلا عبر روابط واهية ، يُنظر :

Diehl, C., Just .Civi .Byz., p.179; Saumagne, C., Reco. Byz . Afr., p.282.

(2) **Moderan ,Y.,op .cit ., p. 211; Saumagne, C., Reco. Byz. Afr., p.283 .**

(٣) جون رايت ، تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور ، ترجمة عبد الحفيظ الميار ، أحمد اليازوري ، منشورات دار الفرجاني ، طرابلس ، ص ٧٠ ؛

امتـدت لأكثـر مـن قـرن ومحدوديـة السـيطرة البيزنطيـة ، وبُعـد مركـز الدولـة فـي القسـطنطينية إضـافة إلـى الاخـتلاف الثقـافي ، والـديني ، والعرقـي بـين البيـزنطيين والرومـان ولـو بشـكل نسـبي يعطـي هـذا الاحـتلال صـفة كونـه احـتلالاً جديـداً وليس إعادة احتلال .

أولا: أسباب ودوافع الاحتلال البيزنطي

كانـت الظـروف فـي شـمال أفريقيـا تبشـر الإمبراطوريـة البيزنطيـة بنجـاح كبيـر إذا مـا قامـت بإرسـال حملـة تعمـل علـى افتكـاك الـبلاد مـن الونـداليين شـريطة أن يـتم إعـدادها علـى نحـو جيـد وتـدار بشـكل سـري . لكـن مـا الأسـباب والـدوافع الحقيقيـة التـي شـجعت الإمبراطـور جسـتنيان لخـوض تجربـة احـتلالٍ جديـد لشـمال أفريقيا ؟

١.الأسباب و الدوافع السياسية

كانـت أهـم الأهـداف السياسـية ترتكـز عنـد جسـتنيان علـى فكـرة إعـادة وحـدة الإمبراطوريـة الرومانيـة بقسـميها الشـرقي والغربـي تحـت سـلطته ولتحقيـق هـذه الأهداف بدأ مشروعه باحتلال مملكة الوندال قبل غيرها (١).

إن الأوضـاع الداخليـة فـي شـمال أفريقيـا كانـت مضـطربة فقـد واجـه الونـداليون خطـرًا مزدوجًـا يتمثـل فـي الممالـك المحليـة الكبـرى ، وظهـور القبائـل الرحل التي تستعمل الجمال في الجنوب (٢).

تراجعـت حـدود المملكـة الونداليـة تحـت ضـغط غـزوات هـذه القبائـل لاسـيما أثنـاء حكـم هيلـدريك (Hilderic ٥٢٣ – ٥٣٠ م)، هـذا التراجـع قـد شـمل كـل القطـاع الممتـد علـى الجنـوب الغربـي مـن المملكـة الونداليـة حيـث تكونـت ممالـك محليـة ووضـعت نهايـة السـيطرة الونداليـة علـى المنطقـة، وبالتـالي فـإن مسـاحتها قـد تقلصـت بشـكل كبيـر بحيـث لـم تعـد تتجـاوز الجـزء الشـمالي أو الجـزء السـاحلي (لقرطاجـة ومـا حولهـا)، فـي حـين أن بـاقي أجزائهـا قـد أصـبحت فـي يـد السـكان

Diehl, C., Byz. Gre. Dec., p. 176.

(١) نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، ص ١١٣ .

(2) **Kaddache,M., L`ALgérie dans L`antiquité, Madrid ,1972 ,p.207 .**

المحليين [١].

علاوة على ذلك فإن أخطر المشاكل التي واجهها الوندال هو الانقسام الذي حدث في داخل الأسرة الوندالية المالكة، بتولى جليمر [٢] (Gelimer) عرش المملكة بعد تحالفه مع أبرز الزعماء الونداليين وإقناعهم بانتزاع هذا العرش من هيلدريك[٣].

وكان اعتلاء جليمر العرش الوندالي في يوم ١٩ مايو ٥٣٠ م. [٤]ولكن لماذا انتزع جليمر العرش من هيلدريك ؟ وكيف استطاع ذلك ؟

يسوق بروكوبيوس[٥] الأسباب التي تمكن جليمر من خلالها إقناع العديد من الونداليين بتأييده في اعتلاء العرش وهي على النحو التالي :

«...لكونه ملكًا (أي هيلدريك) غير مولع بالحرب، ولأنه هُزم على يد المغاربة ولتضليله الونداليين بوضع السلطة في يد الإمبراطور جستنيان ، وخوفاً من عدم وصول حكم المملكة إليه ، ولأنه كان من الفرع الآخر من الأسرة أصر جليمر افتراءً على أن هذا هو المعنى من سفارة هيلدريك إلى بيزنطة وأنه كان يريد أن يتخلى لجستنيان عن إمبراطورية الونداليين ، اقتنع الونداليون بذلك وقاموا بتنفيذ الخطة ، وهكذا استولى جليمر على أعلى سلطة وسجن هيلدريك ...» .

يبدو واضحاً أن هذه الأسباب قد خولت جليمر لتولى عرش المملكة الوندالية على أن هذا الوضع قد أثار حفيظة الإمبراطور جستنيان نظراً لعلاقة الصداقة الوطيدة التي تربط جستنيان بهيلدريك ، وكان هذا الأخير قد رافق أمه الأميرة يودكسيا إلى القسطنطينية ، حيث أقام في البلاط البيزنطي زهاء الأربعين عامًا

---

(1) **Selmane ,K.,op.cit .,p.4 .**

(٢) ينحدر جليمر من أسرة جيزريك فهو ابن قيلاريس ابن جنزون ابن جيزريك وهو يأتي في المرتبة الثانية بعد هيلدريك لتولي العرش الوندالي ينظر :

Procopius , Hist . War.,III .IX. 6 – 7 .

(3) **Ibid,III.IX.6-7; Oman, C.W.C.,op.cit.,p.81.**

(4) **Lot ,F.,op .cit .,p. 282 .**

(٥) **Procopius , Hist . War. , III .IX. 7 – 9.**

فكان لذلك أكبر الأثر في ارتباطه الوثيق بالبيزنطيين(١).

أراد جستنيان أن يستغل الأحداث الداخلية المضطربة في شمال أفريقيا وأن يجعل منها سبباً مباشراً لإعلان الحرب على الوندال ، فطلب من جليمر أن يطلق سراح هيلدريك من السجن ، وهو يعلم مسبقاً أن جليمر لن يستجيب لطلبه ، ولكن جستنيان أراد بطلبه هذا أن يكسب تأييد العناصر الوندالية الموالية لهيلدريك(٢).

على أن فكرة قيام البيزنطيين بمحاربة الوندال والمقترحات والمناقشات التي دارت في البلاط الإمبراطوري حول إرسال حملة إلى شمال أفريقيا لم تقابل بحماس كبير من قبل المستشارين السياسيين والقادة العسكريين(٣).

فقد أثارت هذه العملية الخوف في الأوساط المحيطة بالإمبراطور جستنيان والتي ذكرته بالهزائم المتلاحقة للبيزنطيين على يد الوندال في القرن الماضي ، ولا سيما تدمير الأسطول البيزنطي بقيادة باسيليسكوس في سنة ٤٦٨ م ، وعلاوة على ذلك صعوبة القيام بهذه الحملة في الوقت الراهن بسبب الظروف السياسية والاقتصادية السيئة التي كانت تمر بها الإمبراطورية البيزنطية(٤).

في الاتجاه الآخر كان هناك من يشجع ويحث الإمبراطور على القيام بهذه الحملة ، حيث يشير أحد المؤرخين(٥) في هذا الصدد أنه « يوجد في القسطنطينية حينذاك بعض أعيان أفريقيا الذين هجروا بلادهم ولجأوا إلى

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ص ٢٧ – ٢٨ ؛ محمد محي الدين المشرفي، مرجع سابق ، ص ١٢٠ .

(٢) نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، ص ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٣) عبد الحفيظ محمد علي ، مرجع سابق ، ص ٩٠ .

(4) **Diehl, C., L`Afrique Byzantine Histoire de la Domination Byzantine en Afrique (533-709) , Vol. 1, Paris, 1896, p.7 ; Lot, F.,op.cit.,p. 282;**

السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

(٥) هذا المؤرخ هو : (Zacharie le Rheteur) الذي كان معاصراً لجستنيان نقلاً عن :

Moderan ,Y., op .cit.,p.220 .

الإمبراطورية ، بسبب بعض الخصومات التي كانت بينهم وبين أمير هذه البلاد جليمر ، وكان هؤلاء اللاجئون يعطونه معلومات عن البلاد ويدفعونه لاحتلالها ، كما كانوا يؤكدون له أنها واسعة جداً، وهادئة، وليس بمقدورها الحرب ضد الرومان... ويشير هؤلاء اللاجئون أمام الإمبراطور أن هذه المنطقة قد تمّ أخذها واغتصابها من يد الرومان منذ زمن جيزريك » (١).

إن الطبقة العليا في المجتمع الأفريقي من بقايا الرومان ظلت مرتبطة بالإمبراطورية الرومانية ، على الرغم مما كانت تعانيه من السلب والاضطهاد من قبل الوندال ، ومع ذلك فإنها لم تتوقف عن مناشدة الإمبراطورية للتدخل من أجل احتلال هذه الولاية.(٢) ووجد هؤلاء الرومان المهاجرون في تلك المناسبة خير الفرص للانتقام من عدوهم المشترك(٣).

في هذا الخضم من المناقشات والتجاذبات السياسية بين مؤيد ورافض لإرسال هذه الحملة يذكر بروكوبيوس(٤) « أنه لم يجرؤ أحد على قول أي شيء للإمبراطور لمنع هذه الحملة ، ما عدا الوالي والقاضي جون الكابدوكي الذي كان رجلاً ذا جرأة كبيرة وأذكى رجل في زمانه » .

ولقد عرض هذا القاضي في خطابٍ مطولٍ على الإمبراطور الصعوبات التي قد تتعرض لها الحملة والمخاطر التي قد تواجهها إذ أن احتلال قرطاجة قد يستغرق مائة وخمسين يومًا سيرًا على الأقدام عبر البر للوصول إلى هذه العاصمة ، وأن العبور بحرًا تشوبه المخاطر ، وسيمضي أكثر من عام حتى تصل أخبار الجيش البيزنطي هناك؛ كما أكد الكابدوكي أن هذه العملية التي ينوي البيزنطيون القيام بها تبدو شبه مستحيلة(٥) ، وحتى إن انتصرت القوات البيزنطية على أعدائها فلن تستطيع الاستيلاء

---

(١) من المرجح أن هؤلاء اللاجئين الذين استعانوا بالإمبراطور جستنيان من الرومان الأفارقة ، ولكن هل نسوا أم تناسوا أن هذه الولاية الرومانية السابقة كانت في الأصل لسكان محليين من قبلهم ،(الباحث) .

(2) **Bel Khodja, K. et Autres.,op .cit .,p.2٤٨ .**

(٣) محمد محي الدين المشرفي، مرجع سابق ، ص ١٣٤؛ نعيم فرح، تاريخ بيزنطة، ص ص ١١٥ – ١١٦ .

(4) **Procopius , Hist . War.,III . X. 7.**

(5) **Saumagne ,C., Reco . Byz . Afr.,p.2٨7 .**

على هذه البلاد بينما تقع صقلية وإيطاليا في أيدي آخرين(١).

رغم أن القرار كان بيد الإمبراطور جستنيان وحده للقيام بهذه الحملة إلا أن آراء مستشاريه ووزرائه لا سيما جون الكابدوكي قد كبحت جماح رغبته المتلهفة للحرب ، ولو لبعض الوقت ، لكن سرعان ما كانت للدوافع الدينية الكفة الراجحة للقيام بمثل هذا المشروع .

٢.الدوافع الدينية

كان أباطرة القسطنطينية من الأرثذوكس ، بمعنى أن الأباطرة الإغريق اعتنقوا عقيدة واحدة أرساها وأقرها قبل قرنين من الزمان أباء الكنيسة الذين اجتمعوا في نيقية(٢) ، تحت رئاسة مؤسس الإمبراطورية الجديدة قسطنطين الأول وآمنوا بألوهية المسيح(٣).

أما الوندال فلم يؤمنوا بأن المسيح إله خلافاً لما اعتقد البيزنطيون والرومان ، بل كانوا على المذهب الأريوسي المناهض لذلك كغيرهم من الشعوب الجرمانية من القوط الشرقيين والغربيين(٤) ومنذ احتلالهم لشمال أفريقيا أخذوا في اضطهاد الكاثوليك وإجبارهم على اعتناق مذهبهم المذهب الأريوسي وأصبحوا يطبقون كل القوانين التي أصدرها الأباطرة الرومان ضد الأريوسيين على الكاثوليك ، والتي منها تحريم التجمعات الثقافية ومصادرة أموال الكنائس ورجال الدين ونفيهم ثم حرق كتبهم الدينية(٥).

---

(١) حول الاجتماعات التي أجراها جستنيان مع مستشاريه وقادته، والخطاب الذي ألقاه جون الكابدوكي حول الحملة البيزنطية على شمال أفريقيا والتفاصيل المتعلقة بها، ينظر الفصل العاشر كاملاً من الكتاب الثالث، أما هذه الفقرة المقتبسة فينظر:

Procopius , Hist . War.,III .X. ١٥-16.

(٢) عقد في مدينة نيقية سنة ٣٢٥ م مجمع ديني كانت أهم نتائجه رفض آراء أريوس الذي أنكر ألوهية المسيح ، وأنكر صفة الشبه بين الأب والابن ينظر : حسنين محمد ربيع ، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٩٠م، ص ٤٨ .

(3) **Saumagne,C., Reco. Byz . Afr.,pp.286 - 287 .**

(4) **Pirenne, H., op. cit.,p.41.**

(5) **Boutbouqalt,T.,op .cit.,p.67 .**

اتسـمت السياسـة الدينيـة للملـوك الأوائـل مـن الونـدال بطـابع التنكيـل والاضـطهاد ضـد الرومـان الكاثوليـك، فقـد تعامـل الملـك جيزريـك فـي بدايـة حكمـه معهـم بـانتزاع أمـوال كنائسـهم ومصـادرة أراضـيهم، لكـن الكنيسـة الكاثوليكيـة فـي شـمال أفريقيـا شـكلت معارضـة دينيـة وخطـراً داخليـاً حقيقيـاً علـى الونـدال عنـدما وجهـت أنظارهـا نحـو بيزنطـة، إلا أنهـا اكتفـت فـي تلـك الفتـرة بإثـارة الدسـائس والمـؤامرات انتظـاراً للوقـت المناسـب ، ويبـدو أن جيزريـك قـام بهـذه الإجـراءات ضـد الكاثوليـك نتيجـة للضـرورات السياسـية أكثـر مـن تعصـبه للأريوسـية.[١] وقـد أظهـر قبيـل وفاتـه شـيئاً مـن التسـامح الـديني بنـاءً علـى طلـب مـن الإمبراطـور البيزنطـي زينون.[٢]

كانـت سياسـة هونريـك ابـن جيزريـك تجـاه الكاثوليـك قـد اتسـمت أيضـاً بالتشـدد ، حيـث أصـدر أمـرًا ملكيـاً سـنة ٤٨٣ م ، بـإغلاق أربـع وخمسـين كنيسـة وديـر ومصـادرة أملاكهـا وأموالهـا، والقـبض علـى قساوسـتها الـذين بلغـوا نحـو خمسـة آلاف قسـيس ونفـاهم إلـى حـدود الصـحراء ، وبـذلك مثلـت فتـرة حكمـه أشـد الفتـرات التـي تعـرض فيهـا الكاثوليـك للاضـطهاد فـي شـمال أفريقيـا[٣]. علـى أن الوضـع اختلـف نوعـاً مـا فـي عهـد تراسـاموند (٤٩٦ – ٥٢٣ م) وهيلـدريك (٥٢٣ – ٥٣٠ م) اللـذان مارسـا سياسـة معتدلـة تجـاه الكاثوليـك والأرثـذوكس وأنهيا حالة توتر العلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية[٤].

اتبـع هيلـدريك سياسـة مواليـة للكنيسـة الكاثوليكيـة والرومـان ، فقـد سـمح بعـودة اللاجئـين الـذين تـمّ نفـيهم فـي السـابق مـن الكاثوليـك وأذن ببنـاء الكنيسـة الكاثوليكيـة الكبـرى، وعَـيّن كبيـر أسـاقفتها بمدينـة قرطاجـة، إضـافة إلـى إعـلان حريـة العبـادة، وإعـادة فـتح الكنـائس الأخـرى،وتنظيم المـداولات بشـكل حـر فـي

---

(1) **Laroui,A., op.cit.,p.67;**

شارل اندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ص ٣٣١ – ٣٣٢ .

(2) **Boutbouqalt,T.,op .cit.,p.69** .

(٣) عبد العزيز الثعالبي ، مقالات في التاريخ القديم ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٨٦ م ، ص ٤٩.

(٤) نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، ص ١١٤ .

المجامع الدينية الكنسية لاسيما في المجمع الذي عُقد بتاريخ ٥-٢-٥٢٥م[1].

هـذه السياسـة جعلتـه يحظـى بتعـاطف تـام مـن قبـل المـؤرخين الكاثوليـك ، فضـلاً عـن وقـوف جسـتنيان لجانبـه ، ولكـن أعمالـه هـذه جعلتـه يتعـرض إلـى معارضـة قويـة مـن جانـب رجـال الـدين الأريوسـيين والارسـتقراطية الونداليـة عـلاوة على أن هيلدريك كان يُظهر عجزاً تاماً أمام توغلات القبائل المحلية[2].

كمـا يشـير أحـد المـؤرخين إلـى أن الملـك الونـدالي جليمـر لـم يعـاود اضـطهاد وتعـذيب الكاثوليـك ، هـذا التعـذيب الـذي تركـه الونـدال منـذ فتـرة طويلـة[3]. لكـن لمـاذا كـان الـدافع الـديني للإمبراطـور جسـتنيان مـن أهـم الـدوافع التـي شـجعته لاحتلال شمال أفريقيا إذاً ؟ [4].

مـن الواضـح أن سياسـة الإمبراطـور جسـتنيان الدينيـة تمثلـت فـي شـعاره الثلاثي : « دولة واحدة ، قانون واحد ، كنيسة واحدة »[5].

علـى أن هـذه السياسـة اصـطدمت بفتـرة مـن التـردد الـديني والصـراع العقائـدي سـاهمت فيـه مختلـف جهـات الإمبراطوريـة ، وفـي غيـاب حجـة المنطـق لجمـع كلمـة المسـيحيين لجـأ الإمبراطـور إلـى حجـة القـوة ؛ لأن تصـوره للإمبراطوريـة كانـت تقـوده فكرتـان أساسـيتان وهمـا : الإرث الرومـاني ، والـدين المسـيحي ، ففـي ذهنـه تبـدو الإمبراطوريـة البيزنطيـة أو الرومانيـة مسـيحية ، لـذلك لا يمكـن للمسـيحية إلا أن تكـون رومانيـة ، ولهـذا وصـل بـه اعتقـاده إلـى أن مـا مـن شـأنه أن يعيـق كونيـة الإمبراطوريـة ومسـكونية الكنيسـة لا حـق لـه فـي الوجـود ، حتـى أنـه لـم يكـن قـادراً علـى تصـور وجـود اخـتلاف دينـي مهمـا كـان

---

(1) **Bel Khodja ,K. et Autres., op .cit .,p. 2٤١ ; Saumagne,C., Reco. Byz. Afr., p. 291.**

(2) **Bel Khodja,K. et Autres.,op .cit .,p. 2٤١ .**

(3) **Moderan , Y.,op .cit.,p. 219.**

(٤) كـان اهتمـام الإمبراطـور جسـتنيان كبيـراً بالمسـيحية والمسـيحيين ، وتمثـل هـذا الاهتمـام فـي بنـاء العديـد مـن الكنـائس فـي شـمال أفريقيـا بشـكل عـام ، وفـي ليبيـا بشـكل خـاص ، للمزيـد حـول هـذا الموضـوع ، ينظـر : الصـغير أبـو صـبيع ، نبـذة تاريخيـة عـن المسيحية المبكـرة فـي ليبيـا ومعالمهـا الأثريـة ، مجلـة قـار يـونس العلميـة ، العدد الأول والثاني ، السنة الثالثة عشر ، بنغازي، ٢٠٠٠ م، ص ص ٦٩ وما بعدها .

(٥) أحمـد عطيـة رمضـان ، أهميـة الـدور المصـري فـي العلاقـات البيزنطيـة السـودانية حتـى العصـر الجسـتنياني ، حوليات كلية دار العلوم ، العدد الرابع عشر ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٩١م، ص ١٢٥ .

بسيطاً(١).

وبشكل عام كانت سياسة الإمبراطور الدينية مثل سياسته الدنيوية موجهة نحو الغرب ، فقد كان يهمه كثيراً أن يكون على علاقة ودية مع البابا، لذلك نفذ جستنيان رغبات البابا في نصرة المذهب الرسمي للدولة (٢). وهذا كله ربما زاد من العداوة المذهبية والعرقية بين البيزنطيين والوندال ودفع الإمبراطور لشن حرب عليهم(٣).

على أية حال ، ومع أن الدوافع السياسية الآنفة الذكر لا يمكن الاستخفاف بها ، والتي كان لها وقع ظاهر على الإمبراطور الذي أصبح على وشك التخلي على هذا المشروع الكبير (٤). فإن الدوافع الدينية هي التي تغلبت فيما بعد على معارضة المقربين ، وتتمثل تلك الدوافع في وصول عدد كبير من المنفيين الأفارقة والرهبان المعذبين إلى القسطنطينية (٥). كما أن ممثلي الكنيسة الكاثوليكية في شمال أفريقيا تدخلوا أيضاً بإعطاء الإمبراطور ذريعة قوية للغزو البيزنطي(٦).

وتوضح الفترة الفاصلة بين (٥ مايو، إلى ٢ يونيو من عام ٥٣٣ م) ، والتي جمع فيها جستنيان ممثلي الكنيسة ، خاصة من الأرثودكس والأساقفة المونوفيزتيين في مجمع القسطنطينية أن الهدف منه التأكيد على وحدة الكنيسة

---

(١) محمد الطاهر المنصوري ، مرجع سابق، ص ص ٢٨ – ٣٠ ؛ وللمزيد حول المشاكل الدينية التي تعرضت لها الإمبراطورية البيزنطية في زمن الإمبراطور جستنيان ينظر أيضاً:

Previté _ Orton.,C.W., op. cit., pp. 194 – 196 .

(٢) عمر كمال توفيق، مرجع سابق، ص ٩٠ ؛ أحمد عطية رمضان، مرجع سابق، ص ص ١٢٥ – ١٢٦ ؛ إسماعيل مطهر ، يوستنيانوس والإمبراطورية البيزنطية، مجلة المقتطف، مج ١١٥، ج٣ ، مطبعة المقتطف، القاهرة ، ١٩٤٩ م ، ص ١٥٣.

(٣) محمد علي دبوز ، مرجع سابق، ص ٤٤١ ؛

Hoyt, R.S., op.cit.,p.106.

(4) **Pavy , A., op .cit.,p. 2٥٧ .**

(5) **Diehl, C., Afr. Byz. Hist., pp. 7-8 ; Kaddache, M.,op. cit.,p.213; Vasiliev, A .A .,op .cit. , p.134.**

(6) **Moderan, Y., op .cit.,p. 226 ; Laroui,A., op.cit. ,p. 67.**

وتجريد التيارات المعارضة من مرجعيتها المسيحية [١]، وهو في اعتقادي أحد أهم الأسباب الرئيسة لقيام الإمبراطور جستنيان بمشروع احتلال الغرب بما فيه طبعاً شمال أفريقيا .

أما الحدث الديني البارز ، والذي غير مجري الأحداث ويذكره بروكوبيوس[٢] فهو أن « أحد القساوسة الذين يُسمون أساقفة والذي أتى من الشرق ، قال إنه يرغب في التحدث إلى الإمبراطور ، وعندما قابل جستنيان قال له : إن الله (أي المسيح) زاره في الحلم وأمره أن يذهب إلى الإمبراطور ويوبخه ، لأنه بعد أن باشر القيام بمهمة حماية المسيحيين في ليبيا (شمال إفريقيا) من المستبدين أصبح خائفاً دون سبب وجيه ، وعلاوة على ذلك سأنضم إليه بنفسي في شن الحرب وأجعله ملكاً على ليبيا » .

كما أن المؤرخ فكتوردي تونتيونا[٣](Victor de Tunnuna) يشير إلى أن جستنيان شخصياً قد رأى في منامه القس نبته (Laetus de Nepta) ، الذي عذبه الوندال في زمن الملك هونريك وقاموا بقتله في ٢٠ – ٩ – ٤٨٤ م ، يدفع به للقيام بهذا الغزو الذي يعتبر بمثابة الثأر والإنقاذ للكاثوليك الأفارقة[٤].

هذا الخيال الديني كان خصباً في تلك المرحلة ، ولكنه لم يتطرق إلى سكان شمال أفريقيا والذين يمكن أن يجدهم البيزنطيون في تلك المنطقة. [٥]

هكذا فإن هذه الروايات والنبوءات كانت للدعاية والحماس، والمقصود منها رفع الروح المعنوية للجيوش البيزنطية والقضاء على هيبة الوندال ، وإزالة الخوف من لقائهم ، غير أنه مما لا شك فيه أن رجال الدين قد لعبوا دوراً

---

(١) محمد الطاهر المنصوري، مرجع سابق، ص ٣٣ ؛

Brehier, L., op.cti., p.18.

(2) **Procopius, Hist . War., III .X. 18 – 21.**

(٣) نقلاً عن :

Moderan ,Y.,op .cit.,p. 218 .

(4) **Pavy ,A., op.cit., p.2٥8 .**

(5) **Moderan,Y. ,op .cit., p.219 .**

بـارزاً فـي هـذه الحملـة وهـم الـذين شـجعوا الإمبراطـور علـى المضـي قـدماً لإرسـال حملـة إلـى شـمال أفريقيـا ، بعكـس المستشـارين المـدنيين والعسـكريين[١] ليمثـل ذلك في النهاية أهمية الدافع الديني للاحتلال البيزنطي .

٣.الدوافع الاقتصادية والاجتماعية

أعلـن الونـدال منـذ مجيـئهم لشـمال أفريقيـا أنهـم أتـوا لتحريـر سـكان هـذه الـبلاد مـن السـيطرة الرومانيـة وتخليصـهم مـن اسـتغلال الرومـان لهـم، فكسـبوا فـي البدايـة تأييـدهم ووقفـوا إلـى جـانبهم ضـد الرومـان أو علـى الأقـل بقـوا علـى الحياد،وسـرعان مـا شـرع الونـدال إثـر ذلـك بمصـادرة أمـلاك الطبقـة الأرسـتقراطية الرومانيـة، كمـا صـادروا أمـلاك الكنـائس الأرثذوكسـية والأمـلاك التابعـة للسـلطة الرومانية،هـذا ولـم يبـق للملاكـين القـدامى سـوى أراضٍ غيـر صـالحة أُلزمـوا علـى دفع ضرائب باهظة عنها لخزينة الوندال[٢].

إن المواقـع البحريـة التـي سـيطر عليهـا الونـدال فـي البروقنصـلية وصـقلية وسـردينيا كانـت ذات أهميـة بمكـان، كونهـا تمثـل قواعـد اسـتراتيجية،كما هـو الحـال فـي عصـر المنافسـات الكبـرى بـين الرومـان والفينيقيـين ، هـذه المواقـع قـد سـيطر عليهـا جيزريـك[٣] ، واسـتمرت السـيطرة عليهـا حتـى نهايـة الحكـم الونـدالي .وكانـت قـوة الإمبراطوريـة البيزنطيـة فـي قـوة اقتصـادها المتمثـل فـي النشـاط التجـاري، الـذي حـاول جسـتنيان بكـل جهـده العمـل علـى ازدهـاره، وذلـك بتحسـين علاقتـه مـع الفـرس وتجنـب الحـروب معهـم حتـى لا تتعـرض العلاقـات التجاريـة للتوقـف خاصـة، وأن الفـرس يعتبـرون الوسـيط التجـاري لتجـارة الشـرق مـع بيزنطـة[٤]. لكـن الحـروب بـين البيـزنطيين والفـرس كانـت قـد تزامنـت مـع مشـروع الإمبراطـور جسـتنيان لاحـتلال الغـرب، وكانـت تلـك الحـروب قـد أرهقتـه وأفرغـت

---

(١) عبد الحفيظ محمد علي ، مرجع سابق ، ص ٩١ .

(٢) نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، ص ١١٤؛

Laroui,A. ,op .cit., p. 67.

(3) **Saumagne, C., Reco , Byz , Afr.,p.28٦ .**

(٤) أحمد عطيه رمضان ، مرجع سابق ، ص ١٢٦ .

خزائنه مما يرجح أنه سعى إلى تحقيق مكاسب اقتصادية باحتلاله شمال أفريقيا(١).

إن المصادر التي استقى منها جستنيان معلوماته عن شمال أفريقيا وكانت دافعاً لاحتلاله يمكن وضعها وتصنيفها في ثلاث مستويات :

المستوى الأول : وهو ممثلو الكنيسة الكاثوليكية في المنطقة ، والتي أعطت ذريعة ودافعاً دينياً ، أما المستويان الآخران واللذان ينحصر عملهما في الدافع الاقتصادي فيتمثل المستوى الأول من هذين المستويين في مناصري الملك هيلدريك ، والذين كان لهم نفوذ وتأثير كبير على الإمبراطور بعد ما قدموا له حجتين يستند عليهما لغزوه شمال أفريقيا ، الحجة الأولى: تفيد بأن أفريقيا مسالمة، ومن السهل احتلالها. أما الحجة الثانية: فلأن هذا الغزو يمكن أن يدر ثروات كبيرة على الإمبراطورية ، وذلك باستعادة الأموال التي ادخرها وكدسها الوندال(٢).

أما المستوى الثاني فهم التجار الشرقيون الذين كانوا يقيمون بشكل منتظم في قرطاجة ، وقد تدخلوا أيضاً لدى الإمبراطور ، وهؤلاء الذين أُتهم بعضهم من قبل جليمر وقام بسجنهم (٣). ومن المرجح أن هذه النداءات والحجج التي ساقها هؤلاء التجار والمؤيدون لهيلدريك من مهاجرين أفارقة وتجار شرقيين قد لاقت استحساناً وقبولاً من قبل الإمبراطور جستنيان .

وعلى الرغم من هذا التفاؤل الذي حظي به الإمبراطور فإن جبهة المعارضة للحملة كانت تشكك في قدرة الإمبراطورية على خوض مثل هذه التجربة،والتي لها تبعاتها السياسية والاقتصادية السيئة.فلقد كان القادة العسكريون يتذكرون الإخفاقات العسكرية السابقة والتي أهمها فشل القائد

---

(١) مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،١٩٧٦م، ص ٣٦٢ ؛ د . ي هاينز ، مرجع سابق ، ص ٧٥ .

(2) **Moderan ,Y., op .cit. ,p. 226; Kaddache , M., op.cit., p. 213 .**

(٣) شارل اندريه جوليان، مرجع سابق، ص ٣٥٥ ؛ إبراهيم علي طرخان، شمالي أفريقية والوندال ٤٣٩ – ٥٣٤ م ، ص ١٤٦ .

باسيليسكوس عام ٤٦٨م في احتلال شمال أفريقيا والذي كلف خزينة الإمبراطورية سبعة ملايين من العملة المسماة النوميسمات[١](Nomismata) في حين أكد كبار الموظفين الماليين وجباة الضرائب العامة والإمبراطورية

(الخاصة بالإمبراطور) ، أنه سيكون من الضروري تحصيل مبالغ مالية لا تحصى من أجل احتياجات الحرب[٢].

وهذا ما أكده جون الكابدوكي في معرض خطابه الآنف الذكر للإمبراطور جستنيان عن التضحيات الكبيرة بحياة الرجال والمبالغ الضخمة من الثروة التي سوف تُدفع مقابل تلك الحملة[٣].

أما عن الدوافع الاجتماعية للاحتلال فيمكن استقراؤها من خلال ما تعرضت له القسطنطينية من صعوبات اجتماعية داخلية أسفرت عن ثورة دموية هي ثورة نيقيا (Nika) في سنة ٥٣٢ م ، والتي سيطر فيها المتمردون على العاصمة طيلة ثلاثة أيام ، وما لحق ذلك من حرق ونهب للمباني والممتلكات. ورافقت تاريخياً هذه الأزمة البيزنطية الداخلية الإعداد لمشروع جستنيان لهيمنته على شمال أفريقيا سنة ٥٣٣ م ،وهو ما يدل على أن سياسة الإمبراطور جستنيان كانت أشبه بسياسة تحويل أنظار البيزنطيين عن أزماتهم الداخلية وتوجيهها نحو هدف خارجي[٤]. كما أنه أراد أن يعيد سمعته كقائد عظيم بعد أن تدهورت نتيجة لهذه الثورة [٥].

ويبدو أن ما شجع الإمبراطور جستنيان على إرسال هذه الحملة إدراكه أن الوندال فقدوا ما عُرف عنهم من القوة والعنف نظراً لتأثرهم بالحضارة

---

(1) **Jean _ Claude Cheynet.,op .cit.,p. 32 .**

(2) **Procopius, Hist.War. ,III .X . 3 – 4;**

السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

(3) **Procopius, Hist.War.,III .X.1١ – ١٣ .**

(٤) محمد الناصر النفزاوي ، فارس بيزنطة والجزيرة العربية من القرن الثالث إلى القرن السابع ، دار الجنوب للنشر ، تونس ، ١٩٩٣م، ص ص ٨٤ – ٨٥ .

(٥) نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، ص ١١٥ .

الرومانيــة ، وهــو مــا يفســر أن البيــزنطيين قــد شــرعوا فــي احــتلال الــبلاد حضــارياً و دبلوماســياً قبــل احتلالهــا عســكرياً ، إضــافة إلــى اخــتلاف المُنــاخ الــذي عــاش فيه الوندال في شمال أفريقيا عن مُناخ بلادهم في شمال أوروبا(١).

كمــا لا يمكــن تجاهــل أن حــرب البيــزنطيين ضــد الونــدال جــاءت وفــق ادعــاء تحريــر الرومــان مــن ظلــم البرابــرة ، هــذا الظلــم الــذي كــان دائمــاً يُنســب للونــدال عــلاوة علــى أنهــم قبيلــة جرمانيــة تلــتهم فــي حكــم الــبلاد (٢). ممــا يوضــح فــي المحصلة النظرة الدونية لكل الشعوب غير الرومانية .

هكــذا لعبــت جميــع الــدوافع السياســية والدينيــة والاقتصــادية والاجتماعيــة دوراً بــارزاً فــي تشــجيع الإمبراطوريــة البيزنطيــة علــى تنفيــذ مشــروعها بــاحتلال شــمال أفريقيـا وهيـأت لهـا جـواً مناسـباً للقيـام باسـتعداداتها السياسـية والعسـكرية نحـو أولـى مراحل الغزو البيزنطي لغرب البحر المتوسط .

ثانيا:الاستعدادات السياسية والعسكرية للبيزنطيين

بعــد اعــتلاء جليمــر عــرش المملكــة الونداليــة وقيامــه بســجن هيلــدريك تــدخلت الدبلوماسية البيزنطية في مشكلة النزاع الداخلي حول تولي العرش الوندالي بشكل مباشر وسافر ،وذلك بجملة من الاستعدادات السياسية البيزنطية.

يــذكر بروكوبيــوس(٣) أن الإمبراطــور جســتنيان أرســل مبعــوثين إلــى جليمــر برســالة مفادهــا ((أنــه بســجنك رجــلاً مســناً (أي هيلــدريك) مــن أقاربــك وملكــاً للونــداليين لا تتصــرف وفــق الأســاليب المقدســة ولا بمــن يســتحق وصــية جيزريــك ... فــلا تســتبدل اســم الملــك بلقــب مســتبد... فــانتظر حتــى تتســلم بحســب الوقــت وبحســب قــانون جيزريــك... (وأقفــل جســتنيان رســالته) إذا فعلــت هــذا، فــإن الله ســيؤيدك وفــي نفــس الوقــت ســتكون علاقتنــا معــك وديــة)) . ويبــدو أن اقتراحــات

---

(١) اسمت غنيم ، مرجع سابق ، ص ٣٤ ؛

Laroui ,A.,op.cit.,p.67 .

(2) **Moderan ,Y.,op .cit.,p.219 .**

(3) **Procopius , Hist .War. ,III .IX.10 – ١٣ .**

جســتنيان لــم تــرق لجليمــر فطــرد المبعــوثين ، وأعمـــى هــومر[١] (Hoamer) وأبقــى هيلــدريك وأيــواقيس (Euagees) أخــا هــومر فــي ســجن

(١) مـن المـرجح أن هـومر هـذا هـو ابـن أخـت هيلـدريك ، والـذي تـولى محاربـة القبائـل المحليـة فـي سـنة ٥٣٠ م ، ينظر : السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ٢٩ .

أكثر إحكاماً(١).

عزز جستنيان رسالته الأولى برسالة ثانية كان الهدف الرئيسي منها هو أن يقوم جليمر بإرسال هيلدريك ، وهومر وأيواقيس إلى القسطنطينية مع التأكيد على أن الأمور لن تهدأ إن لم يفعل هذا ، وإن المعاهدة مع جيزريك لن تقف حائلاً بينهما(٢) ، لأن جستنيان لم يأت ليشن حرباً على من يرث مملكة جيزريك ، ولكن ليثأر له بكل قوته (٣).

أمام هذه الادعاءات المبطنة أدرك جليمر أن التنازلات مهما كانت كبيرة فإنها لا تعمل إلا على تأخير الصراع ، ولكن لا تستطيع أن تنهيه لهذا رفض بكل وضوح الترضيات التي منحت له ، ورد على مطالب الإمبراطورية البيزنطية بتصلب أكبر (٤).

عمد جستنيان أمام هذا التصعيد وعدم الرضوخ الذي أبداه جليمر إلى محاولة جادة ليضع نهاية للحروب الفارسية في أسرع وقت ، وبالفعل عقد جستنيان معاهدة صلح إلى أجل غير مسمى مع الملك الفارسي الجديد كسري أنوشروان في سنة ٥٣٢ م ، تضمنت شروطاً مُهينة للبيزنطيين أهمها تعهد الإمبراطورية البيزنطية بأن تدفع جزية سنوية ضخمة للفرس لكن هذه المعاهدة في الوقت ذاته قد أطلقت أيدي جستنيان في الجنوب ونحو الغرب(٥).

كما تمكن من عقد تحالفات أخرى مع أمراء القفقاز ونجاشي الحبشة والغساسنة في بلاد الشام ليشكل من هؤلاء جميعاً درعاً واقياً من أي خطر قد

---

(1) **Procopius , Hist .War., III . IX.14.**

(٢) حول هذه المعاهدة التي عقدها جيزريك مع الإمبراطور البيزنطي زينون، يراجع الفصل الأول من البحث .

(٣) لقد أراد جستنيان أن يثبت لجليمر والونداليين أنه يحفظ العهد القديم من خلال اتفاقية السلام بين البيزنطيين وجيزريك وأنه إن شن الحرب على جليمر يعطي لنفسه الحق في الدفاع عن من يستحق تولى عرش المملكة الوندالية ينظر :

Procopius , Hist.War.,III .IX.15-19 .

(4) **Diehl,C., Just .Civi .Byz.,p.174.**

(٥) السيد الباز العريني، مرجع سابق، ص ٧٠ ؛ السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص ص ٣٨ – ٣٩ ؛ **Vasiliev , A .A.,op.cit.,p.135 .**

يـأتي مـن الفـرس[١]. وبهـذا كلـه يكـون قـد أمـن الجبهـة الشـرقية للإمبراطوريـة للقيـام بمشروعه تجاه الغرب .

يبـدو أن جسـتنيان كـان يـدرك طبيعـة العـداء بـين الممالـك الجرمانيـة فـي الغـرب فلقـد كـان الونـدال علـى علاقـة سيئة مـع القـوط الشـرقيين فـي إيطاليـا ، وكـان القـوط الشـرقيون فـي نـزاع مـع دولـة الفرنجـة فـي بـلاد الغـال ، أمـا بُعـد المسـافة بـين القـوط الغـربيين فـي أسـبانيا وبـاقي الممالـك الجرمانيـة الأخـرى فلـن يتـيح لهـم لعـب دور فعـال فـي الحـرب ضـد الجيـوش البيزنطيـة ، وبـذلك تسـتطيع هذه الجيوش القضاء عليهم كل على حدة[٢].

أسـفرت المفاوضـات الجـادة التـي أجرتهـا الإمبراطوريـة البيزنطيـة مـع مملكـة القـوط الشـرقيين بصـقلية وإيطاليـا عـن مـنح الثقـة وعـدم الخـوف بـل أصـبح مـن الممكن الاعتماد على مساعدتهم عند الانطلاق للغزو.[٣]

كـان نجـاح الدبلوماسـية البيزنطيـة فـي الحصـول علـى دعـم هـذه المملكـة راجـع فـي حقيقـة الأمـر إلـى النـزاع القـائم بـين القـوط الشـرقيين والونـدال منـذ مقتـل أمـالا فريـدا (Amalafrida) فـي عهـد هيلـدريك وهـي أرملـة الملـك الونـدالي تراسـاموند (Trasamund) ، وابنـة الملـك القـوطي ثيودريـك (Theodoric)، وقـد اسـتطاعت مملكـة القـوط الشـرقيين فـي إيطاليـا أن تعطـي دفعـة قويـة لحـرب جسـتنيان علـى الونـدال ، وذلـك بالسـماح للأسـطول البيزنطـي بـالتوقف والتـزود بالمؤن من صقلية[٤].

وبعيـداً عـن التحالفـات السياسـية التـي كـان البيزنطيـون يبرمونهـا مـع غيـرهم، سـعى جسـتنيان بكـل قـوة لإيجـاد سياسـة دينيـة مقاربـة بـين الشـرق والغـرب مـن خـلال إزالـة الشـقاق بـين كنيسـة القسـطنطينية وكنـائس الولايـات الشـرقية مـن جهـة وكنيسـة رومـا مـن جهـة ثانيـة ، وذلـك حـول مسـألة طبيعـة المسـيح التـي اشـتد

---

(١) نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، ص ١١٦ .

(٢) اسمت غنيم، مرجع سابق، ص ص ٣٤- ٣٥ ؛ خليفة بن ناصر ، صلاح هادى الحيدري، مرجع سابق ، ص ٤٨ .

(3) **Pavy ,A.,op.cit.,p. 2٥8 .**

(4) **Bel Khodja, K.et Autres., op.cit.,p.25٨ ; Pehrson , J.D.R.,op.cit.,p.167 ;**
شارل اندريه جوليان، مرجع سابق ، ص ٣٥٦ ؛ السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص ص ٢٨ – ٢٩ .

الخــلاف حولهــا منــذ عــدة قــرون[١]. وهــو مــا يؤكــد بــأن تلــك المجــامع الدينيــة الكنســية التــي أشــرف الإمبراطــور جســتنيان علــى عقــدها وإقامتهــا كانــت مســخرة لأغراض ومصالح سياسية أكثر منها دينية .

وقعــت ظــروف سياســية طارئــة تنســجم مــع الاســتعداد السياســي لإعــلان الحــرب علــى الونــدال، وهــي قيــام ثــورتين متــزامنتين ضــد الونــداليين فــي كــل مــن إقلــيم طــرابلس و ســردينيا[٢]. ويبــدو واضــحاً أن زعمــاء هــاتين الثــورتين قــد كانــا على اتصالات مباشرة وسرية مع البيزنطيين لدعمهم في هذه الحرب[٣].

لقــد دعــا بودنتيــوس (Pudentius) أحــد الســكان الــوطنيين فــي تريبولتيانيــا بليبيــا أهــل هــذه المنطقــة وربمــا إقلــيم بيزاكيــوم للثــورة ضــد الونــداليين[٤] ، والــذي أرســل إلــى الإمبراطــور جســتنيان يطالبــه بتقــديم المســاعدة العاجلــة فأرســل إليــه الإمبراطــور قــوة حربيــة صــغيرة بقيــادة تــاتيموت (Tattimuth) ، فتمكن هذا القائد و بودنتيوس من إخضاع هذه البلاد لسلطة الإمبراطور[٥].

كانــت الثــورة الثانيــة قــد قــام بهــا أحــد الضــباط القــوط والمــدعو قــوداس (Godas) ، بعــد محاولتــه إعــلان اســتقلال جزيــرة ســردينيا عــن الحكــم الونــدالي وكــان قــوداس قــد تــم تعيينــه فــي الســابق حاكمــاً علــى الجزيــرة مــن قبــل جليمــر وقــد أبــدى هــذا الضــابط أيضــاً رغبتــه فــي تقــديم المســاعدة للبيــزنطيين مقابــل تزويــده بالجنود[٦].

كــان الإمبراطــور مســروراً باســتلام رســالة قــوداس بهــذا الخصــوص فســارع إلــى إرســال أيولوقيــوس (Eulogius) كمبعــوث مــن طرفــه مــع رســالة يمدحــه

---

(١) أسد رستم ، مرجع سابق ، ص ص ١٨٠ – ١٨١ .

(2) **Diehl,C., Just . Civi .Byz .,p. 174 ; Kaddache ,M.,op.cit., p. ٢١٤ .**

(٣) محمد محي الدين المشرفي، مرجع سابق ، ص ١٣٤ .

(٤) إبراهيم علي طرخان ، شمالي أفريقية والوندال ٤٣٩ – ٥٣٤ م ، ص ١٤٦ ؛

Bel Khodja, K.et Autres. ,op.cit.,p.2٤٨ .

(5) **Procopius , Hist . War.,III .X . 22 - 24 ;**

د. ي . هاينز ، مرجع سابق، ص ٧٦ .

(6) **Pavy,A.,op .cit., p.2٥8 ;**

إبراهيم علي طرخان ، شمالي أفريقية والوندال ٤٣٩ – ٥٣٤ م ، ص ١٤٦.

فيها على حكمته وتحمسه للعدالة البيزنطية، كما وعده بعقد تحالف بينهما، علاوة على ذلك أكد الإمبراطور على أنه سوف يرسل جنوداً وقائداً قادراً على حراسة الجزيرة من الخطر الوندالي ، وخلال هذه الإجراءات كان الإمبراطور جستنيان يقوم بإعداد أربعمائة جندي تحت قيادة كيريل (Cyril) ، ليساعد قوداس في حراسة الجزيرة[١].

هكذا كانت الظروف السياسية تمضي لصالح البيزنطيين والاستعدادات السياسية قائمة على قدم وساق ، وأصبح الوقت مهيأ للبيزنطيين للقيام باستعداداتهم العسكرية للحرب ضد الوندال .

بعد أن درس جستنيان الأوضاع الدولية ، واطمأن إلى أن الظروف الداخلية في بيزنطة ومملكة الوندال تسير في صالحه ، قرر تنفيذ مشروعه احتلال شمال أفريقيا ، فأصدر أوامره بالإسراع في تجهيز وإعداد الحملة العسكرية التي ستقوم بتنفيذ المهمة ، ونشطت الاستعدادات العسكرية بصورة سرية ، ودون أن يفصح عن الهدف منها كي لا يعلم الونداليون عنها شيئاً فيتخذوا الترتيبات الدفاعية اللازمة لصد هذه الحملة [٢].

وفي الوقت الذي أرسل فيه الإمبراطور جستنيان تعزيزاته العسكرية لكل من إقليم طرابلس وسردينيا كانت الحملة ضد قرطاجة على أهبة الاستعداد وقوامها عشرة آلاف جندي من المشاة وخمسة آلاف فارس تم جمعهم من الجند النظاميين ومن المرتزقة[٣] . هذا بالإضافة إلى فرقتين من الرماة الهون (Huns) ، وعددهم ٦٠٠ محارب ، ومن الهيرولي (Heruli) وعددهم ٤٠٠ محارب [٤] ، ليصبح عدد الجيش البيزنطي يتألف من ١٦،٠٠٠ جندي[٥]. ولقد تطلب ذلك إعداد خمسمائة سفينة لنقل الجيش

---

(1) **Procopius**, **Hist .War., III .X−XI. 32 – 1.**

(٢) نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، ص ١١٦ .

(3) **Procopius , Hist .War., III .XI.2; Lot ,F.,op .cit.,p.282 ;**

عبد القادر أحمد اليوسف ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٥٥ .

(٤) إبراهيم علي طرخان ، شمالي أفريقية والوندال ٤٣٩ – ٥٣٤ م ، ص ١٤٧.

(5) **Kaddache, M.,op.cit.,p.٢١٣ .**

بكامله تسانده وتحرسه اثنتان وتسعون سفينة حربية من نوع درومونز (Dromones) [١].

ما تجدر الإشارة إليه هو أن بعض الباحثين [٢] يرى أن قوة الجيش البيزنطي كانت قوة صغيرة تصل في مجملها ما بين الخمسة عشر ألفاً إلى الستة عشر ألفًا ، وهذه القوة أقل بما يعادل نصف عدد الجيش الوندالي حسب رأيهم في ذلك الوقت .

لكن بروكوبيوس[٣] يذكر خلاف ذلك حيث يشير بوضوح أن السفن الخمسمائة كانت تنقل مجتمعة ثلاثين ألف جندي ، أغلبهم من المصريين والأيونيين ، وكذلك الصقليين،وقد تمّ تعيين قائد واحد على كل هذه السفن هو كالونيوميوس(Calonymus) من الإسكندرية ، أما السفن الحربية الاثنتان والتسعون فكان على متنها ألفا رجل من البيزنطيين ما بين مجذفين ومحاربين، إذ لا يوجد بينهم رجل واحد لا ضرورة له حسب تعبير هذا المؤرخ[٤].

هذا بالنسبة للاستعدادات العسكرية البيزنطية ، ولكن في الاتجاه الآخر ما هي القدرة العسكرية الوندالية ؟ وهل كانت على استعداد لصد أي هجوم أو حملة مفاجأة من قبل البيزنطيين ؟

بالنظر إلى العدد الإجمالي للوندال فإن بعض الباحثين يكادون أن يجمعوا على أن عددهم عند دخولهم إلى شمال أفريقيا ٨٠،٠٠٠ شخص، بما فيهم الأطفال والنساء[٥]، لكن بعد مضي أكثر من قرن على وجودهم في هذه البلاد لا توجد دراسات واضحة تبين عدداً دقيقاً وصل إليه الونداليون في هذه الفترة .

---

(١) الدرمونز نوع من الطريدة السريعة ، ينظر : السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ص ٤١ .

(2) **Bel Khodja,K. et Autres.,op .cit.,pp .248 – 249; Jean _ Claude Cheynet., op.cit.,p.33.**

(3) **Procopius, Hist.War.,III .XI.13 - 16; Raven ,S.,op.cit.,p.210 .**

(٤) يرى أحد المؤرخين أن ما حملته السفن الخمسمائة كان ٢٠،٠٠٠ جندي و ١٠،٠٠٠ من المشاة و ٥٠٠ – ٦٠٠ فارس ، علاوة على ٢٠٠٠ مجذف كانوا على متن ٩٢ سفينة مقاتلة ، ينظر :

Diehl ,C., Just. Civi .Byz .,p.174 .

(٥) حول عدد الونداليين عند دخولهم الشمال الأفريقي، ينظر الفصل الأول من البحث.

علـى أن عـدد الجـيش الونـدالي الـذي كـان تحـت حكـم جليمـر يتـراوح مـا بـين ٣٠،٠٠٠ – ٤٠،٠٠٠ مقاتـــل ، ولـــم يكـــن الونـــدال حينـــذاك يتمتعـــون بـــنفس صـفاتهم القتاليـة التـي عرفـوا بهـا فـي بدايـة تكـوين مملكـتهم بسـبب السـنين الطويلـة مـن الرخـاء والتـرف [١]. وفتـرة السـلام النسـبي بيـنهم وبـين البيـزنطيين منـذ زمـن الإمبراطور زينون والملك الوندالي جيزريك .

فـي ظـل المشـاكل الداخليـة التـي كـان الونـدال يواجهونهـا قـام جليمـر بإرسـال كتيبتـين عسـكريتين قوامهمـا خمسـة آلاف جنـدي ونـدالي علـى مـتن مائـة وعشـرين سـفينة مـن سـفنه الحربيـة لقمـع الثـورة التـي انـدلعت فـي سـردينيا بقيـادة قـوداس، ولقـد عَيّن جليمـر أخـاه تـزازون (Tzazon) قائـداً عامـاً لهـذه الحملـة[٢]. ولقـد سـبب هـذا الإجـراء الـذي اتخـذه جليمـر ضـعفاً واضـحاً فـي قـوة الونـدال الدفاعيـة لصـد أي هجـوم خـارجي لا سـيما بعـد أن عـزم البيزنطيـون علـى إرسـال حملـتهم في منتصف عام ٥٣٣ م.

ثالثا: تحـرك القوات البيزنطية نحو الشمال الأفريقي

أبحـرت القـوات البيزنطيـة بقيـادة القائـد بليزاريـوس مـن القسـطنطينية فـي ٢٢ يونيـو عـام ٥٣٣ م، بعـد أن باركهـا رئـيس أسـاقفة القسـطنطينية ابيفـانيوس[٣] (Epiphanius) ، وقـد كـان برفقـة بليزاريـوس فـي هـذه الحملـة زوجتـه انطونينـا (Antonina)،ومستشـــاره ورفيقـــه الشخصـــي المـــؤرخ بروكوبيـــوس (Procopius)، إضـــافة إلـــى رئـــيس حرســـه الخـــاص ســـولومون (Solomon) الخصـــي، وكـان هـؤلاء يسـتقلون سـفينة القيـادة نـافيز برايتوريـا[٤] (Navis

---

(1) **Kaddache,M., op.cit.,p.٢١4 ;**

السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق، ص ص ٤١ – ٤٢ .

(2) **Procopius , Hist.War.,III .XI. 23 - 24 ; Pavy ,A.,op.cit.,p.2٥0 ;**

شارل اندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ٣٥٦ .

(٣) عبد القادر أحمد اليوسف ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٥٥ ؛ أسمت غنيم ، مرجع سابق ، ص ٣٥ ؛ **Kaddache,M., op.cit.,p. 213 .**

(٤) إبراهيم علي طرخان ، شمالي أفريقية والوندال ٤٣٩ – ٥٣٤ م ، ص ص ١٤٧ – ١٤٨ .

. (Praetoria

إن حركة الأسطول البيزنطي من البسفور إلى جزيرة صقلية تميزت بالعديد من التوقفات ، ولم يتم الوصول إلى الساحل الأفريقي إلا بعد حوالي ثلاثة أشهر، وفي أثناء التحرك أظهر بليزاريوس حزماً وصرامة في إدارة شؤون جنده، ففي أبيدوس الواقعة على ممر الدردنيل عاقب بليزاريوس جنديين من الهون كانا قد سكرا وقتلا زميلاً لهما بأن قتلهما بالخازوق ، ثم خطب في جنوده محذراً إياهم من عواقب السكر والعربدة ، وكان لهذا الخطاب الأثر الكبير في نفوسهم ، حيث امتنعوا عن تعاطي الخمور خوفاً من العقاب [١] . ثم تحرك الأسطول إلى بحر إيجة ، ومنه توجه إلى سواحل البيلوبونيز فانضمت إليه هناك فرقة عسكرية أخرى[٢].

واصلت القوات التحرك حتى اضطرت للتوقف في ميثون (Methone)، بسبب عدم هبوب الرياح وأُنزل الجيش بأكمله على الشاطئ، لكن سرعان ما تعرض إثر ذلك لحادث خطير ، وهو تفشي المرض الذي أهلك كثيراً من الجند[٣].

ويرجع سبب هذا المرض إلى تعفن الخبز الذي كان يحمله الجيش البيزنطي معه ويُحمّل بروكوبيوس هذا المرض برمته إلى القاضي جون الكابدوكي ، بعد أن اتهمه بسرقة أوزان الخبز ودفع رواتب قليلة للخبازين ، الذين أساءوا صنع عجينة الخبز وطريقة تحضيره الجيد ، ومما زاد الأمر سوءًا هو المُناخ الحار في فترة الصيف الذي ساعد على تفشي المرض ، وقد أدى هذا المرض إلى قتل عددٍ ليس بأقل من خمسمائة جندي ، وكان يمكن أن يزداد لولا أن بليزاريوس منع تناول الخبز وطلب التزود بخبز البلد المحلي[٤].

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ص ص ٤٢ – ٤٣ .

(٢) نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، ص ١١٧ .

(3) **Pavy,A.,op .cit .,pp. 260 – 261;**

السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق، ص ٤٣ .

(4) **Procopius, Hist.War.,III .XIII.12 - 20 ; Raven,S., op.cit., p. 210 .**

لــم يمــض وقــت طويــل علــى نــزول البيــزنطيين ميثــون حتــى أمــر القائــد بليزاريــوس بضــرورة التحــرك بسـرعة إلــى صــقلية ، وعلــى الـرغم مــن التـدابير التــي كــان يتخــذها هــذا القائــد دائمــاً لســلامة الجـيش البيزنطــي إلا أن ذلــك لــم يمنــع تعـرض هـذه الحملــة للكثيــر مـن الظـروف السـيئة،ففي أثنــاء سـيرهم إلــى صـقلية فسـدت الميـاه المخزنــة فـي السـفن ، وكانـت سـفينة بليزاريـوس هـي السـفينة الوحيـدة التــي احتفظـت بكميـات كبيـرة مـن الميـاه الصـالحة للشـرب بسـبب مهـارة زوجتـه انطونينــا التــي خزنــت الميــاه فــي القــوارير الزجاجيــة وأبقتهــا فــي وضــع جيــد رغــم المسـافة الطويلـة مـن زاسـينثوس (Zacynthus) إلـى كاتنيـا (Catane)[١].

يبـدو واضـحاً أن بليزاريـوس رغـم كـل المخـاطر التـي تعـرض لهـا ومـا عانتـه قواتــه مـن مشـاكل عديـدة كـان مصـمماً علـى تحـرك الجـيش بسـرعة كبيـرة وسـرية تامـة حتـى يـتمكن مـن مفاجـأة الونـدال ، وعـدم إعطـائهم فرصـة لاتخـاذ احتياطـات من شأنها أن تضر بالبيزنطيين .

علــى أيــة حــال وصــل الأســطول البيزنطــي إلــى صــقلية بعــد ســتة عشــر يومــاً مــن انطلاقــه مــن القســطنطينية ورســت الســفن فــي الجــزء التــابع للقــوط الشــرقيين علــى بعــد عــدة أميــال مــن ســيراكوزا (Syracuse)، وكــان الونــدال قــد تنــازعوا علــى جــزء كبيــر مــن صــقلية أيــام حكــم أدواكــر لإيطاليــا ، واحتفظــوا بجــزء صــغير مــن الجزيــرة كقاعــدة للــدفاع عــن شــمال أفريقيــا ، ولقــد أدرك بليزاريــوس أن القــوط الشــرقيين لا يفكــرون فــي مســاعدة الونــدال ، بــل علــى العكــس ســمحت ملكــتهم أمالاســندا (Amalasunda) ، بشــراء مــا يلــزم القــوات البيزنطيــة مــن المــؤن والعتاد من صقلية [٢].

شــكلت جزيــرة صــقلية بعــد نــزول القــوات البيزنطيــة عليهــا قاعــدة رئيســة للعمليــات العســكرية للبيــزنطيين ، ونقطــة انطــلاق ضــد الونــداليين ســيما بعــد الــدعم

---

(1) **Bury, J.B.,History of the Later Roman Empire:from the death of Theodosius I to the death of Justinian ,Vol.II, New York ,1958,p.129 .**

(٢) عبد الحفيظ محمد علي ، مرجع سابق ، ص ٩٢ ؛ نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، ص١١٧ ؛ **Pavy,A., op .cit.,p. 261 .**

الـذي تلقتـه القـوات البيزنطيــة مـن القـوط الشـرقيين ، بسـبب عـداء هـؤلاء للونـدال أيضاً .

ويـذكر بروكوبيـوس[١] فـي هـذا السـياق ((حالمـا نـزل بليزاريـوس إلـى الجزيـرة بـدأ يشـعر بـالقلق ، وهـو يجهـل كيـف يمكنـه متابعـة التحـرك ... متسـائلاً أي نـوع مـن الرجـال سـيحارب ؟ ومـا مـدى قـوتهم فـي الحـرب ؟ وبـأي طريقـة يجـب علـى الرومــانيين أن يشــنوا الحــرب وأي مكــان ســيكون القاعــدة لعمليــاتهم العســكرية ؟ ولكــن أكثــر شــيء أقلقــه هــم الجنــود الــذين كــانوا فــي فــزع شــديد مــن المعــارك الحربية ...)).

إن هـــذه التســـاؤلات الكبيـــرة التـــي طرحهـــا بليزاريـــوس حســـب مـــا يقـــول بروكوبيــوس، وفــي هــذا الجــو المشــحون بــالخوف والقلــق اتضــح وبشــكل جلــي أهميـة هـذه المرحلـة التـي أصـبحت فيهـا القـوات البيزنطيـة علـى المحـك للـدخول في حرب مباشرة مع الوندال .

ونظـراً لصـعوبة هـذه المرحلـة فـإن بليزاريـوس آثـر عـدم التغريـر بقواتـه، وبـدأ فــي جمــع المعلومــات والأخبــار عــن تحركــات الونــدال، ولقــد أرســل مــن أجــل ذلــك مستشــاره بروكوبيــوس إلــى ســيركوزا ليــرى إذا كــان لعــدوه أي ســفن فــي مكــان مــا على الجزيرة، وأي مكان في شمال أفريقيا سيكون الأفضل للرسو[٢].

عنــدما وصــل بروكوبيــوس إلــى ســيراكوزا التقــى بأحــد أصــدقائه القــدامى، والـذي كـان علـى اطـلاع بشـؤون الونـدال، وعـرف منـه معلومـات مهمـة تمثلـت فـي أن الونــداليين، قــد أرســلوا بعــض قــواتهم لإخمــاد الثــورة التــي نشــبت فــي ســردينيا بقيــادة قــوداس وأنهــم غيــر مــدركين تمامــاً للحملــة البيزنطيــة الموجهــة إلــيهم،علاوة

(1) **Procopius, Hist. War.,III .XIV.1 -2.**

(٢) كـان أخطـر المشـاكل التـي تواجـه القـوات البيزنطيـة هـو تخـوف الجنـود البيـزنطيين مـن الونـدال، والـذين لـم يخجلـوا _ حسـبما يـذكر بروكوبيـوس _مـن القـول بـأنهم إذا نزلـوا علـى الأرض سـيثبتوا لأنفسـهم أنهـم رجـال شـجعان فـي المعركـة، ولكـن إذا هـاجمتهم السـفن المعاديـة سـيلوذون بـالفرار، لأنهـم لا يقـدورن علـى الوقـوف فـي وقـت واحـد ضد عدوين: الرجال والمياه، ينظر :

Procopius, Hist .War.,III .XIV.2-3.

على أن جليمر كان مشغولاً مع بعض قواته في بيزاكيوم [(١)] .

بعد أن جمع بليزاريوس هذه المعلومات المهمة أعطى أوامره للجنود بأن يركبوا السفن الشراعية، ويتجهوا نحو مالطا (Malte) ، وتم العبور دون مشاكل، حيث استطاع الجيش إخضاع جزيرتي قوزو (Gozzo) وكومينو (Comino)، حتى وصل الأسطول في النهاية إلى جزيرة مالطا[(٢)] .

في أوائل شهر سبتمبر عام ٥٣٣ م، وبعد قرابة الثلاثة أشهر على انطلاق الحملة البيزنطية من القسطنطينية وصل الأسطول البيزنطي بعد نزوله في مالطا إلى الساحل الأفريقي عند رأس كبوديا(Ras Kaboudia) على بعد ١٠٠ كيلو متر جنوب حضرموت (Hadrametum) مدينة سوسة[(٣)] .ولقد كان الرومان يسمون هذا المكان بلغتهم (رئيس السرب) إذ أن اسمه هو كابوتفادا[(٤)](Caputvada) .

لكن الوصول إلى الساحل الأفريقي كان يعني أن الحرب مع الوندال قد أصبحت وشيكة ، فهل كان بليزاريوس يعي خطورة هذا الموقف ؟ وما هي التدابير والخطط التي وضعها ضد خصمه ؟.

قبل نزول بليزاريوس وجيشه إلى البر عقد مجلساً حربياً على سفينة القيادة ضم كبار ضباطه ومستشاريه ، وناقش معهم خطط الهجوم على قرطاجة[(٥)] ، أما بشأن النزول على الشاطئ أو مواصلة تحرك الأسطول نحو قرطاجة ، فكان رأي البعض مثل آركيلاوس (Archelaus) كبير المستشارين) أن الحملة يجب عليها أن تسير بعرض البحر حتى تصل في

---

(1) **Bury , J.B.,op.cit.,pp.129 – 130 ;**

مبارك بن محمد الميلي، مرجع سابق، ص ٣٦٣؛عبد القادر أحمد اليوسف، الإمبراطورية البيزنطية، ص ٥٥.

(2) **Pavy,A.,op.cit.,p.262 .**

(٣) شارل اندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ٣٥٧ ؛

Lot,F.,op.cit.,p.282 ; Kaddache,M., op.cit.,p.٢١٤ .

(4) **Procopius , Hist .War.,III .XIV.17 ; Diehl, C., Afr. Byz .Hist.,p.18.**

(٥) إبراهيم علي طرخان ، شمالي أفريقية والوندال ٤٣٩ – ٥٣٤ م ، ص١٤٨.

النهايــة إلــى بحيـرة تـونس التــي بإمكانهــا أن تعطــي الجـيش كلــه مكانــاً مناسـباً للاسـتجمام ، وكـان هـذا الـرأي مبنيـاً علـى المسـافة البعيـدة التـي مازالـت أمـامهم للوصـول إلـى قرطاجـة وغيـاب أيـة مـواني مريحـة ومضـمونة علـى كـل الشـاطئ الـذي يريـد الجـيش الوصـول إليـه، وكـان هـذا الـرأي يمثـل الكثيـرين فـي هـذا المجلـس[١] أمـا الـرأي الآخـر الـذي يـرى ضـرورة النـزول علـى الشـاطئ ومواصـلة تحـرك الجـيش عـن طريـق البـر فقـد فكـان يتماشـى مـع رأي القائـد بليزاريـوس ، حيـث يـذكر بروكوبيـوس[٢] أن بليزاريـوس بعـد سـماع آراء مستشـاريه قـال لهـم ((... إذا أبحرنـا بالفعـل إلـى قرطاجـة وواجهنـا أسـطولاً معاديـاً فلـن يلقـي علـى الجنـود لـوم إذ لاذوا بـالفرار بكـل قـواتهم ... بالنسـبة لـي إذاً فـإني أقـول أنـه ينبغـي لنا أن ننزل على الأرض بأسرع ما يمكن)).

اتخــذت القــوات البيزنطيــة فــور نزولهــا مكــان معســكرها الــذي أحاطتــه بـالحواجز والخنـادق، وتـم هـذا العمـل فـي سـرعة كبيـرة ، وفـي يـوم واحـد ، وكـان هـذا المعسـكر بـالقرب مـن بئـر مـاء كافيـة لتمـوين الجنـود وخيـولهم ، ولقـد قضـى بليزاريـوس ليلتـه الأولـى علـى السـاحل للراحـة وكـان يتـولى الحراسـة علـى كـل سفينة خمسة عشر جنديًا من رماة السهام[٣].

مـن ضـمن الإجـراءات التـي اتخـذها بليزاريـوس بعـد نزولـه علـى السـاحل هـو معاقبـة بعـض جنـوده لمـا قـاموا بـه مـن نهـب وسـلب لـبعض المحاصـيل ، وكـان قـواد الفـرق يحـذرون الجنـود مـن حـين لآخـر مـن أي سـلوك مـن شـأنه أن يؤلـب السـكان المحليـين ضـدهم[٤]. كـان موقـع كابوتفـادا الـذي نـزل فيـه

---

(1) **Pavy,A., op.cit.,p.262 .**

(٢) حـول الخطـاب المطـول الـذي ألقـاه بليزاريـوس علـى ضـباطه ومستشـاريه ، والـذي وضـح فيـه مخـاطر وصـعوبات مواصـلة التحـرك عـن طريـق البحـر إلـى قرطاجـة ، وكيفيـة إقنـاعهم بضـرورة النـزول والخطـط والتـدابير اللازمـة لتأمين هذا النزول يُنظر :

Procopius , Hist .War.,III .XV.18 – 36 .

(٣) إبراهيم علي طرخان ، شمالي أفريقية والوندال ٤٣٩ – ٥٣٤ م ، ص ص ١٤٨ – ١٤٩ .

(4) **Raven,S.,op.cit.,p.210 ;**

عبد الحفيظ محمد علي ، مرجع سابق ، ص ٩٤ .

البيزنطيون يبعد حوالي ١٦٢ ميلاً عن قرطاجة[١]، ولما عزم القائد بليزاريوس الانطلاق من هذا الموقع والتوجه إلى قرطاجة، نظم صفوف جيشه وأمر الأسطول البيزنطي السير بالقرب من الساحل ليحادي تحرك الجيش على البر، ولقد وضع ٣٠٠ فارس تحت قيادة جون الأرميني ليتقدم الجيش على الجانب الأيمن في حين أمر قوة من ٦٠٠ هوني بالمسير بنفس المسافة . قرابة ٣ أميال . على يسار الطريق لحماية البيزنطيين من هذا الجناح[٢].

تجدر الإشارة إلى أن تحركات القائد بليزاريوس، والتي تنم عن الاحتراس الشديد من الونداليين وسرعة التنقل من موقع إلى آخر للوصول إلى قرطاجة يبدو أنها كانت مدروسة بإحكام، وتعطي تصوراً بأنه كان ملماً بجغرافية المنطقة، وعلى خلفية عسكرية جيدة أيضاً.(ينظر الخريطة رقم٤)

كانت أولى المدن التي استولى عليها البيزنطيون هي مدينة سيليكتوم (Syllectum) أو سيليكتا (Selekta) دون أي مقاومة أو حرب بل تم أخذها بالخدعة والحيلة، إذ كان المشرف على الخيول الوندالية فيها قد سلم المدينة بما فيها من خيول لبليزاريوس الذي كافأه على ذلك بكمية من الذهب، كما سلمه نسخة من رسالة الإمبراطور جستنيان إلى زعماء الوندال ليقرأها عليهم[٣].

كان نص الرسالة موجهًا بعناية إلى مناهضي حكم جليمر وهو على النحو التالي: ((إننا لا نستهدف الدخول في حرب مع الونداليين ونخترق معاهدتنا مع جيزريك ، نحن فقط نسعى لإسقاط المستبد بكم الذي ينقض معاهدة جيزريك ويبقي ملككم سجينًا وقتل أقرباءه الذين يكرههم ، وغيّب البقية في ظلمات السجون ولم ينجح بإنهاء معاناتهم بالموت ، لذلك انضموا في سبيل تحرير أنفسكم من مستبد شرير جداً ، ومن أجل تمتعكم بالحرية

---

(١) موقع كابوتفادا يكاد يتوسط بين مدينتي صفاقس وتونس ينظر :
Lot ,F.,op.cit.,p.282.

(2) **Bury,J.B.,op .cit.,p.130 .**

(٣) إبراهيم علي طرخان ، شمالي أفريقية والوندال ٤٣٩ – ٥٣٤ م ، ص ١٤٩.

والسلام، ونعطيكم العهد والميثاق باسم الله بأننا سنمنحكم هذه البركات))(١).

ويبدو واضحاً من خلال هذه الرسالة التي حاول بليزاريوس إذاعتها بين قادة الوندال استقطاب أكبر عدد منهم إلى جانبه ضد جليمر ، كما يمكن أن توضح الرسالة أن البيزنطيين أرادوا الحصول على تأييد الأفارقة(٢) ، والسكان المحليين ، وإنهم ما أتوا إلا لتخليص المنطقة من هذا الطاغية(٣).

على الرغم من التعويل الكبير من قبل البيزنطيين على إذاعة هذا المنشور الإمبراطوري بين قادة الوندال فإن الموظف الوندالي الذي أُوكلت إليه هذه المهمة قد اكتفى بإطلاع أصدقائه عليه سرًا ، وبالتالي لم تحدث هذه الرسالة أي تأثير يُذكر(٤).

بعد الاستيلاء على مدينة سيليكتوم واصل الجيش البيزنطي تحركه شمالاً، وقد حظي بالإمداد والمؤن من السكان مقابل ما قدموه من أموال في كل مدينة يدخلونها(٥) .وكان من ضمن تلك المدن الساحلية التي دخلها البيزنطيون دون قتال مدينة لبدة الصغرى(٦) ، وهي مدينة لمطة(٧) ، ومدينة

---

(1) **Bury,J.B.,op .cit.,p.130 .**

(٢) يقصد بالأفارقة هم سلالة الرومان الأوائل الذين بقوا تحت حكم الوندال ، ولقد كان بليزاريوس يذكّر ضباطه وجنوده بأنهم يكرهون الونداليين أشد الكراهية ، كما كان بليزاريوس على اتصال بهم ويطمئنهم بين الفينة والأخرى بأنه جاء ليحررهم من نير الوندال ، ينظر :

Moderan, M.,op.cit.,p.219 .

(٣) محمد محي الدين المشرفي ، مرجع سابق ، ص ١٣٥ ؛ عبد القادر أحمد اليوسف ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ص ٥٥ – ٥٦ ؛

Pavy,A.,op.cit.,p. 263 .

(٤) عبد الحفيظ محمد علي ، مرجع سابق ، ص ص ٩٤ – ٩٥ .

(5) **Raven,S.,op.cit.,p.210 .**

(٦) ربما التبس الأمر على أحد المؤرخين المحدثين بأن هذه المدينة هي مدينة لبدة الكبرى في إقليم طرابلس ، ورأى كذلك أن بليزاريوس قد نزل في طرابلس في أقصى الشرق ، ينظر : محمود محمد السيد ، مرجع سابق ، ص ٥١ .

(٧) حول دخول مدينة لبدة الصغرى (لمطة) ينظر : أحمد بن عامر ، تونس عبر التاريخ منذ أقدم العصور إلى إعلان الجمهورية ، ط١ ، مكتبة النجاح ، تونس ، ١٩٦٠ م ، ص٧٧ ؛ محمد على دبوز ، مرجع سابق ، ص ٤٤١ .

حضر موت (Hadrumetum) سوسة ، حتى وصلوا إلى مكان يسمى غراس (Grasse) ، وكان يوجد في ذلك المكان قصر للونداليين ومتنزه هو الأكثر جمالاً من كل المتنزهات التي عرفها البيزنطيون(١) ، وهذا المكان يُسمى الآن بسيدي خليفة(٢).

في أثناء ليلة التوقف في غراس اشتبك جنود الاستطلاع البيزنطيون مع مفرزة من القوات الوندالية، وبعد تبادل القتال بينهما وتراجعت كل فرقة إلى معسكرها، اتضح لبليزاريوس بأن عدوه على مقربة منه، وإن كان الواقع يظهر أن جليمر في ذلك الوقت يتبعهم ويتحين الفرصة للانقضاض عليهم(٣).

كان البيزنطيون بمنأى عن أي صدام مع القوات الوندالية منذ نزولهم في رأس كبوديا ، وحتى وصولهم إلى منطقة غراس ، ولكن هذا الصدام الذي حدث في غراس أظهر للطرفين أن الحرب بينهما أصبحت وشيكة ، وبدأ كل منهما يستعد لملاقاة الآخر .

رابعا: الحرب بين البيزنطيين والوندال

١ .معركة ديكيموم (Decimum)

حالما سمع جليمر في هيرميون(٤)(Hermione) ، بأن العدو كان على وشك الوصول ، كتب إلى أخيه أماتاس (Ammatas)، في قرطاجة بأن يقتل هيلدريك وكل أعوانه ، وأمره أن يهيىء الونداليين وغيرهم ، ممن كانوا في المدينة القادرين على حمل السلاح ، لكي يتم الإطباق على البيزنطيون من الجانبين عندما يصبحوا داخل الممر الضيق في ضاحية المدينة المسماة

---

(1) **Procopius, Hist .War., III .XVII.8 – 10 .**

(2) **Bury, J.B. ,op.cit. ,p.131 .**

(3) **Idem.**

(٤) لا يعرف شيء عن هذه المدينة سوى أنها كانت في إقليم بيزاكيوم جنوبي تونس على بعد أربعة أيام من السفر بالبحر ، وكانت فيها أكبر قوة وندالية تحت قيادة جليمر في انتظار حملة مرتقبة على إقليم طرابلس، ينظر :

Pavy,A.,op.cit.,p. 26٥ .

ديكيموم[1](Decimum). وهذا المضيق هو مضيق سيدي فتح الله الواقع على بعد خمسة عشر كيلو متراً في الجنوب الغربي من تونس العاصمة[2].

إن قيام جليمر بقتل هيلدريك جاء رداً على شروط الاستسلام التي عرضها بليزاريوس عليه ، والتي لم تكن لترضيه، لذلك أقفل باب التفاوض مع البيزنطيين منذ البداية، وأفشل أي محاولة لهرب هيلدريك من سجنه وتعاونه مع البيزنطيين[3]. وبالفعل لم يتوان أماتاس في قتل هيلدريك وأيواقيس، أما هومر فقد مات قبل ذلك[4].

أما بالنسبة لتحركات الجيش البيزنطي فبعد تحركه من غراس ابتعدت الطريق عن الساحل ومرت من خلال نتوء جبلي ينتهي عند رأس بون (Cape Bon) ، وهنا افترق الجيش والسفن وأمر القائد بليزاريوس قائد أسطوله بعدم الرسو في قرطاجة بل البقاء على بعد ثلاثة أميال تقريباً في البحر إلي أن تصدر إليه الأوامر حتى تلاقت الطريق مع الساحل عند منطقة أد اكواس (Ad Aquas) ، التي تعرف الآن بحمام الأنف علي بعد ٢٣ ميلاً من قرطاجة[5].

بحلول اليوم الرابع (١٣ سبتمبر) ، وصل الجيش البيزنطي إلى ديكيموم ، وكان بذلك يدنو من قرطاجة عند الحد الأقصى الشمالي للمضيق الجبلي عند حمام الأنف على نتوء صخري لجبيل بو قرنيين(التلة ذات القرنين) وكان القائد جون الأرميني قد نزل مسبقاً في هذا الموقع في الوقت الذي كانت فيه قوة الهون على بعد عدة أميال لليسار من بو قرنيين ، ولم يكن

---

(١) تمثل ديكيموم المَعْلَم أو الميل العاشر من قرطاجة ، وهو المكان الذي وقعت فيه المعركة الأولى بين البيزنطيين والونداليين ينظر :

Procopius, Hist .War., III .XVII.11 .

(٢) شارل اندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ٣٥٨.

(3) **Raven,S.,op.cit.,p.211 ;**

نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، ص ص ١١٧ – ١١٨ .

(4) **Pavy,A .,op.cit.,p.26٥ .**

(5) **Bury, J.B.,op.cit.,p.131 – 132; Bel Khodja, K. et Autres .,op.cit.,p.249.**

عند بليزاريوس أدنى فكرة عن الخطة التي وضعها جليمر لإنهائه (١).

كـان تحـرك القـوات الونداليـة ، وكـذلك البيزنطيـة حتـى هـذا الوقـت يسـير وفقـاً لمـا خطـط لـه جليمـر ، بحيـث جعـل البيـزنطيين يتوجهـون إلـى منطقـة ديكيمـوم ، والتـي أرادها أن تكون ساحةً للحرب وموقعاً للقائه الأول مع البيزنطيين .

ومهمـا كـان الأمـر فـإن خطـة الونـدال كانـت تقضـي بخـروج أماتـاس مـن قرطاجـة فـي الوقـت المناسـب لإيقـاف تقـدم الجـيش البيزنطـي عنـد ديكيمـوم ، ثـم يـنقض جيبامونـدوس (Gibamundus)، ابـن أخ جليمـر علـى ميسـرة الجـيش البيزنطـي بقـوة تتـألف مـن ألفـي مقاتـل، فـي حـين يتـولى جليمـر بنفسـه ضـرب مـؤخرة هـذا الجـيش بمعظـم كتائـب الجـيش الونـدالي، وعلـى الـرغم مـن إحكـام هـذه الخطة ودقتها، فإن خطأً واحداً من جانب أماتاس كان سبباً في فشلها(٢).

ففـي نفـس اليـوم (١٣ سـبتمبر ٥٣٣ م)، الـذي وصـلت فيـه القـوات البيزنطيـة إلـى ضـربة السـيف بـالقرب مـن حمـام الأنـف ، وبينمـا كانـت فرقـة القائـد جـون الأرمينـي تسـتطلع المكـان ، وصـل أماتـاس مـع عـدد مـن فرسـانه لاستكشـاف مواقـع البيـزنطيين فـي سـيدي فـتح الله ، وقـد كـان وصـوله لهـذا الموقـع قبـل اسـتكمال ظهـور جحافـل الونـدال الأخـرى بـأربع سـاعات، وبـدلاً مـن أن يتراجـع فضّـل الاشـتباك مـع قـوات جـون الأرمينـي فلقـي حتفـه مـع مـن معـه بعـد قتـال عنيف(٣).

أثنـاء هـذه الأحـداث وصـلت قـوة الهـون إلـى سـهل الملـح (سـبخة السـيجومي) ، واشـتبكوا مـع قـوات جيبامونـدوس ، الـذي كـان يتحـرك شـرقاً باتجـاه سـيدي فـتح الله ، ومـع قلـة عـدد الهـون مقارنـة بهـذه القـوات فـإنهم اسـتطاعوا تحقيـق النصـر علـى الونـداليين(٤). أمـا جليمـر فإنـه مضـى بمعظـم قواتـه ، وهـاجم قلـب الجـيش البيزنطـي ومؤخرتـه ، وفقـاً للخطـة السـابقة ، وقـد تمكـن مـن اختـراق

---

(1) **Procopius , Hist .War.,III .XVII- XVIII.17 – 3; Bury,J.B. ,op.cit., p.132 .**

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ص ٤٥ – ٤٦ .

(٣) شارل اندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ٣٥٨ ؛

Diehl, C., Afr. Byz. Hist., p.21.

(4) **Bury ,J.B.,op.cit.,pp. 133 - 134 .**

صفوف البيزنطيين ، مما جعل موقف بليزاريوس فى حرج بالغ ، وبدلاً من أن يواصل جليمر عملياته العسكرية بملاحقة الفارين أو ضد فرقة جون الأرميني على مشارف قرطاجة لإحراز النصر النهائي ، فإنه انهار تماماً عندما شاهد جثة أخيه أماتاس فوقف باكياً أخاه فترة من الزمن[١].

لقد ضيع جليمر فرصة حقيقية بإلحاق الهزيمة بالقوات البيزنطية سواء قوات جون الأرميني أو قوات القائد بليزاريوس، وانكب على نفسه بالاهتمام بدفن جثة أخيه أماتاس[٢].

ويتعجب بروكوبيوس[٣]، كيف أن جليمر حول نصره إلى هزيمة بقوله:((إنني عاجز عن قول ما الذي حدث لجليمر لكي يتخلى طواعية عن النصر لأعدائه بعد أن حازه بيده ، فلو أنه قام بالمطاردة مباشرة فحتى بليزاريوس كما اعتقد لن يصمد أمامه ولخسرت قضيتنا خسراناً تاماً)).

في هذه الأثناء حشد بليزاريوس الهاربين،وتوجه بهم بسرعة إلى ديكيموم، حيث وجدوا الونداليين في حالة فوضى كاملة واشتبك القائد بليزاريوس معهم وأجبرهم على التقهقر غرباً باتجاه نوميديا وانتهت المعركة ليلاً[٤].

بعد هذه الهزيمة وفي اليوم التالي للمعركة تحرك بليزاريوس بجيشه إلى قرطاجة، ووجد كل شيء هادئاً، إذ ترك سكان المدينة أبوابها مفتوحة وأضاءوا الفوانيس طوال تلك الليلة، ولكن بليزاريوس لم يدخلها خوفاً من أن يكون قد وضع له كمين من قبل السكان أو الونداليين[٥] .

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ٤٧ ؛

Pehrson, J.D.R.,op.cit.,p.169.

(2) **Diehl ,C., Just .Civi .Byz .,pp. 174 - 175 ;**

شارل اندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ٣٥٩ .

(3) **Procopius, Hist. War.,III.XIX . 25 - 26 .**

(4) **Bury, J.B. ,op.cit.,p.135 .**

(٥) يشير أحد المؤرخين " إن البيزنطيين (حسب الرواية البيزنطية) قد عسكروا عند قرطاجة لمدة أسبوعين قبل أن يقتحموها دون مقاومة تذكر، وكان ذلك على أنغام وأفراح السكان الذين أضاؤا المدينة ليلة دخول الغزاة الجدد " وهذا في اعتقادي ليس صحيحاً حسب ما يؤكده العديد من المؤرخين إذ أن فترة الأسبوعين هي الفترة التي قطعتها القوات البيزنطية تقريباً منذ نزولها في رأس كبوديا حتى دخولها المدينة، ينظر : إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ط٢، ج١، دار الرشاد الحديثة، المغرب، ١٩٨٤ م، ص ٦٦ .

فـي اليـوم التـالي(١٥ سـبتمبر ٥٣٣م) ، وصـلت سـفن الأسـطول البيزنطـي إلـى مدينـة قرطاجـة وأزال السكان السلاسـل التـي كانـت تحمـي الميـنـاء ، وعرضـوا علـى الأسـطول البيزنطـي الـدخول، والـذي دخلهـا بالفعـل بعـد مـا دخلـت القـوات البيزنطية بقيادة بليزاريوس لها[١].

٢.احتلال قرطاجة وتجدد الصراع البيزنطي الوندالي

لقـد اعتبـر دخـول البيـزنطيين إلـى مدينـة قرطاجـة فـي يـوم ١٥ سـبتمبر عـام ٥٣٣ م يومـاً مكلـلاً بالنصـر ، والـذي طالمـا انتظـره البيزنطيـون ، إن لـم يكـن الرومان بشكل عام منذ دخول الونداليين لهذه المدينة عام ٤٣٩ م .

وعلـى الـرغم مـن الحـرص الشـديد الـذي أبـداه بليزاريـوس بعـدم التعـرض لسـكان المدينـة وممتلكـاتهم لأي أذى، واسـتقبال هـؤلاء السـكان لهـذا القائـد بـالفرح والتهليـل باعتبـاره فاتحـاً لا غازيـاً[٢]. إلا أن السـؤال الـذي يطـرح نفسـه هنـا دون أن تكـون هنـاك إجابـة شـافية يـدور حـول مـن هـم هـؤلاء السـكان؟، ومـا المغـزى الذي قصده بليزاريوس بدخول قرطاجة بهذا الشكل ؟.

ربمـا يكـون المسـعف الوحيـد بالإجابـة علـى هـذا السـؤال هـو المـؤرخ بروكوبيـوس[٣]. الـذي رافـق الحملـة منـذ انطلاقهـا حيـث يقـول: ((هنـاك (عنـد قرطاجـة) ذكـر بليزاريـوس الجنـود بـالحظ السـعيد الـذي أتـاهم لأنهـم أظهـروا اللطـف نحـو الليبيـين وحضـهم فعليـاً علـى المحافظـة علـى الوضـع الجيـد مـع أشـد الحـذر فـي قرطاجـة، لأن الليبيـين كـانوا رومـانيين فـي العصـور المبكـرة ، وقـد خضـعوا للونـداليين، علـى غيـر رغبـة مـنهم ... ولهـذا السـبب بالـذات دخـل الإمبراطـور فـي حـرب مـع الونـداليين ، ومـن الإثـم أن نجلـب الأذى للشـعب الـذي

---

(1) **Raven,S.,op.cit.,p.211;**

نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، ص ١١٨ .

(٢) محمـود محمـد السـيد ، مرجـع سـابق ، ص ص ٥١ – ٥٢ ؛ عبـد القـادر أحمـد اليوسـف ، الإمبراطوريـة البيزنطية ، ص ٥٦ .

(٣) يشـير بروكوبيـوس فـي هـذه الروايـة بوضـوح أن هـؤلاء السـكان هـم الليبيـون الـذين قُصـد بهـم وأولئـك الرومـانيون الذين ظلوا تحت الحكم الوندالي حتى مجيء البيزنطيين تحديداً ، ينظر :

Procopius, Hist.War.,III .XX.18 - 21 .

كانت حريته هو الدافع الذي من أجله باشرنا القتال ضد الونداليين بعد هذه العظة دخل قرطاجة)) .

وتجدر الإشارة هنا أن بروكوبيوس وصانعى القرار السياسي في بيزنطة قد نسوا أو تناسوا العنصر الوطني الذي يمثله السكان المحليون من قبائل الشمال الأفريقي ، وهذه المنطقة قد خضعت لاحتلال أجنبي هو الاحتلال الوندالي، ليتفق هذا الطرح مع مشروع ما يسمى بإعادة الاحتلال الروماني لشمال أفريقيا .

وأياً كان الأمر فإن الخطر الوندالي لم يحسم حتى ذلك الوقت، فبعد فرار جليمر إثر هزيمته في معركة ديكيموم مع ما تبقى له من قواته إلى مدينة بولا ريجيا[١](Bulla Regia). بدأ جليمر في جمع قوات جديدة وفي البحث عن حلفاء جدد يساعدونه ضد البيزنطيين، ولكن ملك القوط الغربيين في أسبانيا رفض التحالف معه أو تقديم أية مساعدة له، في حين أن زعماء القبائل المحلية التي تقطن موريتانيا وقفت على الحياد من هذا الصراع [٢].

كان من ضمن أولى اهتمامات جليمر أيضاً إرسال أخباره السيئة لأخيه تزازون، والذي كان على رأس الحملة الوندالية في سردينيا فاستدعاه على الفور، وبالرغم من النجاح الذي حققه تزازون بترسيخ سلطة الوندال في هذه الجزيرة إلا أنه قفل راجعاً مع عدد من قواته للانضمام إلى أخيه جليمر[٣].

كان أول نزوله بالساحل الأفريقي في رأس الحمراء التي تقع غرب عنابة ، ومن هناك أبحر إلى جبل قورا (Gorra)، حيث وصل بسرعة إلى بولاريجيا ليواصل مع أخيه زحفهما على قرطاجة[٤].

إن توجه جليمر نحو قرطاجة كان لاعتبارات عدة، إذ أنها أهم مدينة،

---

(١) تقع هذه المدينة في نوميديا ، وهي معروفة حالياً باسم حمام دراجي، ينظر: إبراهيم علي طرخان ، شمالي أفريقية والوندال ٤٣٩ – ٥٣٤ م ، ص ١٥٢ .

(٢) نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، ص ١١٨ .

(3) **Bury, J.B.,op.cit., p.136 .**

(4) **Pavy,A., op .cit., p.270 .**

وأقـوى الأمـاكن فـي شـمال أفريقيـا[١]. كمـا أن القـوات البيزنطيـة متمركـزة بشـكل أساسـي فيهـا لـذلك كـان حريـاً بجليمـر أن يسـتعيد هـذه المدينـة التـي تمثـل ثقـلاً سياسياً واستراتيجياً علاوة على أهميتها التاريخية الطويلة .

اسـتأنف جليمـر حربـه مـع البيـزنطيين بتحريـك قـوات مـن بولاريجيـا نحـو قرطاجـة ، ونجـح فـي ضـرب حصـار عليهـا وقطـع القنـاة العظمـى[٢] ، التـي كانـت تجلـب منهـا الميـاه للمدينـة[٣]. وقـد حـاول منـع المـؤن مـن الوصـول إليهـا ، وكـان يتمنـى أن تسـقط بالحصـار ، وأرسـل مـن يسـتقطب ولاء السـكان والجـيش الإمبراطـوري ، وقـد حقـق بعـض النجـاح فـي ذلـك ، حيـث وقـف الهـون فـي الجـيش البيزنطـي موقـف المتفـرج مـن الصـراع الـذي أصـبح وشـيكاً ، وبعـدها يهبـوا إلى مساعدة الطرف المنتصر[٤].

أمـام هـذا الوضـع السـيئ الـذي وضـعت فيـه القـوات البيزنطيـة تحـت الحصـار اضـطر بليزاريـوس للخـروج لملاقـاة القـوات الونداليـة خـارج قرطاجـة[٥] ، بعـدما أمنـت لـه تحصـيناته السـريعة لهـذه المدينـة ضـد الهجمـات التـي كـان يشـنها الونداليون[٦].

ويبـدو أن بليزاريـوس قـد عمـد إلـى سياسـة الهجـوم والعمـل المفـاجئ بتحـرك قـوة سـلاح الفرسـان فـي منتصـف شـهر ديسـمبر[٧] ، لمباغتـة الجـيش الونـدالي المعسـكر فـي مكـان يـدعى تريكامـاروم (Tricamarum) ، والـذي يبعـد نحـو ٣٠ كيلـومترًا عـن قرطاجـة[٨].وكـان يفصـل بـين الجيشـين وادٍ[٩]، عبـره القائـد

---

(1) **Diehl,C. , Just .Civi .Byz .,p.175 .**

(٢) كانـت ميـاه مدينـة قرطاجـة تجلـب مـن منطقـة زغـوان جنـوبي مدينـة تـونس حاليـاً ، ينظـر : أحمـد بـن عـامر ، مرجع سابق ، ص ٧٨.

(3) **Raven,S., op.cit.,p.211 .**

(4) **Bury, J.B., op. cit.,p.136 .**

(٥) عبد الحفيظ محمد علي ، مرجع سابق ، ص ٩٦ .

(٦) محمد محي الدين المشرفي ، مرجع سابق ، ص ١٣٧ .

(7) **Diehl ,C., Just . Civi .Byz. ,p.175; Bury, J.B.,op.cit. ,p.136 ;**

شارل اندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ٣٥٩ .

(8) **Lot, F.,op.cit.,p. 283 ; Bel Khodja ,K. et Autres. ,op.cit .,p.250 .**

(٩) هـذا الـوادي هـو وادي مجـردة ، الـذي يقـع علـى بعـد ٢٠ مـيلاً غـرب قرطاجـة ، ولقـد وقعـت معركـة تريكامـاروم

جـون الأرمينـــي علـــى رأس كوكبـــة مـــن الفرســـان ، وهــاجم الجـيش الونـــدالي ، لكـــن الـرد كـان عنيفـاً مـن تـزازون الـذي اسـتعان بقـوة مـن الجـيش التـابع للملـك جليمـر وأجبـر البيـزنطيين أن يتراجعـوا عـن الـوداي ، ومـع إعـادة الكـرة مـرة أخـرى بعـد تنظـيم الجـيش فـإن تـزازون أوقـف هجـوم البيـزنطيين واضـطرهم إلـى الرجـوع إلـى الضفة الأخرى من الوادي[١].

كانــت معركـــة تريكامـــاروم أعنـــف بكثيـــر مـــن المعركـــة الأولـــى ديكيمـــوم ، حيـث انهـزم فيهـا البيزنطيـون ثـلاث مـرات ، ولكـنهم كـانوا فـي كـل مـرة يتماسـكون لثبـات قائـدهم بليزاريـوس الـذي نجـح أخيـراً فـي اختـراق صـفوف الونـدال ، وقتـل القائد تزازون[٢].

بعـد الهزيمـة النكـراء التـي منـي بهـا الجنـود الونـداليون ومقتـل تـزازون هـرب جليمـــر مـــع بعـــض مـــن جنـــوده المقـــربين إلـــى موضـــع اســـمه مونـــت بابيـــا[٣] (Mount Papia) ، أو جبـل بـابوا[٤] (Pappua) ، علـى أطـراف نوميـديا وموريتانيـا ولقـد اسـتقبله سـكان هـذه المنطقـة ، وفتحـوا لـه المدينـة الرئيسـية عنـدهم وهي مدينة ميدوس[٥](Medeos) .

٣.نـهاية المملكة الوندالية في شمال أفريقيا

إن فـرار جليمـر مـن هـذه المنطقـة كـان محفوفـاً بالمخـاطر لا سـيما بعـد مـا تعـرض لـه مـن جـوع وبـرد فـي هـذه الجبـال بسـبب الحصـار ، الـذي أحكمـه عليـه القائـد الهيرولـي فـاراس (Pharas)، لأكثـر مـن ثلاثـة أشـهر[٦]. وكانـت هـذه

على أحد منحدراته ينظر :

Bury, J.B. ,op. cit. ,p.136 .

(1) **Pavy,A. ,op .cit.,p. 271.**

(٢) السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص ص٤٧ – ٤٨ ؛ عبد العزيز الثعالبي ، مرجع سابق، ص ٥٧.

(٣) عبد القادر أحمد اليوسف ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٥٦ .

(٤) اختلـف الـبعض فـي تحديـد هـذا الجبـل فقيـل جبـل ايـدوغ وقيـل جبـل النـاطور، علـى أنـه مـن المـرجح أن يكـون أحـد جبـال زواوة فـي المغـرب الأوسـط، ينظـر: مبـارك بـن محمـد الميلـي، مرجـع سـابق، ص ٣٦٣؛ محمـد محـي الدين المشرفي، مرجع سابق، ص١٣٧؛ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، مرجع سابق، ص ١٢٨ ؛

Diehl, C., Afr. Byz. Hist., p.26.

(5) **Pavy, A.,op.cit. ,pp. 272 – 273 .**

(٦) شارل اندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ٣٦٠ .

الفترة كافية لتبادل الرسائل بين جليمر والبيزنطيين، والتي كانت تحثه على الاستسلام وتعده بمعاملة حسنة من قبل الإمبراطور جستنيان في القسطنطينية(١).

في مارس عام ٥٣٤ م، استسلم جليمر للبيزنطيين بعد أن حصل على ضمانات منهم بحفظ حياته وأن يحظى بمعاملة محترمة(٢). ويرجع السبب المباشر لاستسلام جليمر حسب ما يذكره البعض(٣) إلى الموقف المؤثر الذي شاهده جليمر لاقتتال طفلين من أجل كسرة خبز، فأذعن مستسلماً.

نُقل جليمر بعد استسلامه مع العديد من الونداليين إلى القسطنطينية ، حيث توج ذلك نصر بليزاريوس، الذي أحرزه على الونداليين وعلى الرغم من محاولة الإمبراطور جستنيان تغيير مذهب جليمر الأريوسي فإن هذا الأخير رفض، ومع ذلك فقد منحه الإمبراطور أراضى وأملاك واسعة في غلاطيا (Galatia) بآسيا الصغرى(٤) .

بالنسبة للكنوز والتحف الفريدة ، التي جمعها الوندال من غاراتهم طوال المائة عام الماضية على روما وجزر البحر المتوسط فقد نُقلت بدورها إلى القسطنطينية بصحبة جليمر في ربيع عام ٥٣٤ م(٥) .

كان من ضمن تلك الكنوز بقايا ثمينة لتحف يهودية كان قد أخذها تيتوس (Titus) ، من بيت المقدس ونقلها إلى روما وظلت هناك حتى دخول جيزريك سنة ٤٥٥ م، لروما فكانت من ضمن ما نهب من كنوز هذه المدينة ، وعندما وصلت إلى أيدي جستنيان قام بوضعها في معبد سليمان

---

(١) عبد الحفيظ محمد علي ، مرجع سابق ، ص ٩٧ .

(2) **Diehl,C., Just. Civi .Byz .,p.175.**

(3) **Raven .S.,op.cit.,p.212 ;**

عبد القادر أحمد اليوسف ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٥٦ .

(4) **Procopius, Hist .War.,IV.IX. 13 – 14; Bury, J.B., op. cit.,p.138 ;**

نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، مرجع سابق ، ص ص ١١٨ – ١١٩.

(5) **Diehl ,C., Just. Civi .Byz. ,p.177 ;**

السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ٤٩ ؛ محمود محمد السيد ، مرجع سابق ، ص ٥٢.

(Solomon)، في القدس، ليضيع كل شيء بعد ذلك في زمن النبي محمد . صلى الله عليه وسلم . وأتباعه، [١]. حسبما يزعم هذا المؤرخ.

هذا الطرح لا يتفق مع الواقع التاريخي لتلك الفترة ، وتحديداً نقل الكنوز إلى معبد سليمان ، فقد كانت سياسة الإمبراطور جستنيان الدينية ، منذ توليه الحكم، جد صارمة تجاه اليهود، وبعد حركات التمرد التي كانوا يثيرونها بين الحين والآخر، تعرض اليهود لإجراءات مشددة وإلى تدمير كثير من معابدهم والانتقاص من حقهم[٢].

أما الأسرى الونداليون الذين نقلوا إلى بيزنطة فقدروا بعدد كبير وصل إلى نحو عشرين ألفاً[٣]. شكل منهم الإمبراطور جستنيان خمس فرق ضمن الجيش الإمبراطوري(نسبت إليه شخصياً ونـدالى جستنيان Vandali Justinian)،ووضعها على الحدود الفارسية إضافة إلى العدد الكبير من هؤلاء الأسرى الذين وضعوا في خدمة جيش بليزاريوس[٤].

لكن الونداليين الذين لم يقعوا في الأسر البيزنطي ظل مصيرهم مجهولاً فإما أنهم انصهروا مع شعوب شمال أفريقيا وإما أنهم قد هربوا إلى أسبانيا[٥].وربما حدث الأمران معاً بإنقسامهم.

خلاصة القول في هذا الموضوع إن استسلام جليمر هو الذي وضع حداً للعمليات العسكرية،والتي انتهت بالهزيمة الساحقة للونداليين، هذه الهزيمة كان من أسبابها سوء معاملة السكان المحليين والرومان،ووقوف زعماء القبائل المحلية على

---

(1) **Pavy, A.,op. cit.,pp. 273 .**

(٢) حول سياسة جستنيان الدينية تجاه اليهود ووضعهم في القوانين البيزنطية ايضا، ينظر :

Sharf, A.,Byzantine Jewry From Justinian to the fourth Crusade,London,1971 ,pp .19-36; Previté _Orton, C.W.,op.cit.,pp. 194 – 195 ;

السيد الباز العريني، مرجع سابق، ص ٩٩.

(٣) محمد علي دبوز، مرجع سابق، ص ٤٤١.

(٤) اتخذ جستنيان بعد احتلاله شمال أفريقيا لقباً جديداً، وهو(الوندالي الأفريقي Africanus Vandalicus) أي قاهر الوندال، وفاتح أفريقيا، ينظر: إبراهيم على طرخان، شمالي أفريقية والوندال ٤٣٩ – ٥٣٤ م، ص ص ١٥٣ – ١٥٤؛

Lot, F.,op.cit.,p.283.

(5) **Raven, S.,op.cit.,p.21٢.**

الحياد من الصراع البيزنطي الوندالي، علاوة على نزوع الوندال إلى حياة البذخ والرفاهية، لذلك فإن دولة الوندال قد سقطت لأسباب ذاتية في الغالب واختفت من التاريخ(١). وبذا انتهى العصر الوندالي الذي دام لأكثر من مائة عام(٤٢٩ – ٥٣٤ م)(٢)، ليبدأ عصر جديد هو العصر البيزنطي بكل إيجابياته وسلبياته على هذه المنطقة .

خامسا: علاقة البيزنطيين بالسكان المحليين

١. استكمال الاحتلال البيزنطي ومحدوديته

في أثناء فرار جليمر إثر انهزامه في المعركة الثانية تريكاماروم ، كانت القوات البيزنطية قد أخذت تستكمل احتلال ما تبقى من هذه البلاد ، حيث تقدمت إلى مدينة هيبوريجيوس ، واستولت عليها ، وعلى خزائن الوندال في هذه المدينة(٣). كما احتل البيزنطيون بعد ذلك جزيرة كورسيكا ، وفرضوا سيطرتهم على جزر البليار (ما يورقه ومينورقة) أيضاً(٤).

كان ضمن سياسة التوسع البيزنطية احتلال المنطقتين اللتين اشتعلت فيهما الثورة قبل انطلاق الحملة البيزنطية ، وهما إقليم طرابس وجزيرة سردينيا، حيث أرسلت تعزيزات عسكرية إلى بودنتيوس لتثبت سلطته في الإقليم، في الوقت الذي أرسلت فيه قوة بحرية بقيادة كيريل لاحتلال جزيرة سردينيا(٥).

أما على الساحل الغربي لشمال أفريقيا ، فقد احتل البيزنطيون قلعة سبتوم(٦)(Septum)، على مضيق جبل طارق في موريتانيا الطنجية ، وكذلك السيطرة على مدينة قيصرية (شرشال)، على ساحل

---

(1) **Bel Khodja,K.et Autres.,op.cit.,pp. 250 – 251;**

محمد محي الدين المشرفي، مرجع سابق، ص ١٣٨.

(2) **Oman, C.W.C., op.cti.,p.85.**

(٣) عبد الحفيظ محمد علي ، مرجع سابق ، ص ٩٧ .

(٤) نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، ص ١١٩ ؛ عبد القادر أحمد اليوسف ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٥٧ .

(5) **Sjostrom,I. , Tripolitania in Transition : Late Roman to Islamic Settlement With a catalogue of sites , Great Britain ,1993 , p.39; Pavy, A.,op.cit. ,p.273.**

(٦) هذه القلعة في مدينة سوتا (Ceuta)، وهي مدينة سبته حالياً في أقصى المغرب، ينظر: إبراهيم على طرخان ، شمالي أفريقية والوندال ٤٣٩ – ٥٣٤ م ، ص ١٥٢.

موريتانيا السيتفية، في حين ضعفت السلطة البيزنطية في المقاطعات الموريتانية الأخرى[١]. وبذلك تمت السيطرة البيزنطية المحدودة على شمال أفريقيا، وصرح الإمبراطور في هذا السياق قائلاً: ((إن الله بفضله قد وضع بين أيدينا أفريقيا وتوابعها)) كأنه كان مستغرباً من السرعة التي تمّ بها الاحتلال[٢]. هذا النجاح غير المتوقع ، لم يكن يمثل في رقعته الجغرافية سوى ما كان تحت سيطرة الونداليين على تلك المنطقة من قبل[٣].

إن الاحتلال البيزنطي لم يكن إلا احتلالاً محدوداً وجزئياً في هذه المرحلة ، إذ لم يشمل إلا إقليم طرابلس وبيزاكيوم والبروقنصلية ، وبعض الأجزاء الساحلية من نوميديا وموريتانيا، هذا علاوة على الكثير من الموانئ المهمة على الساحل الأفريقي وأهمها ميناء مدينة سبته عدا ذلك فإن الإمبراطورية البيزنطية قد فشلت في توسيع سيطرتها في المنطقة لا سيما في المناطق الداخلية لموريتانيا القيصرية والطنجية[٤].

يبدو أن محدودية السيطرة البيزنطية على هذه المناطق يعطي تصوراً واضحاً بأنها سيطرة انحصرت في المنطقة الساحلية لشمال أفريقيا ، واكتفت بالمراكز الحيوية المهمة في المواني ، والمدن الساحلية ، وهذا كله يقود إلى أنها كانت سيطرة جزئية ومحدودة حتى هذه الفترة .

ما تجدر الملاحظة إليه في هذا الصدد أن فترة الاحتلال الوندالي ، ومن بعده البيزنطي قد تميزت بانتصارات سهلة وسريعة على الحكام الأجانب، في حين أن تأكيد هذه الانتصارات في الواقع قد اصطدمت دائماً بالحكام المحليين ، وقد عمد كل محتل جديد على تشنيع سابقه لتكون له حجة قوية في دعواه أنه جاء ليحرر السكان المحليين[٥]. هذه الدعاية التحريرية قد دأب عليها كل

---

(1) **Bury, J.B. ,op.cit. ,pp. 137 – 138.**

(2) **Diehl, C., Just .Civi .Byz .,p.176 .**

(٣) محمد علي دبوز ، مرجع سابق ، ص ٤٤٢ .

(4) **Lot,F. ,op.cit.,p.283;**

موريس لومبارد ، الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى ، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٧٩، ص ٧٨.

(5) **Laroui ,A. ,op.cit.,p.68 .**

من الونداليين والبيزنطيين على السواء .

إن خطر المواجهة مع القبائل المحلية ، والتي تغلبت مرات عديدة على القوات الوندالية ، لم يتم التداول بشأنه في تلك المناقشات المطولة(١)، حول مشروع الاحتلال ، مما يوحي بأن خطر هذه القبائل لم يكن يشغل بال المسؤولين في الإمبراطورية آنذاك ، وهذا بالضبط ما يقود إلى تفسير النصوص التاريخية التي تعطي التبرير الرسمي لحرب (إعادة الاحتلال)(٢).

ومهما يكن الأمر فكما أن العرف السائد إذاك أن يرث المنتصر المهزوم سواء أرضه أو نساءه وخدمه ، فإن البيزنطيين بدورهم قد ورثوا إلى جانب ذلك المصاعب التي كانت تمر بها تلك البلاد ، وهي الانقسامات داخل الكنيسة ، والتمردات داخل الجيش ، والتنافس ، والأحقاد داخل الجهاز الإداري(٣). إضافة إلى المشكلة الكبرى والرئيسة ، وهي مقاومة السكان المحليين .

٢. بداية الصدام مع السكان المحليين

إن الترحيب الذي حظي به البيزنطيون من قبل السكان الرومان في المنطقة والولاء الذي أعطاه بعض زعماء القبائل المحلية للقائد بليزاريوس مقابل تأكيد واعتراف هذا القائد بسلطانهم وإهدائهم الصولجانات الفضية والمذهبة والأحذية الموشاة بالذهب والفضة ، والمبالغ الكبيرة من المال ، كل هذا سرعان ما بدأ يتبدد ويتلاشى بسرعة فائقة (٤) .

إذ بمجرد ما أبحر القائد بليزاريوس عائداً إلى القسطنطينية بأسراه وغنائمه ، تاركاً مسؤولية تولية الأمور إلى القائد الأرميني سولومون (Solomon) ، حتى اندلعت ثورتان خطرتان :ثورة ابيداس (Iabdas) ملك

---

(١) من الملاحظ أن خطر هذه القبائل قد ذكر ، وربما لمرة واحدة في تلك المناقشات التي ذكرها بروكوبيوس بالتفصيل في عرض رأي القادة العسكريين بشأن الحملة ، والذين أشاروا بوضوح لخطورتها ، وما تمثله من مجازفة بحياتهم ضد الونداليين والمغاربة معاً ، ينظر :

Procopius , Hist .War.,III .X.5-6.

(2) **Moderan, Y.,op.cit.,p. 218 .**

(3) **Laroui, A., op.cit.,p.68.**

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ٥٢ ؛

Kaddache, M.,op.cit.,p.86 .

جبال الأوراس في نوميديا ، وثورة الزعيم القبلي كوتزيناس (Cutzinas) ، الذي قدم من إقليم طرابلس صحبة إبله التي جعلت بالفعل رجاله المحاربين خطراً داهماً على بيزاكيوم(١) .

وهنا قد يُطرح السؤال مبكراً ، هل ثمة سيطرة فعلية للبيزنطيين على شمال أفريقيا ؟ هذا ما سوف يوضحه تسلسل أحداث هذه الفترة .

أخذت الثورات المحلية تطفو على السطح ضد الوجود البيزنطي منذ خروج بليزاريوس من المنطقة ، وكان يقود هذه الثورات زعماء وملوك الممالك المحلية التي بدأت تصطدم بالقوات البيزنطية ، هذه الممالك هي مملكة أوراس ، ومملكة النمامشة ، ومملكة قفصة ، ومملكة هوارة ، ولواته، ومملكة تالة ، ومملكة جدار(٢) . (ينظر الخريطة رقم٥).

يبدو واضحاً أن هذا التصادم الذي بدأ سريعاً بين الطرفين يرجع في حقيقته إلى النزعة التوسعية للقوات البيزنطية بالدرجة الأولى ، وإلى عدم احترام القادة البيزنطيين للاتفاقيات والعهود التي قطعها الإمبراطور جستنيان ، ومن بعده بليزاريوس لزعماء وسكان هذه المنطقة .

كانت أولى الثورات التي دخلت في صدامات مسلحة مع القوات البيزنطية هي الثورة التي قادها كوتزيناس في بيزاكيوم ، حيث استطاعت هذه الثورة والتي تمثل قبائل البدو الرحل أن تقضي على ضابطين بارزين من قوات البيزنطيين ، وهما أيجان (Aigan) ، ورفين (Rufin) . وقبل أن يندفع سولومون في أتون تلك الحرب عمل على تهدئة الأجواء فكتب إلى زعماء تلك القبائل الكبيرة يناشدهم السلام ، ويحذرهم من مغبة هذه الأعمال(٣) .

ولقد جاء رد هذه القبائل في رسالة مشحونة بالتهديد والوعيد ، وهو على النحو التالي: « لقد قدم لنا بليزاريوس ، وعوداً براقة مقابل اعترافنا بسيادة

---

(1) **Raven,S., op.cit.,p. 213 .**

(٢) محمد علي دبوز ، مرجع سابق ، ص ٤٤٧ .

(3) **Yanoski, J.," Précis de L`Histoire D`Africque Sous la domination Byzantine", Afrique Ancienne, Paris, Editions Bouslama _ Tunis ,p. 92 ;Pavy, A.,p.cit.,p.278 .**

الإمبراطـور جسـتنيان ، ولكـن الرومـان (أي البيـزنطيين) ، يريـدون أن يكونـوا أصـدقاء وحلفـاء دون أن يجلبـوا لنـا أي خيـر ، بـل العكـس مـا أتـوا إلينـا إلا بالمجاعـة... إن مـن خرقـوا الاتفاقيـات هـم مـن لا يفـون بوعـودهم ولـيس مـن يقطعون الأحلاف بعد أن رأوا الظلم بأعينهم ... »[١] .

تظهـر هـذه الرسـالة حالـة الاسـتياء التـي وصـلت إليهـا هـذه القبائـل ، مـن نقـض البيـزنطيين لعهـودهم ، إضـافة إلـى العامـل المهـم ، الـذي تُظهـره الرسـالة ، وهـو المجاعـة التـي ألمـت بهـذه القبائـل ، والتـي يُعتقـد أنهـا أصـابتهم فـي عـام ٥٣٥ م ، وكانـت دافعـاً قويـاً لتحـركهم باتجـاه المنـاطق التـي كانـت خاضـعة للبيزنطيين .

أمـام إصـرار هـذه القبائـل بقيـادة كوتزينـاس ، وعـدم قبولهـا دعـوة سـولومون للسـلام اضـطر هـذا الأخيـر للخـروج لهـم وإيقـاف تقـدمهم نحـو قرطاجـة، ولقـد كـان اللقـاء الأول بـين الطـرفين عنـد سـهل مامَّـا[٢](Mamma)، والـذي هزمـت فيـه القبائـل البدويـة ، وإن كـان بشـكل غيـر حاسـم[٣] . فلقـد تمكنـت القـوات البيزنطيـة فـي هـذه المعركـة مـن اختـراق حلقـة الجمـال، التـي يتحصـن وراءهـا البـدو الرحـل، وأخـذت فـي تقتـيلهم حتـى قيـل أن عـدد قـتلاهم وصـل إلـى العشـرة آلاف، فضلاً عن سبى عددٍ كبيرٍ من النساء[٤].

علـى الـرغم مـن هـذه الهزيمـة، عـادت القبائـل إلـى تجميـع قواتهـا مـن جديـد ضـد سـولومون ، واسـتطاعت هـذه المـرة أن تصـل إلـى مدينـة قرطاجـة ، وأن تلحـق بهـا شـيئا مـن التـدمير والخـراب ، وعنـد عـودة سـولومون إليهـا وجـدها علـى هـذه الحالـة فقـرر إنهـاء هـذه الثـورة بملاحقـة قـوات كوتزينـاس، والتـي وصـلت إلـى حافـة جبـل بورقـاون[٥] (Burgaon) ، بولايـة قسـنطينة قـرب تبسـة فهزمهـا

---

(1) **Kaddache, M.,op.cit. ,p. 225 .**

(٢) يقع هذا السهل بين سبيبه والقيروان ينظر : شارل اندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ٣٦٧ .

(3) **Bury, J.B. ,op.cit. ,pp. 142 – 143.**

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ٥٧ .

(٥) هذا الجبل يعتقد أن يكون جبل أبو غانم في الجزائر، ينظر: مبارك بن محمد الميلي، مرجع سابق، ص ٣٦٧.

للمـرة الثانيـة فـي بدايـة سـنة ٥٣٥ م[١] . وكانـت هـذه الهزيمـة كبيـرة جـداً حيـث وصـل عـدد القتلـى إلـى حـوالي الخمسـين ألفًـا . ولقـد اضـطرت العديـد مـن هـذه القبائـل إثـر هـذه الهزيمـة إلـى الانسـحاب إلـى جبـال الأوراس ، والـدخول فـي حماية الملك أبيداس[٢].

أطلقـت الهزيمـة التـي مُنيـت بهـا القبائـل البدويـة يـد سـولومون اتجـاه الأوراس مسـتغلاً حالـة العـداء التـي كانـت بـين أبيـداس مـن جهـة ، وماسـوناس (Massonas) ، و ورتايـاس (Ortaias) الزعيمـان المحليـان مـن جهـة ثانيـة، ورغـم دخولهمـا فـي الحـرب إلـى جانـب سـولومون ، لكـن هـذا الأخيـر لـم يـأمن جانبهما، ولم يحتمل في ذات الوقت صعوبات التموين والهجوم الكبيرة [٣] .

يبـدو أن سياسـة سـولومون فـي التركيـز علـى قمـع الثـورات المحليـة والتـي انـدلعت ضـد الوجـود البيزنطـي فـي المنطقـة ، قـد أدت إلـى إغفالـه الاهتمـام بشؤون القوات العسكرية البيزنطية ، التي كانت تحت إمرته .

ففـي أثنـاء الاسـتعدادات والتعزيـزات العسـكرية والماليـة ، التـي كـان يعـدها ضـد القبائـل _ فـي نوميـديا بشـكل خـاص _ نشـبت ثـورة عسـكرية خطيـرة داخـل الجـيش البيزنطـي ، كانـت أسـبابها متعـددة ومختلفـة[٤] ، علـى أن أهمهـا علـى الإطـلاق كـان راجعـاً إلـى تـأخر صـرف رواتـب الجنـود وتـذمرهم مـن التقسـيم غيـر العادل للغنائم ، فاختاروا قائداً لهم يدعى ستوتزاس (Stotzas)[٥].

لقـد انضـوى الثـوار مـع الجنـود النـاقمين علـى حكـم سـولومون تحـت قيـادة سـتوتزاس ، الـذي كـان عضـواً سـابقاً فـي الحـرس ، وزعيمـاً موهوبـاً بالخطابـة،

(1) **Pavy, A.,op .cit.,pp.279 .**

(2) **Yanoski, J., Pre.His. Byz.,p.92** .

(٣) شارل اندريه جوليان، مرجع سابق، ص ٣٦٧ ؛

Diehl, C., Afr. Byz. Hist., p.71.

(٤) سـيتم الحـديث عـن هـذه الفوضـى العسـكرية، وعـن أسـبابها ونتائجهـا ومـا ارتـبط بهـا مـن سياسـة الإمبراطوريـة البيزنطيـة بشـكل عـام فـي الفصـل الرابـع ، مـن خـلال موضـوع الصـعوبات التـي واجهتهـا المؤسسـة العسـكرية فـي شمال أفريقيا، أما في هذا المقام فإن الحديث سوف يقتصر على الخطوط العريضة لهذه الفوضى فحسب.

(5) **Bury, J.B.,op. cit.,p. 143 ; Jean Claude –Cheynet.,op.cit.,p.33 .**

فاستغل الاستياء العام لاكتساب النفوذ، والذي سرعان ما جذب إليه عدداً من الجيش وفلول الونداليين الذين دخلوا معه في خدمة القوات البيزنطية[١].

كانت هذه الفوضى قد اندلعت سنة ٥٣٦ م ، واستطاع ستوتزاس في هذه الظروف أن يكون جيشاً كبيراً ، وأن يتفاوض مع زعماء القبائل النوميدية للحصول على تأييدها ضد سولومون ، وما أن استقر لفترة وجيزة في سهل بولا ريجيا حتى توجه نحو قرطاجة ،الأمر الذي جعل سولومون يهرب إلى جزيرة صقلية ، والتي كان القائد بليزاريوس ، قد اتخذها قاعدة للعمليات العسكرية ضد إيطاليا[٢].

توجه بليزاريوس إثر سماعه هذه الأنباء بسرعة إلى قرطاجة ، ومع أن العدد القليل الذي كان معه فإن هيبته السابقة قد دفعت بالمتمردين للفرار إلى بولا ريجيا، بعدما كانوا محاصرين لمدينة قرطاجة، ولقد عمل بليزاريوس حتى ظفر بهم عند مجاز الباب(ممبراسا) (Membresa)، على وادي مجردة فهزمهم هزيمة نكراء وقضى على معظمهم[٣].

لجأ ستوتزاس إلى قازوفالا (Gazauphula) (قصر الصبيحي) ، بين قسنطينة والعين البيضاء وبقي هناك حتى رجع بليزاريوس إلى صقلية للقيام بمشروعه الجديد ، وهو احتلال إيطاليا ، ومع أن قائد القوات العسكرية في نوميديا مارسال (Marcelle) ، قد سعى للقضاء عليه، لكن الجنود البيزنطيين قاموا بتمرد جديد أدى إلي مقتل ضابطهم، وأدخلوا البلاد في فوضى عسكرية جديدة سنة ٥٣٧ م[٤].

تطلب الأمر جهودًا كبيرة من سولومون لقمع التمردات العسكرية ، والقضاء على الثورة التي نشبت في بيزاكيوم ، كما لقي صعوبات كثيرة لفرض سيطرته على إقليم الأوراس كل ذلك بطبيعة الحال أثار شكوكاً جديدة حول

---

(1) **Raven, S.,op. cit.,p. 213 .**

(2) **Bel Khodja, K. et Autres. ,op.cit.,p.256 .**

(٣) السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق ، ص ٥٩ ؛ أسد رستم، مرجع سابق ، ص ١٨٨ .

(4) **Pavy, A.,op.cit.,pp.2٨٠ .**

تلك الانتصارات التي حققها البيزنطيون من قبل[١].

لذلك فإن الإمبراطور جستنيان سرعان ما أجبر على التعاطي مع هذا الواقع ، فقام بإرسال أحد أقربائه إلى شمال أفريقيا ، وهو القائد جرمانوس (Germanus) ، الذي نجح في كسب تأييد بعض الضباط المتمردين وعددٍ كبيرٍ من الجنود إلى جانبه في سنة ٥٣٧ م[٢] . وكان الهدف الرئيسي من تعيين جرمانوس قائداً عاماً القضاء على ستوتزاس الذي عرقل حركة التوسع البيزنطية في المنطقة ، فخرجت قوات جومانوس لملاقاته ، واشتبكت معه في سكالاي فيتيريس[٣] (Scalae Veteres) ، بنوميديا فهزمت قوات ستوتزاس ، وفر هذا الأخير إلى موريتانيا إثر هذه المعركة [٤].

وعلى الرغم من أن سياسة الإمبراطورية البيزنطية قد نجحت في حماية الحدود والاحتفاظ بالسيطرة البيزنطية على هذه المناطق ، وإن كان بشكل نسبي ، فإنها لم تحقق سلاماً دائماً ومستقراً ، والدليل على ذلك تعدد القادة الذين تعاقبوا على الحكم في شمال أفريقيا زمن الإمبراطور جستنيان ، وكثرة الشقاق الذي وقع بين هؤلاء القادة وجنودهم[٥].

٣. سياسة سولومون في عقد السلام والتوسع

بعد عامين من تولى جرمانوس حكم شمال أفريقيا(٥٣٧ – ٥٣٩ م) والقضاء على الفوضى العسكرية،قام الإمبراطور جستنيان بإعادة تعيين القائد سولومون حاكماً جديداً على المنطقة، وكان هذا التعيين في عام ٥٣٩ م[٦].

باشر سولومون منذ توليه الحكم العمل على إنهاء أخطر أعدائه

---

(1) **Diehl, C., Just .Civi .Byz.,p.17٨ .**

(2) **Jean_ Claulde Cheynet.,op.cit.,p.33 .**

(٣) يحدد هذا المكان إما بنواحي تيفاش أو بجنوب قسنطينة ، ينظر : مبارك بن محمد الميلي ، مرجع سابق ، ص ٣٦٨ .

(4) **Yanoski, J. ,Pre. His.Byz .,p. 92 .**

(٥) إبراهيم على طرخان ، شمالي أفريقية والوندال ٤٣٩ – ٥٣٤ م ، ص ١٦٣ .

(٦) شارل اندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ٣٦٩ .

القدامى، وهي القبائل التي تسكن إقليم الأوراس تحت زعامة ابيداس ، والذي كان قد دخل معها في حروب طويلة أسفرت عن مهاجمة هذه القبائل في سنة ٥٣٤ م مدن لمباز وعين زازة وتيمقاد، وعندما تراجعت قبائل بيزاكيوم أمام القوات البيزنطية ، ودخلت في حماية ابيداس ، قام هذا الزعيم بإعطائهم أراضى في جهة تيمقاد ولمباز ، ثم زحف بهذه الجموع مع لفيف من قواته في جيش من ٤٠،٠٠٠ ألف مقاتل ، وتمكن في النهاية من السيطرة على مناطق التل ، في عام ٥٣٥ م[1].

كانت هذه الأحداث في فترة حكم سولومون الأولى (٥٣٤ – ٥٣٧ م) أما الآن فقد حرص هذا القائد على القضاء نهائياً على ابيداس ، فأرسل إليه جيشاً تحت قيادة أحد قواده الكبار في سنة ٥٤٠ م ، ولكن ما أن اقترب هذا الجيش من جبال الأوراس حتى حدث الصدام مع قوات ابيداس فلجأ الجيش البيزنطي إلى مدينة باغاي الحصينة ، ولولا حصانة هذه المدينة وإسراع سولومون بجيش قوي لفك الحصار لكان هذا الجيش قد أبيد بالكامل[2].

أخذ سولومون بعد ذلك زمام المبادرة بتعقب قوات ابيداس ، حيث تمكن من اختراق جبال الأوراس ، واحتلال مواقع عديدة فيها ، حتى وصل إلى مدينة تيمقاد ، وسيطر عليها ، ثم حاصر مدينة زيربولا (Zerbula) ، وكان من أهم المدن التي تم احتلالها مدينة تومار (Thumar) ، وهي مدينة حصينة ، ومحمية بصخور عالية، وهذا التقدم البيزنطي في الأوراس، قد أجبر ابيداس على الفرار إلى موريتانيا القيصرية[3].

كما استمر سولومون في استكمال السيطرة على بلاد الزاب والحضنة، ومدينة المسيلة التي أطلق عليها اسماً جديداً ، وهي جستنيانية تخليداً لذكرى الإمبراطور جستنيان[4]. ونجحت حملة سولومون ضد الأوراس نجاحاً كبيراً

---

(1) **Kaddache,M. ,op.cit.,pp. 215 – 216 ;**

عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، مرجع سابق ، ص ١٣٧.

(٢) محمد علي دبوز ، مرجع سابق ، ص ٤٤٨ .

(3) **Pavy, A. ,op.cit.,p.2٨١ ; Diehl, C., Afr. Byz. Hist.,p.89.**

(4) **Diehl, C. ,Just. Civi .Byz.,p.17٨ ;**

ودعم هذا النجاح بشبكة من الحصون والقلاع في المناطق التي احتلها مجدداً ، في قلب إقليم الأوراس وبنوميديا ، وكذلك موريتانيا القيصرية(١).

هكذا مثلت بداية فترة حكم القائد سولومون الثانية فترة استقرار سياسي وتوسعاً للسيطرة البيزنطية في البلاد(٢). ولكن إلى أي مدى بقي هذا الاستقرار السياسي ؟ وهل تأكدت السيطرة البيزنطية فعلاً ؟.

سادساً: ثورة القبائل المحلية الكبرى

كانت المرحلة السابقة من الصراع الوطني البيزنطي مرحلة اتسمت بالطابع الفردي للقبائل المحلية المقاومة ، حيث نجحت الإمبراطورية البيزنطية في تحييد ، واحتواء العديد من القوى الوطنية في حربها ضد الوندال أولاً ، ومن ثم مع بعض القبائل الوطنية الأخرى المقاومة ثانياً ، ومع أن سياسة الاحتواء هذه قد أتت أكلها في كثير من الأحايين إلا أنها تزامنت في نفس الوقت مع الفوضى العسكرية البيزنطية في المنطقة ليعطي ذلك كله هذه المرحلة سمة التذبذب وعدم الاستقرار بشكل عام .

١.بداية الثورة وأسبابها

إن الوضع تغير بشكل مفاجئ من حالة الهدنة التي دامت قرابة الخمس سنوات ليدخل في وضع متأزم، بعد أن وافق الإمبراطور جستنيان على تعيين ابن أخي سولومون المسمى سيرجيوس (Sergius) ،كدوق لإقليم طرابلس في عام٥٤٣ م(٣).

ويبدو من هذا التعيين أن الإمبراطور جستنيان ، قد عمل بسياسة المحظوظية القائمة على تعيين أولى القربة له ولقادته العسكريين ، دون النظر

مبارك بن محمد الميلي ، مرجع سابق ، ص ٣٦٩ .

(١) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ٦٢ ؛

Bury, J.B.,op.cit. ,p.145 .

(2) **Bel Khodja ,K. et Autres. ,op.cit. ,p.257 .**

(3) **Mattingly,D.J., « The Laguatan : A Libyan Tribal Confederation in the Late Roman Empire ». L .S, Vol.14, 1983, p.99 ; Sjostrom, I.,op.cit., p.40 .**

فـي عنصـر الكفـاءة لـديهم ، فقـد كـان هـذا القائـد فظـاً غليظـاً إلـى جانـب كونـه عـاجزاً يظـن أن تفوقـه علـى السـكان المحليـين يتجلـى فـي السـيطرة المطلقـة عليهم[1].

ويتضـح قصـوره السياسـي ، وفظاظـة تعاملـه بعـد اسـتلامه مهـام حكمـه مباشـرة فـي مدينـة لبـدة الكبـرى (Leptis Magna) ، بسـماحه لقواتـه بسـلب أراضي قبيلة لواته (Louata) ، القوية في إقليم طرابلس[2].

وقـد تعاملـت هـذه القبيلـة مـع هـذا الموقـف بإرسـال وفـد مكـون مـن ثمـانين شخصـاً مـن أعيانهـا ، لتقـدم الـولاء والمبايعـة للحـاكم الجديـد مقابـل مـنحهم الهـدايا والشـعارات المعهـودة ، التـي تمـنح للقبائـل اعترافـاً بسـلطتها مـن جهـة ، وعـرض اتهاماتهـا وشـكواها ضـد القـوات البيزنطيـة بنهـب وسـرقة محاصـيلها مـن جهـة ثانية[3] ، رغبة منها في تلبية هذه المطالب من قبل القائد سيرجيوس .

لكـن الـرد جـاء سـريعاً علـى هـذه المطالـب بقتـل جميـع هـؤلاء الأعيـان إلا واحـداً أفلـت مـن الحـرس البيزنطـي حسـب مـا يـذكر ، ونقـل النبـأ لأبنـاء القبيلـة الـذين كـانوا ينتظـرون خـارج المدينـة ، وقـد حـاولوا مهاجمـة المدينـة ، لكـنهم اصـطدموا مـع القـوات البيزنطيـة ، حيـث دارت المعركـة بيـنهم ، ثـم أعـادوا هجـومهم فـي نفـس اليـوم علـى البيـزنطيين ، فتمكنـوا مـن قتـل بودنتيـوس وأرغمـوا سيرجيوس على الانسحاب وراء أسوار المدينة[4].

ومـع أنـه مـن الصـعب معرفـة مـا إذا كانـت هـذه المذبحـة مـدبرة أم أنهـا حـادث عرضـى ، لكـن مـن المؤكـد أنهـا تسـببت فـي إشـعال ثـورة عارمـة مـن إقلـيم طرابلس إلى الأوراس[5].

---

(١) شارل اندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ٣٧٠ ؛ عبد العزيز الثعالبي ، مرجع سابق ، ص ٦١ .

(2) **Raven ,S., op .cit., p. 217 .**

(٣) د.ي . هاينز ، مرجع سابق ، ص ٧٧ ؛

Mattingly , D. J., Lagu . Lib.,p. 99 .

(٤) عبـد اللطيـف البرغـوثي ، التـاريخ الليبـي القـديم مـن أقـدم العصـور حتـى الفـتح الإسـلامي،ط١،دار صـادر، بيروت، ١٩٧١م ، ص ٤٦٩ .

(٥) د.ي هاينز ، مرجع سابق ، ص ٧٧ .

إن هـذه الحماقـة السياسـية التـي ارتكبهـا سـيرجيوس ضـد قبيلـة لواتـه تزامنـت مـــع الإهانـــة التـــي وجههـــا القائـــد ســـولومون للـــزعيم المحلـــي انتـــالاس[١] (Antalas). والــذي كــان قبــل ذلــك صــديقاً حميمــاً للبيــزنطيين[٢] ، حيــث أن ســولومون بعـد انتصــاراته علــى ابيــداس رأى أنــه لا فائـدة مـن مراعـاة انتـالاس، فقطـع عنـه الإعانـات الماليـة وأمـر بقتـل أخيـه فكـان رد فعـل هـذا الـزعيم علـى ذلـك الانضمام والتحالف مع قبيلة لواته ، في ثورتهم ضد البيزنطيين[٣] .

تجـدر الملاحظـة إلــى أنــه علــى الـرغم مـن خضـوع السـكان المحليـين فــي كثيـر مـن منـاطقهم للبيـزنطيين فـإنهم لـم يتخلـوا نهائيـاً عـن المقاومـة ، فلـيس هنـاك أيــة اتفاقيــة بمقـدورها أن تفـرض سـلاماً دائمــاً ، ولـيس هنــاك مــا يجعلهـم ينسـون الاســتقلال ، لا ســيما أنهــم يعلمــون أن الاتفاقيــات لــم تفــرض إلا فرضـــاً ، وأن الـرفض مـن قـبلهم لهـذه الاتفاقيـات هـو الـذي سـماه البيزنطيـون المحتلـون غـدر السكان[٤].

ويـذكر الشـاعر كوريبـوس فـي هـذا الصـدد أنـه وبعـد عشـرة أعـوام كاملـة مـن ولاء أنتـالاس وإخلاصـه للبيـزنطيين جـاءت المذبحـة التـي نفـذها القائـد سـيرجيوس فـي قبيلـة لواتــه لتوضـح سـخافة رأى هـذا القائـد وسـقم آرائـه ، والـذي أشـعل نيـران حـرب كانـت خامدة حتى ألقت العالم كله في فوضى تلك المذبحة على حد تعبيره [٥] .

علــى أن أهـم مـا يـذكره هـذا الشـاعر أن هـذه الحادثـة كانـت السـبب الرئيسـي فــي تعبئـة وتحريـك قبائـل شـمال أفريقيـا المعروفـة بخشـونتها للثـورة ضـد الحكـم البيزنطـي ، والتـي انضـوت تحـت قيـادة انتـالاس وأهمهـا قبيلـة فريكسـيس (Frexes) ، وتحـالف قبائـل لواتـه المعروفـة بكثـرة عـددها وقـوة بأسـها إضـافة إلـى

(١) هـو أحـد الزعمـاء المحليـين الـذي شـغلت مملكتـه المنطقـة الواقعـة فـي الشـمال الغربـي التونسـي ، والـذي اسـتطاع هزيمـة الونـدال فـي عـام ٥٣٠ م ، و عنـد مجـيء البيـزنطيين دخـل فـي سـلام معهـم قرابـة العشـر سـنوات ، يُنظـر : محمد الناصر النفزاوي ، مرجع سابق ، ص ٨٤ .

(2) **Bury, J.B.,op.cit., p.145 .**

(٣) شارل اندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ٣٧٠ .

(4) **Kaddache , M.,op.cit.,p. 222 .**

(٥) كوريبوس ، مصدر سابق ، ص ٤٦ .

قبائل استور (Austur) ، المشهورة أيضاً[١].

وأمام الحصار الذي ضربته قبيلة لواته على مدينة لبدة الكبرى أجبر سيرجيوس على الفرار بسرعة إلى مدينة قرطاجة[٢] ، ثم توجهت هذه القبيلة على الفور نحو بيزاكيوم ، حيث نهبتها وانطلقت تحت قيادة انتالاس إلى قرطاجة فاضطر سولومون إلى الخروج لهذه القبائل وملاقاتها خارج المدينة ، وبالفعل كان اللقاء الأول بين الطرفين في ضواحي تبسه ، لكن التفوق كان واضحاً لهذه القبائل[٣].

وعلى الرغم من التحالف الذي كان قائماً بين سولومون وكوتزيناس في هذه الحرب (بعد حالة العداء الطويلة السابقة بينهما) فإن جيش كوتزيناس يبدو أنه قد ربح معركة بالقرب من تبسه ، وكان قادراً على إنقاذ سولومون، الذي يواجه تحالف تلك القبائل إلا أن نصف جيش كوتزيناس رفض الدخول في معركة ثانية وامتنع عن التقدم ، لأنه لم يُسمح له باغتنام ما في ساحة المعركة[٤].

استمر سولومون في قتاله ضد تحالف القبائل حتى وصل ضفاف وادي حيدرة ، فالتقى الطرفان مرة أخرى في معركة سيليوم (Cillium)[٥] ، عام ٥٤٤ م ، والتي أسفرت في النهاية عن هزيمة البيزنطيين هزيمة كبيرة، بقتل

---

(١) للمزيد حول هذه القبائل ، وغيرها وكيفية استعدادها للحرب ، ينظر : كوريبوس ، مصدر سابق ، ص ص ٤٦ – ٤٩ ؛

Jerary , M.T., The Luwata : Prolegomena , Source Book and Preliminary Study(Doctor of philosophy History) , University of Wisconsin_ Madison , 1976, Libyan Studies Center , 1988 , pp. 30 – 31 .

(2) **Sjostrom , I.,op.cit., p.40** .

(3)**Pavy,A. ,op.cit., pp. 281 . 282 ; Mattingly , D .J., Lagu. Lib., pp. 98 – 99;**

مبارك بن محمد الميلي ، مرجع سابق ، ص ٣٦٩ ؛ محمد علي دبوز ، مرجع سابق ، ص ٤٤٩ .

(4) **Raven , S., op.cit., p. 217** .

(٥) وقعت هذه المعركة في سهل قصرين على ضفاف وادي حيدرة، ينظر :

Bel Khodja,K.et Autres., op . cit.,p. 257; Pavy, A., op.cit.,p. 282 .

القائد سولومون مع أغلب جنوده[١].

ولعل هذه الهزيمة الكبيرة التي مُنيت بها القوات البيزنطية تأتي تزامناً مع الصعوبات والإخفاقات العسكرية التي كانت تتعرض لها قوات الإمبراطورية البيزنطية في العديد من الجبهات .

فلقد اندلعت الحرب البيزنطية الفارسية من جديد عام ٥٤١ م ، بعدما دام السلام بين الطرفين لفترة طويلة ، ولم تتوقف الحرب بينهما إلا بعد عقد صلح لمدة خمسين سنة في عام ٥٤٤ م ، تعهد فيه جستنيان بدفع جزية سنوية كبيرة ، في الوقت ذاته كانت الصعوبات تواجه جيوش الإمبراطورية البيزنطية تحت قيادة بليزاريوس في إيطاليا . وربما كان هذا الوضع السيئ للقوات البيزنطية في العموم . وفي شمال أفريقيا بشكل خاص مما جعل ثيوديس (Theodes) ، ملك القوط الغربيين في أسبانيا (٥٣١ – ٥٤٨ م) ، يقوم بمحاولته الفاشلة للسيطرة على قلعة سبته في عام ٥٤٤ م[٢].

٢. موقف الإمبراطورية من ثورة القبائل المحلية

كان الوضع السياسي والاقتصادي الصعب الذي تمر به الإمبراطورية البيزنطية في هذه الفترة قد ألقى بظلاله على منطقة شمال أفريقيا لتدخل هي الأخرى في الفوضى والاضطرابات التي كانت تعصف بالإمبراطورية .

ويمكن تلمس التعثر السياسي والعسكري للإمبراطور جستنيان تجاه هذه الثورة من خلال الخطأ الفادح الذي ارتكبه بتعيين سيرجيوس حاكماً عاماً على المنطقة خلفاً لعمه سولومون ، والذي كان أضعف من أن يستطيع تحقيق أي سلام ، فقد كان مكروهاً من جيشه و من السكان على حد سواء ، إضافة إلى أن القبائل كانت قد أقسمت على الثأر الأبدي لمذبحة لبدة الكبرى[٣].

---

(1) **Bury, J . B., op.cit.,p.145 .**

(٢) محمود سعيد عمران ، مرجع سابق ، ص ص ١١٩ – ١٢٤ .

(3) **Raven , S.,op.cit., pp. 217 – 218 .**

ثـم لـم يلبـث أن ارتكـب الإمبراطـور خطـأً آخـر بتوليـة أريوبنـدوس[١] (Areobindus) ، شـريكاً للقائـد سـيرجيوس فـي القيـادة العامـة للجـيش مـع معرفتـه بكبـر سـنه ، وعـدم كفاءتـه مـن جهـة ، وإن الموقـف كـان يتطلـب قيـادة موحدة لمواجهة هذه الثورة من جهة ثانية[٢].

وفـي أثنـاء ذلـك كلـه كانـت قبيلـة لواتـه ، والقبائـل الخاضـعة تحـت قيـادة انتـالاس ، قـد انضـمت إلـى الحشـود الموريتانيـة المنضـوية ، تحـت قيـادة القائـد سـتوتزاس وأخـذت تتقـدم فـي زحفهـا حتـى تمكنـت مـن الاسـتيلاء علـى مدينـة حضـرموت ، واسـتمرت فـي زحفهـا شـمالاً حتـى إن العديـد مـن البيـزنطيين والسـكان المـواليين لهـم ، قـد هربـوا إلـى صـقلية ومالطـا وإلـى جـزر البليـار والقسطنطينية أيضاً[٣].

ويصـف كوريبـوس[٤] ، الحالـة المأسـاوية التـي أصـابت المنطقـة بقولـه : ((لقـد وضـعت أفريقيـا بأسـرها تحـت رحمـة المغاربـة الطغـاة ، وآ أسـفاه كـم كـان الحـزن مريـراً لـم تسـتطع أيـة قـوة أن تصـمد فـوق السـهول ، ولـم يسـتطع أي جنـدي أن يـدافع عـن الأسـوار المحيطـة بالمـدن ، وبسـخط مـن الله أصـبح كـل شـيء عرضة للسلب والنهب)) .

علـى أيـة حـال فـإن قيـادة الجـيش البيزنطـي ، قـد قسـمت بـين سـيرجيوس و أريوبنـدوس فأشـرف سـيرجيوس علـى جـيش نوميـديا فـي حـين أشـرف أريوبنـدوس علـى جـيش بيزاكيـوم ، لكـن التنسـيق كـان معـدوماً بينهمـا ، بـل سـعى كـل منهمـا إلـى إحبـاط وإفشـال الآخـر ، فعنـدما تعـرض جـيش أريوبنـدوس لمواجهـة قـوة

---

(١) كـان هـذا القائـد مـن القـادة الأرسـتقراطيين ، وعلـى صـلة قرابـة بـالإمبراطور جسـتنيان ، حيـث كـان متزوجًـا مـن ابنة أخته برايجيكتا ، يُنظر :

Jerary, M.T.,op. cit., p. 22 ; Bury, J.B.,op.cit.,p.146 .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ص ٦٣ – ٦٤ .

(3) **Pavy, A.,op.cit.,p. 2^2;**

إبراهيم حركات ، مرجع سابق ، ص ٦٩ .

(٤) كوريبوس ، مصدر سابق ، ص ٨٠ .

القبائل، رفض سيرجيوس تقديم المساعدة والعون فمني هذا الجيش بهزيمة كبيرة في ثاكيا (Thacia) ، ببرج مسعودي بين تبرسق والكاف أواخر عام ٥٤٥ م(١). ومع أن هذه الهزيمة كانت قاسية للقوات البيزنطية إلا أنها أسفرت في الوقت ذاته عن مقتل العدو التقليدي للبيزنطيين، وهو القائد ستوتزاس(٢).

إن سياسة جستنيان في شمال أفريقيا كانت من الواضح أنها سياسة تخبط مستمر تتأرجح بين أمرين اثنين هما : الإقالة والتعيين لقادته العسكريين ، وفاقدة أي معالجة صحيحة قادرة على إخراج البلاد من حالة الفوضى والثورات التي تمر بها ، ولم تتوقف قط .

في خضم هذه الفوضى استدعى الإمبراطور جستنيان سيرجيوس إلى القسطنطينية ، وسلم مقاليد الحكم في شمال افريقيا إلى أريوبندوس ، الذي أظهرأنه غير قادر على إخماد الثورة في المنطقة، حيث تحشدت قوات القائد ستوتزاس في بيزاكيوم، وابيداس بمنطقة الأوراس معقل ثورة القبائل المحلية(٣). وفي نفس الوقت تدخل قائد القوات البيزنطية في نوميديا القائد جونثاريث (Gunthrith) ، لإسقاط حكم أريوبندوس ، واتصل سراً مع قادة وزعماء القبائل ، ومع بداية عام ٥٤٦ م تمكن من قتل أريوبندوس واستلام مقاليد الحكم في قرطاجة(٤).

كان مقتل القائد أريوبندوس بهذه الطريقة وتعاون جونثاريث مع القبائل ، قد أثار حفيظة وسخط العديد من البيزنطيين لما مثلته هذه العملية من طابع الخيانة عندهم ، ولذلك لم يمض في حكمه سوى ستة وثلاثين يوماً حتى تعرض لطعنة بسيف قتل على أثرها من أحد ضباط الجيش البيزنطي وهو

---

(1) **Bury, J.B.,op.cit.,p.147 ;**

شارل اندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ٣٧١ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .

(3) **Bel Khodja, K. et Autres.,op.cit,.p. 258 ;**

عبد اللطيف البرغوثي ، التاريخ الليبي القديم ، ص ٤٧٠ .

(4) **Yanoski , J., Pre . His. Byz.,p. 93 ; Raven ,S., op.cit.,p. 218 .**

أرتابـان (Artabane) ، والـذي كـان صـديقاً لأريوبنـدوس ، ومـع أن أرتابـان تمكـن مـن اعـتلاء أعلـى سـلطة فـي الـبلاد وحصـوله مـن ثـمّ علـى موافقـة الإمبراطـور ببقائـه فـي هـذا المنصـب إلا أنـه رفـض الاسـتمرار فـي منصـبه وعـاد بسرعة إلى القسطنطينية(١).

هكـذا كـان الوضـع الحـرج بالنسـبة للبيـزنطيين يسـير مـن سـيء إلـى أسـوأ، فـي ظـل حكـم ولاة ضـعاف سـرعان مـا تعـرض بعضـهم لاغتيـالات مـن ضـباط بيـزنطيين(٢)، ولعـل مـا يصـفه كوريبـوس(٣)، يؤكـد خطـورة المرحلـة التـي تمضـي بـالوجود البيزنطـي إلـى الهاويـة، حيـث يشـير: ((هكـذا فـإن أفريقيـا التـي كانـت تهلـك مـن جـراء ذلـك الخـراب الوبيـل ولا تجـد النصـير الـذي يثـأر لهـا، انحـدرت إلى الهاوية)).

فـي الجانـب الآخـر كانـت القبائـل المحليـة تحقـق نجاحـات كبيـرة علـى الأرض، ويبدو أن هذه النجاحات، قد جاءت نتيجة طبيعية لتوحد القوى الوطنية من جميع قبائل الشمال الأفريقي من إقليم طرابلس شرقاً إلى موريتانيا غرباً مروراً ببيزاكيوم وأفريقية، ونوميديا، وهذا ما يؤكد أن القاسم المشترك الذي كان يجمع هذه القوى هو الدعوة إلى الاستقلال بطرد هذا الغازي الجديد.

مما تقدم يتضح أن الحملة البيزنطية على شمال أفريقيا عام ٥٣٣م لم تمثل في حقيقتها إلا بداية اكتشاف جديد للمنطقة من قبل البيزنطيين، وإن عدم دراسة دور القبائل من الإمبراطورية البيزنطية قد أكد هذه الفرضية، وعلى ذلك يبدو أن حكومة القسطنطينية لم تأخذ الثورات التي يمكن أن يثيرها السكان بعين الاعتبار(٤).

٣. دور القائد جون ترو جليتا في القضاء على الثورة

كان على الإمبراطورية البيزنطية متمثلة في شخص الإمبراطور جستنيان وكبار

---

(1) **Pavy,A.,op.cit.,p. 2٨3 ;**

د. ي . هاينز، مرجع سابق، ص ٧٧ .

(٢) مبارك بن محمد الميلي، مرجع سابق، ص ٣٦٩؛ عبد القادر أحمد اليوسف، الإمبراطورية البيزنطية، ص ٥٧ .

(٣) كوريبوس، مصدر سابق، ص ٩٠ .

(4) **Moderan,Y.,op.cit.,p.228.**

مستشاريه اتخاذ تدابير احترازية من شأنها أن تثبت الوجود البيزنطي الذي أصبح مهددا بالانهيار أكثر من أي وقت مضى.

وكانت هذه التدابير والإجراءات تكاد تنحصر في اختيار شخصية قادرة على إعادة ولو بعض النجاحات التي حققها البيزنطيون من قبل، فمن هي هذه الشخصية المؤهلة لهذا المنصب وما هي الخطوات الناجحة لتحقيق أهداف البيزنطيين في المنطقة؟.

لقد وقع اختيار الإمبراطور على القائد جون ترو جليتا(John Troglita) لتولي منصب القيادة العامة في شمال أفريقيا[١]وكان هذا القائد قد شغل منصب القيادة الأعلى منزلة على قادة الجند المشاة في الحملة التي قادها بليزاريوس على المنطقة في عام ٥٣٣م[٢].وقد ظل قائداً لفرقة المشاة في عهد بليزاريوس وجرمانوس وعندما وقع عليه الاختيار كان لا يزال يقاتل في الجبهة الشرقية ضد الفرس عند أسوار نصيبين (Nisibe) في بلاد الشام[٣] .

بعدما استدعى الإمبراطور هذا القائد من تلك الجبهة أمره على الفور بمغادرة القسطنطينية مع حامية عسكرية مدعمة بفرقة من الفرسان للتوجه إلى قرطاجة والتي وصلها مع نهاية عام ٥٤٦م، وبقى فيها مدة كافية لتجميع قواته وإعداد العدة للحرب[٤].

إن أولى الخطوات التي اتخذها القائد جون تروجليتا تجاه القبائل المحلية هي دعوتها إلى السلام وكان القائد انتالاس أول المستهدفين بالدخول في هذه التهدئة فبعث إليه بالقائد البيزنطي امانيتوس(Amantius) ليبلغه تعليمات الإمبراطور جستنيان

---

(1) **Diehl, C.,Just.Civi.Byz., p.179 ; Yanoski, J., "Appendice A L`Histoire D`Afrique sous la Domination Byzantine" Afrique Ancienne , Paris,Editions Bouslama-Tunis,p. 97**.

(٢) يذكر بروكوبيوس أن هذا القائد كان من السكان الوطنيين لأبيدامنيوس (Epidmnus) وهي التي تسمى في زمن بروكوبيوس ديراتشيوم (Dyrrachium) يُنظر :

Procopius, Hist.War.,III.XI.٨.

(3) **Pavy,A.,op.cit.,p.283 ; Yanoski, J., Pre.His.Byz.,p.93.**

(٤) السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص ٦٥ ؛ د . ي هاينز، مرجع سابق، ص ٧٧ .

ويؤكد له أنهم على استعداد تام للحرب،لكن استعراض فرص إقرار السلام ما زالت ممكنة[١].

ويذكر كوريبوس[٢] أن رد انتالاس قد جاء بكلمات مريرة في رسالة مفادها أنه(أي انتالاس) لطالما كان صديقاً للبيزنطيين وتصرف على الدوام لصالحهم،ونفذ أوامرهم وأنه ظل مخلصا للسلام معهم، غير أنه يشكك الآن في هذا السلام خاصة بعد مقتل أخيه قواريزيلا(Guarizila)على يد أحد القادة البيزنطيين، وإن هذا السلام والصلح مفروض بقوة السلاح، لينهي رسالته بأنه قرر الصدام والحرب مع البيزنطيين مرة أخرى.

كان من الطبيعي أمام هذا التصلب في الرد أن يستعد القائد جون تروجليتا لقتاله وقتال القبائل الثائرة معه والتي كانت قد استحكمت في سهول وجبال تونس الوسطي بحشود كبيرة من النوميديين وبعض المتحالفين من الرومان تعززها حشود لواتية واستورية قدمت من إقليم طرابلس[٣].

على أن أهم ما تجدر الإشارة إليه هو أن الفشل في تحقيق السلام مع انتالاس قد قابله نجاح كبير في تحييد وربما الأحرى تحالف حظي به القائد جون مع بعض الزعماء الكبار من القبائل المحلية مثل ابيداس ملك الأوراس، وكوتزيناس زعيم بيزاكيوم[٤] إضافة إلى افيسدايوس(Ifisdaius)أحد أمراء القبائل بنواحي الأوراس[٥].وبذلك فإن هذا النجاح كان عاملاً مهما في تقسيم وحدة القبائل والسكان المحليين والذي استغله هذا القائد أيما استغلال[٦]. على أثر هذه الخطوات المهمة للقائد جون توجه على وجه السرعة لملاقاة قوات انتالاس والزعماء المتحالفين معه والذي كان من أهمهم زعيم قبيلة لواته آرنا[٧] (Ierna).

---

(١) كوريبوس، مصدر سابق، ص ص ٩٢-٩٣ ؛

Yanoski, J.,App.His. Afr.,p.98.

(٢) كوريبوس ، مصدر سابق ، ص ص ٩٤-٩٥ .

(٣) عبد اللطيف البرغوثي ، التاريخ الليبي القديم ، ص ٤٧٠ .

(4) **Raven,S., op.cit.,p.219 .**

(٥) مبارك بن محمد الميلي ، مرجع سابق ، ص ٣٦٩ ؛

Yanoski,J., App.His. Afr.,p.98.

(٦) إبراهيم علي طرخان ، شمالي أفريقية والوندال ، ٤٣٩-٥٣٤ م، ص١٦٢ ؛ محمد محي الدين المشرفي ، مرجع سابق ص ١٤٤.

(٧) حول هذه الأحداث والاستعدادات والخطط التي وضعها انتالاس مع قادة القبائل الأخرى لمجابهة البيزنطيين ، يُنظر ،

في بداية عام ٥٤٧م التقي الطرفان في معركة كبيرة بين سوسة واسبيطلة وانتهت بهزيمة انتالاس هزيمة نكراء استرد تروجليتا على أثرها كل مدن بيزاكيوم[١] كما تمكن من استرجاع رايات وألوية حرب الجيش البيزنطي في زمن القائد سولومون، وعمل على توسيع ساحة القتال حتى وصل إلى حافة الصحراء جنوباً[٢].وعلى الرغم من فشل تروجليتا في القضاء على انتالاس فإنه استطاع أن يقضي على أهم الزعماء المحليين الذين دعموا انتالاس في حربه ضد البيزنطيين وهو الزعيم الطرابلسي ايرنا في منطقة سبيطلة[٣].حيث قتل في هذه الموقعة وهو يحاول إنقاذ تمثال إله قبيلة لواته الثور قورزيل[٤] (Gurzil).

٤. حرب ترو جليتا ضد كاركاسان وانتالاس.

بعد عودة تروجليتا إلى قرطاجة واستقباله استقبال المنتصرين على أعدائه من القبائل المحلية سرعان ما ظهر أن هذا الانتصار سابق لأوانه، فقد نشبت بعده بأشهر قليلة . أي بعد منتصف صيف عام ٥٤٧م . ثورة جديدة في منطقة إقليم طرابلس بعدما نجح كاركاسان(Carcasan)[٥] في إعادة لم شتات أتباع الزعيم ايرنا وفي كسب تأييد قبائل النسامونيس والجرامنت، وقام بهجوم خاطف على ساحل المنطقة ثم واصل حملته في اتجاه الشمال الغربي نحو قرطاجة، لكن تروجليتا أوقف زحف كاركاسان واجبره على التوجه نحو الدواخل بنواحي شط الجريد[٦].

من الواضح أن هذا التحالف القبلي الكبير الذي كان تحت قيادة كاركاسان قد

كوريبوس ، مصدر سابق ، ص ص ١٠٢ وما بعدها .

(١) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ٦٦؛

Yanoski, J., App.His. Afr.,p.9٩.

(٢) كانت رايات الجيش البيزنطي قد غنمها انتالاس عندما استطاع هزيمة البيزنطيين وقتله القائد سولومون في عام ٥٤٤ م يُنظر :

Pavy,A.,op.cit.,p.283.

(3) **Bel khodja,K., et Autres., op.cit.,p.259.**

(4) **Yanoski ,J., App.His. Afr.,p.9٩.**

(٥) من المرجح أن هذا القائد هو زعيم قبيلة الناسامونيس الليبية في منطقة سرت ، وقد دارت حوله النبواءت بأنه سوف يحتل مدينة قرطاجة . يُنظر كوريبوس ، مصدر سابق ، ص ص ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٩٠ ؛

Jerary,M,.T., op.cit.,p.44.

(٦) عبد اللطيف البرغوثي ، التاريخ الليبي القديم ، ص ص ٤٧٠ . ٤٧١ .

ضم قبائل عديدة على طول الساحل الأفريقي من قرطاجة غرباً إلى خليج سرت شرقاً،إضافة إلى اشتراك قبائل الجرامنت في عمق الصحراء جنوباً مع هذا التحالف.

لعل هذا التحالف الواسع النطاق هو ما جعل كوريبوس[١]يتعجب لكثرة القبائل التي انضوت فيه ودخلت الحرب به ضد البيزنطيين،حتى تساءل في استغراب.من كان يستطيع حينذاك أن يعرف أسماء القبائل أو أعدادها ؟ لكثرتها بطبيعة الحال .

أما بالنسبة لتروجليتا الذي حقق بعض النجاح على هذه القبائل فقد أراد مطاردة كاركاسان وقواته في الصحراء، لكن جنوده امتنعوا عن مواصلة التقدم بسبب ما لحقهم من تعب وإرهاق من حرارة الصيف الحارقة ، لذلك لم يجد بداً من الانصياع لرغبة الجيش فتوجه نحو قابس ، وفي الطريق إليها انقضت قوات كاركاسان على مؤخرة الجيش البيزنطي بالقرب من ماريث (Mareth) وكبَّدته خسائر فادحة ، وإثر هذه الهزيمة قاد تروجليتا بقية قواته إلى يونجا (Yonga) للتحصن بقلعتها من خطر القبائل المحلية[٢].

هذا الوضع السيئ للقوات البيزنطية تطلب من تروجليتا تغيير سياسته تجاه هذه القبائل المقاتلة، فبعدما كانت سياسته قائمة على الهجوم وملاقاة الأعداء بعيداً عن قرطاجة أصبحت الآن سياسة الدفاع والاستدراج هي التي تفرض نفسها لصد قوات القبائل المتوجهة إلى العاصمة[٣].

كانت أولى خطوات القائد تروجليتا لتدارك الموقف التقهقر وراء حصون مدينة لاريبوس[٤](Laribus)، والعمل على جمع قواته وتنظيمها من جديد للقتال ، كما نجح في أثناء ذلك في إثارة بعض القبائل ضد الأخرى ، وضمن تخلي وانفصال القائدين

---

(١) كوريبوس ، مصدر سابق ، ص ص ١٣٥-١٣٦ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص ص ٦٦ .٦٧ .

(3) **Yanoski,J., App.His.Afr., p.101.**

(٤) هي أقوى مدن منطقة نوميديا ومحاطة بالغابات الواسعة، وقد تم إصلاح جدرانها بأوامر صادرة من الإمبراطور جستنيان يُنظر :

Procopius, Hist.War.,IV.XXII,18-20, IV.XXVIII.48-49; Yanoski, J.,App.His.Afr.,p.101.

ابيداس وافيسدايوس عن باقي قبائل الأوراس المقاومة(١).

ويبدو أن خطوات كهذه كانت كفيلة لتروجليتا بإعادة تنظيم جيشه وتجديد الحرب مع القبائل المقاومة، فبعد انقضاء فصل الشتاء وبداية فصل الربيع عمل البيزنطيون على استئناف الحرب مجدداً مع هذه القبائل التي تحالف معها العدو اللدود للبيزنطيين في تلك الفترة، وهو القائد انتالاس الذي أعاد من جديد هجوماته العسكرية في حدود منطقة قرطاجة(٢).

لقد تحددت المعركة حسب ما يذكر كوريبوس(٣) بعدما غادرت القوات البيزنطية المنطقة الساحلية ، وأقامت في معسكرها في حقول كاتو(٤) (Cato) ليكون هذا الموقع ساحة للحرب بين الطرفين .

في هذه الأثناء كانت خطة كاركاسان وزعماء القبائل المتحالفة معه تسعى للانقضاض على البيزنطيين في يوم احتفالهم بأحد الأعياد وهم مشغولون بأداء شعائرهم في منتصف نهار ذلك اليوم ليضفوا على هذا الهجوم عنصر المفاجأة للقوات البيزنطية في تلك المنطقة(٥). ومن المرجح أن قوات كاركاسان كانت تضم أعدادًا كبيرة من قادة وجنود القبائل المحلية المتمرسة على القتال والحروب الطويلة، لكن انضمام بعض القبائل إلى جانب البيزنطيين قد رجح كفة الحرب لصالحهم لا سيما قوات كوتزيناس التي أبلت بلاءً كبيرًا في هذه المعركة(٦).

إن هذه المعركة التي وقعت في أوائل عام ٥٤٨م في حقول كاتو قد أسفرت عن هزيمة القبائل المتحالفة ضد البيزنطيين،وأدت إلى مقتل سبعة عشر زعيماً محلياً كان من بينهم

---

(1) **Pavy,A., op.cit., p.284**.

(٢) د. ي . هاينز ، مرجع سابق ، ص ٧٨؛

Bel Khodja, K., et Autres.,op.cit.,p.259.

(٣) كوريبوس، مصدر سابق ، ص ١٨٠.

(٤) هذا الموقع حدد بمعسكرات كاتونيس (Campi Catonis) ويرجح أن يكون بناحية من نواحي إقليم بيزاكيوم ، ينظر عبد اللطيف البرغوثي ، التاريخ الليبي القديم ، ٤٧١ ؛

Bel Khodja,K., et Autres, op.cit.,p.259.

(٥) كانت الخطة قد وضعت بناء على رأي الزعيم المحلي أوتيليتين(Autiliten) مستغلا بذلك ساعة الظهيرة وحرارة الشمس الحارقة لنجاح خطته، ينظر:كوريبوس ، مصدر سابق، ص ص١٨٣-١٨٤.

(٦) شارل اندريه جوليان، مرجع سابق ، ص٣٧٢.

كاركاسان[١]. الذي قطع البيزنطيون رأسه ووضع على رمح حديدي جابوا به شوارع قرطاجة، في حين تراجعت العديد من القبائل إلى حدود الصحراء أما الزعماء الباقون فقد دخل العديد منهم في المبايعة والولاء للإمبراطورية البيزنطية[٢] وكان من أهم هؤلاء الزعماء انتالاس الذي استسلم من جديد للبيزنطيين[٣].

مثلت هذه الهزيمة للقبائل المحلية المقاومة التي تسكن إقليم طرابلس وبيزاكيوم نكسة حقيقية، كانت بمثابة النصر الذي أمن للبيزنطيين الهدوء والسلام لشمال أفريقيا لمدة تزيد عن الأربع عشرة سنة استغلها القائد البيزنطي تروجليتا في تنظيم البلاد إدارياً وعسكرياً كما عمل على تحسين الأوضاع الاقتصادية فيها ليمثل بأعماله هذه أحد رجالات الإمبراطورية البيزنطية الثالث بعد بليزاريوس وسولومون في ترسيخ الاحتلال البيزنطي في المنطقة[٤].

وفي هذا السياق إذا ما تم التساؤل عن السبب الحقيقي لإخفاق القبائل المحلية في هذه الفترة وفي الفترات السابقة في تحقيق النصر على القوات البيزنطية وطردها من المنطقة، لتبين أن السبب في الغالب ذاتي محض.

فلقد كان هؤلاء الزعماء منشغلين فقط بمصالح قبائلهم الخاصة كل على حده، وكانوا مستعدين لحمل السلاح ضد بعضهم البعض مثلما هم مستعدون لحمل السلاح ضد بيزنطة، وفي الواقع قد اعتبروا البيزنطيين حلفاء مفيدين لهم ،فمثل ذلك نقطة الضعف التي تمكن البيزنطيون من استغلالها لصالحهم[٥].

لكن مع ذلك كله فإن سيطرة البيزنطيين على شمال أفريقيا كانت محدودة جداً، فقد واجه البيزنطيون العديد من الصعوبات بعيداً عن مناطق نفوذهم في قرطاجة وما حولها شرقاً أو غربًا أو في أعماق الصحراء جنوباً، بل وأرغموا على الاعتراف بزعماء القبائل وسيادتهم على المناطق التي يحكمونها والذين رفضوا هؤلاء الآخرين في الوقت

---

(١) تولى القائد تروجليتا بنفسه مهمة إنهاء قائد الثوار كاركاسان، ينظر:

Bury,J. B.,op.cit.,p.147; Jerary,M.T.,op.cit.,p.53.

(2) **Pavy,A.,op.cit.,p.284.**

(٣) السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق، ص٦٧.

(4) **Bury,J.B.,op.cit.,p.147.**

(5) **Raven,S.,op.cit.,p.219;**

موريس لومبارد ، مرجع سابق ، ص ص ٧٨ - ٧٩ .

ذاته العودة إلى وضعية ما قبل القرن الثالث إلى عصر التوسع والاستغلال الرومانى المباشر [١].

وفي اعتقادي العبرة ليست بالنجاح بقدر ما هى المحافظة على هذا النجاح الذي كان يترنح بين الصعود أحيانا والهبوط أحيانا أخرى، فما مدى تمكن البيزنطيون من ضبط الأمن والمحافظة على هذا السلام والاستقرار؟.

إن فترة الخمس عشرة سنة تقريبا(٥٤٨-٥٦٣م) بقدر ما هي فترة طويلة لكن المصادر التاريخية تصمت عن ذكرأي صدام فعلي بين البيزنطيين والسكان المحليين، ولا تعطي صورة واضحة للعلاقة بينهما،وهذا ما يفسر اعتقاد البعض وربما المبالغ فيه أن نصر البيزنطيين في معركة كاتو سنة ٥٤٨م كان نصراً حاسماً لم يسجل التاريخ بعده أية معارك أو اشتباكات في منطقة إقليم طرابلس تحديداً وفي شمال أفريقيا بشكل عام حتى الفتح الإسلامي سنة٦٤٣م [٢].

كان على الإمبراطور جستنيان أن يخوض معركة واحدة وأخيرة في المنطقة في نهاية عهده، ويبدو أن هذه المعركة تعود في مجملها إلى الخيانة التي قام بها الحاكم العسكري البيزنطي، فولاء الزعيم المسن كوتزيناس قد ضمن بمرتب سنوي [٣].لكن في عام ٥٦٣م، وعندما جاء هذا الزعيم إلى قرطاجة ليستلم المال تم اغتياله من قبل جون روجاثينيوس(John Rogathinus) آمر الجند [٤].

إن هذا الخطأ الذي ارتكبه القائد روجاثينيوس خليفة تروجليتا كان بمثابة الشرارة التي أشعلت جذوة الثورة المحلية من جديد ضد الوجود البيزنطي لما مثلته هذه الجريمة من خرق فاضح للسلام الزائف والهش من قبل البيزنطيين والذي هو أشبه بذلك السلام الذي خرق بمذبحة كبيرة ضد زعماء لواته في زمن سيرجيوس بمدينة لبدة الكبرى سنة٥٤٤م.

---

(1) **Laroui,A.,op.cit.,p.74.**

(٢) عبد اللطيف البرغوثي ، التاريخ الليبى القديم ، ص٤٧١ ؛ دي.هاينز، مرجع سابق، ص٧٨.

(٣) يشير أحد الباحثين إلى أن قدوم كوتزيناس إلى قرطاجة كان لتقديم التهاني للقائد الجديد الذي خلف تروجليتا ينظر:
Pavy ,A.,op.cit.,p.284.

(٤) لا تزال دوافع هذه الجريمة غير معروفة حتى الآن في غياب المصادر التاريخية التي تشير إلى هذه الحادثة، ينظر :
Bury , J.B.,op.cit.,pp.147-148.

كانت ردة الفعل على هذه الحادثة قد جاءت سريعة من أبناء كوتزيناس المغدور مع من انضم إليهم من رؤساء القبائل الآخرين، والذين حملوا السلاح وأعلنوا الثورة في نوميديا ضد الإمبراطورية البيزنطية،ولكن ثورتهم لم تأخذ مدى شاسعاً بسبب التعزيزات العسكرية التي أُرسلت من القسطنطينية لقمع الثورة تحت قيادة ابن أخى الإمبراطور جستنيان مارسيان(Marcine) إلى جانب الوسائل الدبلوماسية التي دأب البيزنطيون على استعمالها مع سكان هذه المنطقة[١].

كما رافقت الأعمال العسكرية البيزنطية سلب البلاد وتخريبها، خاصة في بيزاكيوم التي تم تدميرها أثناء تلك الحروب ، وعادت الاضطرابات من جديد عند نهاية حكم الإمبراطور جستنيان قبل موته في ١٥نوفمبر سنة٥٦٥م ، مما جعل شمال أفريقيا في وضعية صعبة[٢]. هذه الوضعية هي التي طويت بها صفحة التاريخ السياسي للبيزنطيين في هذه البلاد خلال تلك الفترة.

---

(1) **Raven ,S., op.cit.,pp.219-220; Pavy,A.,op.cit.,p.285;**

السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق ، ص٦٧.

(2) **Bel Khodja,K., et Autres.,op.cit.,p.259.**

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية في شمال أفريقيا أثناء حكم الإمبراطور جستنيان

(دراسة مقارنة مع العصر الوندالي)

أولاً : النشاط الزراعي والثروة الحيوانية

1. الزراعة
2. الرعي
3. الصيد

ثانياً : ملامح الحركة التجارية

1. النشاط التجاري
2. الضرائب
3. العملة

ثالثاً : الصناعة :

رابعاً: العوامل المؤثرة في النشاط الاقتصادي

1. الأمن والاستقرار
2. التركيبة الاجتماعية
3. الخلافات الدينية

بادي ذي بدء أعتقد أنه من الأفضل الإشارة هنا إلى الاعتبارات التي دعت إلى عقد مقارنة بين النشاط الاقتصادي في شمال أفريقيا زمن الإمبراطور جستنيان وما كان عليه هذا النشاط وبخاصة الزراعة في العصر الوندالي وهذه الاعتبارات هي:

أولاً : تحول اقتصاد المنطقة من اقتصاد زراعي إلى اقتصاد رعوي منذ مطلع القرن الثالث الميلادي[١] وحتى السيطرة البيزنطية، وهذا الاقتصاد الجديد يمثل ما يعرف بالظاهرة الرعوية .

ثانياً : استمرار العمل بالقوانين والنظم الرومانية إلى حد كبير أثناء العصر الوندالي وكذلك البيزنطي ، وهو ما سيتضح من خلال هذه الدراسة .

ثالثا: إنه لا يمكن فهم الحياة الاقتصادية في شمال أفريقيا فهماً دقيقاً دونما دراسة الوضع الاقتصادي الذي كانت عليه المنطقة في الفترة الوندالية والتي سبقت الاحتلال البيزنطي، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية محدودية الفترة الزمنية لموضع الدراسة وغلبة الطابع السياسي والعسكري عليها.

أولاً : النشاط الزراعي والثروة الحيوانية

١. الزراعة

إن الاحتلال الوندالي لشمال أفريقيا كان من أكثر العوامل أهمية في التغير الاقتصادي الذي حدث في غرب البحر المتوسط في القرن الخامس الميلادي ويرجع هذا التغير في حقيقته إلى قوة وهيمنة الأسطول الوندالي في البحر المتوسط[٢].

فقد كانت الزراعة في هذا العصر كغيره من العصور هي القطاع الاقتصادي الأول، فهي قلب الاقتصاد ، وهي التي توجه وتسيطر على النشاطات الصناعية

---

(١) كولين ماكيفيدي ، أطلس التاريخ الأفريقي ، ترجمة مختار السويفي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م، ص٦٩؛ لبيب عبد الساتر ، مرجع سابق ، ص٢١١.

(2) **Deanesly,M.,A History of Early Medieval Europe From 476 To 911,London ,1974,p .75.**

والتجارية ، لذلك فإن المؤرخ فيكتور دي فيتا[١](Victor de Vita) يذكر الخصوبة الاستثنائية لأراضي أفريقيا أثناء الغزو الوندالي في النص التالي :

« ولاية هادئة مستقرة ، اكتشف فيها جمال أرضٍ تتمتع بالخصوبة في جميع أرجائها»، كما يشير أسقف قرطاجة كود فولتديوس (Quodvultdeus) والمؤرخ سالفين (Salvien) إلى الشيء نفسه عن قرطاجة[٢].

وهناك من يرى[٣] أن الغزو الوندالي كان في أساسه قائماً على الدافع الاقتصادي حيث غنى أفريقيا بالموارد الطبيعية والأراضي الخصبة قد دفع القائد جيزريك لترك أسبانيا والتوجه للأراضي الغنية في نوميديا ، وفي سهول البروقنصلية ، وما يؤكد خصوبة المنطقة التي ظلت حتى قبيل الغزو الوندالي مصدر الغلال الرئيسي لروما تلك المجاعات التي أصابتها عندما توقفت إمدادات القمح عنها عام ٤١٠م ، ٤١٣م[٤].

في هذا الإطار يمكن طرح السؤال التالي ، ما هو الوضع الذي كانت عليه الزراعة في العصر الوندالي ؟ .

يذكر بروكوبيوس[٥] أن أهم الأراضي التي استولى عليها الوندال هي تلك التي سلمها جيزريك لابنيه هونريك وجيزون وجعل من أصحابها الأثرياء وما يملكون عبيدًا لهما ، أما باقي الأراضي المهمة الأخرى التي كانت كبيرة جدا فقد عمل على توزيعها

---

(١) هو أكبر الأساقفة الكاثوليك في ولاية بيزاكيوم والذي هرب عندما غزا الوندال شمال أفريقيا ينظر:

Boutbouqalt,T., op.cit., p.67.

(2) **Selmane, K., op.cit., p.47.**

(3)**Kaddache, M . ,op.cit.,p.202.**

(4) **Selmane, K.,op.cit.,p.47.**

كما تتضح أهمية غلال شمال أفريقيا بالنسبة للرومان في أوقات الأزمات السياسية خلال تلك الفترة ، فقد امتنع هيراكليان حاكم أفريقيا عن تزويد روما بالغلال بعدما وقعت تحت سيطرة القوط بقيادة الأريك سنة ٤١٠ م ، للمزيد ينظر: ب. هـ. ورمنقتن ، مرجع سابق ، ص ٣٢.

(5) **Procopius, Hist.War.,III.V.11-13;**

أحمد توفيق المدني، قرطاجنة في أربعة عصور، من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص ١٢٨ ؛ محمد محي الدين المشرفي، مرجع سابق ، ص١٢٢ .

على أفراد قبيلته من الونداليين ونتيجة لذلك سميت هذه الأراضي بأراضي الونداليين (Vandals Estates) حتى مجيء البيزنطيين .

لقد أمر جيزريك بألا تكون الأراضي التي خضعت للونداليين عرضة لأي نوع من أنواع الضرائب، على أنه سمح بأن تبقى الأراضي الأقل أهمية في أيدي مالكيها السابقين لكن مع دفع ضرائب كبيرة عنها[١].

كانت المنطقة الممتدة من قرطاجة إلى هيبوريجيوس من أخصب الأراضي في شمال إفريقيا[٢] ولذلك فإن الأراضي التي خصها جيزريك لنفسه ولابنيه قد انحصرت عموما في ولايات بيزاكيوم واباريثان (Abaritan) وجيتوليا (Caetulia) وجزء من نوميديا ، فضلاً عن الجزء الأكبر من ولاية القنصلية زوجيتانا[٣] (Zeugitana).

إن الإقطاعات الكبيرة التي وزعها جيزريك على الونداليين كانت تضم مجموعات لكل واحدة منها ألف رجل، تنقسم في كل إقليم أقساماً وراثية معفية من الضرائب ، وقد كانت كل مجموعة تحت إدارة قائد يدعى ميليناريوس (Millenarius) وتخضع للخدمة العسكرية[٤]. وهذا النظام الإقطاعي للجند لا يختلف كثيراً عن النظام الروماني السابق[٥]. الذي يؤمن نشاط المزارع تحت ما يسمى الإقامة الجبرية والمؤبدة عائلياً ووراثياً[٦].

---

(1) **Procopius, Hist.War., III.V.14-16;**

محمد المرزوقي، قابس جنة الدنيا ، منشورات مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، ص١٣٩ ؛ أحمد بن عامر ، مرجع سابق ، ص٧٣.

(2) **Deanesly, M.,op.cit.,p.75.**

(٣) تمثل هده الولاية الأخيرة أصغر الولايات حيث يبلغ مساحتها نحو مائة ميل في الخمسين ميل ومع ذلك فهي أغنى الولايات و أهمها بسبب وقوع العاصمة قرطاجة في وسطها ، ينظر: إبراهيم علي طرخان ، شمالي أفريقية والوندال ٤٣٩-٥٣٤م، ص ص١٢٩-١٣٠.

(٤) للمزيد حول مشكلة الأراضي الوندالية ينظر :

Bel Khadja, K. et Autres.,op.cit.,pp. 229 -230. .

(٥) إبراهيم حركات ، مرجع سابق ، ص٦٧.

(6) **Saumagne, C.,"Sur le Colonat Byzantin en Afrique", C.T,tome x, année 1962 , Tunis, p.298 .**

شهدت ولايات شمال إفريقيا لاسيما بيزاكيوم تغيرات اقتصادية واضحة في العصر الوندالي إذ ازدهر إنتاج القمح والزيتون اللذين يمثلان العمود الفقري للاقتصاد القديم، فلم يعد تصديرهما كما كان في السابق ، بل كانت البلاد تحتفظ بهما، وهذا الإجراء أدى إلى ارتفاع مستوى المعيشة(١). كما أن إنتاج القمح والزيت في الجزر والمستعمرات الوندالية الأخرى كان يصدر إلى العاصمة الوندالية قرطاجة مما زاد في استقرارها وازدهار اقتصادها خلافاً لما كان قائماً في العصر الروماني(٢).

تجدر الإشارة إلى أن العديد من المؤرخين قد بالغوا في وصف الوندال أنهم أمة وحشية جلبت الدمار والخراب على البلاد وأدت إلى انهيار الاقتصاد بما في ذلك النشاط الزراعي، واعتبر أن الضحية الأولى لهذا الاحتلال هم المزارعون الذين عانوا أكثر مما عانى غيرهم من تنجتانيا غرباً إلى بيزاكيوم شرقاً دون استثناء(٣).

إلا أن الأمر خلاف ذلك ، فالطبقة التي جردت من مناصبها وممتلكاتها تكاد تنحصر إلى درجة كبيرة في الأقلية من الأغنياء وكبار الملاك والرهبان وما كانت تملكه الكنيسة الكاثوليكية من إقطاعات شاسعة(٤).

أما علاقة السكان المحليين مع الونداليين رغم عدم اختلاطهم مع بعضهم البعض في مناطق واحدة فقد كانت أفضل مما كانت مع الرومان ، على الأقل في إطارها النظري ، إذ لم يتعرض الوندال للمزارعين تحديداً لاعتبارهم مصدر الزراعة والضرائب(٥). كما أن وضعية السكان المحليين قد تحسنت كثيراً بسبب زيادة المنتوجات الزراعية التي بقيت في البلاد بشكل عام ولم تصدر إلى الخارج(٦).

---

(1) **Briki, S.,La Byzacene a L`époque Byzantine(Mémoire de D.E.A en Histoire ancienne) ,Sous la direction de:Mrabet,A.,Universite de Tunis,année universitaire 2002-2003, p.9;**

محمد بلحولة ، مدن تونسية ، قفصة قديماً وحديثاً ، تونس ، ١٩٩٠ م ، ص١٠٩ .

(2) **Chaouache , H., "Les Structures économiques de la Byzacéne à travers L`antiquité et le moyen-age" , C.T ,tome.XII, année 1964,Tunis,p.45.**

(3) **Deanesly , M.,op .cit .,p.78.**

(4) **Bel Khodja, K.et Autres, op.cit., p.229; Selmane, K .,op.cit.,p.50 .**

(5)**Kaddache , M., op.cit .,pp.202,207;**

محمد المرزوقي، مرجع سابق ، ص١٣٩.

(6)**Chaouache,H.,op.cit.,p.45;**

خلاصة القول في هذا الموضوع أنه لا يمكن الحكم على الوندال حكماً تعسفياً بـأنهم همـج رعـاع خصوصـاً بعـد اسـتقرارهم فـي شـمال إفريقيـا ، وممارسـتهم الحيـاة الزراعية التي لابد أن تكون على درجة من الرقي بعد احتكاكهم الطويل بالرومان(١).

إن أشهر النصوص القانونية الزراعية التي تم الكشف عنها في منطقة قفصة(٢) على الحدود التونسية الجزائرية والمكتوبة بخط وندالي رديء، تعود إلى نهاية القرن الخامس الميلادي وهي عبارة عن عقود بيع وشراء جرت ضمن عقار زراعي كبير، مستندة إلى تقاليد وشرائع رومانية مثل قانون مانكيا (Muncia) الذي ذكر عدة مرات في تلك العقود كمرجع تشريعي(٣).

أظهرت هذه النصوص المعروفة بألواح البارتيني (Albertini) بعض ملامح الحياة الزراعية الوندالية من خلال عقود البيع والشراء ومساحات الأراضي وأسماء مالكيها(٤). وحق ممارسة الملكية الفعلية للمزارعين، كما يتضح أن الوندال لم يقوموا بقلب موازين البنية الزراعية فيما يتعلق بعمليات استغلال الأراضي ولا لظروف تواجد الكتل الريفية التي كانت على علاقة سيئة مع الرومان من قبل ، إلا أن الشيء الأهم هو أن السياسة الزراعية الوندالية لم توقف وتيرة الحياة اليومية في المزارع، بعدما كان أصحابها قد قبلوا ولو سلباً بالمحتل الجديد(٥).

محمد بلحولة، مرجع سابق ، ص١٠٩.

(١) إبراهيم حركات، مرجع سابق ، ص٦٧ .

(٢) لقد تم العثور على هذه النصوص في موقع يبعد ١٠٠كيلو مترًا جنوب تبسة وعلى بعد ٦٥ كيلو متر غرب قفصة وهي بذلك أقرب لوصفها لمنطقة قفصة منها لتبسة ينظر :

Bel Khodja ,K. et Autres.,op.cit.,p.230;

أحمد صفر، مرجع سابق، ص٣٨٦.

(٣) محمد البشير شنيتي، "وضعية الأرض و طرق استغلالها في بلاد المغرب في العهد الروماني وبداية العهد الإسلامي" مجلة دراسات تاريخية، السنة ١٣، العددان ٤٣-٤٤، منشورات جامعة دمشق، سوريا، ١٩٩٢م، ص٤٠.

(4) **Saumagne,C.,Sur.Col.Byz.,p. 297; Mattingly,D.J."Farmers and Frontiers.exploiting and Defending the Countryside of Roman Tripolitania" , L .S.Vol.20, 1989, p.142.**

(٥) **Bel Khodja, K.et Autres.,op.cit.,p.230.**

كانت هذه بعض ملامح النشاط الزراعي في العصر الوندالي لكن مع بداية الاحتلال البيزنطي لشمال إفريقيا عام ٥٣٣م ، هل استمرت الأوضاع الاقتصادية على ما كانت عليه ، أم أن هناك تطورات جديدة أخرى ؟ .

إن المصادر الأدبية التي أشارت بوضوح إلى الحياة الزراعية أثناء هذه الفترة هي مؤلفات المؤرخ بروكوبيوس(١) وملحمة الشاعر كوريبوس. ومع الاعتماد الكبير على هذه المصادر يجب عدم الانسياق وراء التعميمات المضللة بشأن ازدهار الاقتصاد المنقطع النظير تارة وترديه بسبب دمار الحروب والمآسي التي اجتاحت المنطقة تارة أخرى .

كانت أولى الإشارات الواضحة من قبل بروكوبيوس(٢)حول خصوبة الأراضي وكثرة الأشجار هي تلك التي تحدث فيها عن منطقة غراس (سيدي خليفة) التي كانت الأشجار فيها مليئة بالفواكه، وعلى الرغم من أن كل الجنود البيزنطيين أكلوا من هذه الفاكهة حتى شبعوا « فلم يكن يرى أي أحد نقصاً في الفاكهة » على حد تعبيره .

أما كوريبوس(٣) فيقدم تقييمه لما كان عليه الوضع الزراعي في العصر الوندالي ، وما آل إليه بعد الاحتلال البيزنطي، وذلك من خلال ما ذكره القائد جون تروجليتا من أن الله انتقم من المملكة الوندالية في السنة المائة لحكمها وعلى الطاغية جليمر الذي جر الدمار والخراب . وخلال الحملة العسكرية سنة ٥٣٣م من كابوت فادا إلى قرطاجة كان الجيش البيزنطي يسير في ظلال الأشجار الكثيفة ، وعندما استتب السلام لم تكن خيرات (ليبيا) أقل مما كانت عليه قبل المعركة بل نعمت بوفرة الموارد الزراعية الجيدة وتحسنت أحوالهم كثيراً(٤).

---

(١) من الأهمية بمكان الإشارة إلى أن مؤلفات بروكوبيوس : تاريخ الحروب والبنايات، جاءت لتخلد أعمال وإنجازات الإمبراطورية البيزنطية بدافع من الإمبراطور جستنيان وقادته ومستشاريه، في حين كان كتابه التاريخ السري خلافاً لذلك تماماً إذ مثل صورة مغايرة من ذكر مساوئ وجرائم الإدارة البيزنطية المتمثلة في شخص الإمبراطور ومعاونيه في أنحاء الإمبراطورية بأسرها .

(2) **Procopius, Hist . War., III.XVII.8-10; Bury, J .B., op.cit.,p.131;**

عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، مرجع سابق ، ص١٢٦.

(٣) كوريبوس ، مصدر سابق ، ص ص٦٣-٦٤.

(4) **Briki, S.,op.cit.,p.21.**

ويبدو أن هذا التقييم بقدرما كان أساء للونداليين بسبب أعمالهم التخريبية بقدر ما أظهر أن هناك حياة زراعية مستقرة أو شبه مستقرة على أدنى تقدير في الفترة الوندالية.

بل تكاد تتفق جميع المصادر، على أن ما أصاب شمال أفريقيا من تدهور اقتصادي واجتماعي يقع على عاتق الإدارة البيزنطية، ومن جهة النظر الاجتماعية يتضح أن التردي يرجع إلى فترة حكم الإمبراطور جستنيان، على الرغم من الدعاية البيزنطية التي تؤكد عكس ذلك[١]من خلال ما كتبه بروكوبيوس وكوريبوس طبعاً.

ولقد أكدت دراسة أثرية حديثة أجريت حول منطقة سيلليوم (Cillium) القصرين من خلال جمع بقايا الفسيفساء وجود عدة مزارع كبرى تتراوح مساحتها بين ١-١٠ هكتارات تواصل العمل بها في الأنشطة الزراعية خلال العصر الوندالي[٢]. كما توضح الحفريات الأثرية التي تم القيام بها لاسيما في ولاية بيزاكيوم احتفاظ الاقتصاد بنموه النسبي في هذا العصر وازدهار الزراعة خاصة في هذه الولاية بفضل حركية سكانها ووفرة ثرواتها الطبيعية[٣].أما في منطقة ديكومانوس فإن الدراسات الأثرية توضح استمرار الحياة فيها من خلال دراسة بعض المنازل والمنشآت في العصر الوندالي، ثم تراجع هذه الحياة وتدهورها منذ بداية القرن السادس الميلادي[٤].

إن أكثر الإشارات وضوحاً. عند كوريبوس[٥]. إلى ازدهار الاقتصاد ورخائه قوله « هكذا تحررت بلادنا (شمال إفريقيا) عشر سنوات كاملة وازدهرت وعاشت في سعادة رغم ظهور بعض المتمردين بين وقت وآخر » وهي الفترة الممتدة من بداية الاحتلال

---

(١) بوللو – بي كواهي، " المجتمع منذ أواخر العصر البيزنطي حتى عشية الفتح العربي" ، (ليبيا القديمة) تقرير ودراسات اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، لبنان ، ١٩٨٨م ، ص ٢٦٧ .

(2) **Selmane, K ., op.cit. ,p.52.**

(3) **Briki, S.,op.cit.,p.10.**

(4) Wells,C.M., "L`Afrique à la veille des invasions Arabes", L`Afrique Romine: Les conferences Vanier, Les Editions de I`universte d`Ottawa, 1982. , p.101.

(٥) كوريبوس ، مصدر سابق ، ص٧٥.

البيزنطي عام ٥٣٣م إلى اندلاع ثورة القبائل الكبرى عام ٥٤٤م في مدينة لبدة الكبرى بقيادة قبيلة لواته(١).

من المرجح أن وضعية الأرض وعلاقتها بالإنتاج في العصرين الوندالي والبيزنطي لم يطرأ عليهما تغير جوهري من حيث النظم والتشريعات القانونية ، فإن كان الوندال لم يكن يهمهم من أمر الأراضي والمزارعين سوى ضمان حاجتهم الضرورية من الغذاء والثروة التي بلغت قدراً كبيراً، وإن عادت مرة أخرى في أيدي البيزنطيين فإن هؤلاء البيزنطيين قد اعتبروا أنفسهم في شمال إفريقيا ورثة الرومان في كل شيء(٢).

وإذا كان الاحتلال البيزنطي قد مثل استرداداً للأرض والسلطة معاً فإنه في الحقيقة قد كان استعادة كاملة لنظام اجتماعي قديم(٣). ويتضح ذلك من القوانين البيزنطية التي نصت على إرجاع الأراضي والأملاك المصادرة من قبل الونداليين في السابق إلى أصحابها الرومان(٤).كما قام الإمبراطور جستنيان باسترداد أملاك وأراضي الكنيسة الكاثوليكية وأجزاء كبيرة من أملاك الإمبراطورية سابقاً(٥).

وعليه يمكن حصر أهم الأراضي التي استولى عليها البيزنطيون في الأراضي الخاصة بكبار ملاك الأراضي من الرومان وأراضي الكنيسة الكاثوليكية التي يبدو أنها قد قُسِّمت من قبل على كبار الملاك الوندال والكنيسة الأريوسية وأخيراً الأراضي الإمبراطورية الخاصة بالإمبراطور وخزينته .

---

(١) كان الإمبراطور جستنيان قد أرسل القائد جون تروجليتا إلى شمال أفريقيا للقضاء على هذه الثورة التي بدأت تأخذ أبعاداً سياسية واقتصادية وسعت للتخلص من السلطة البيزنطية التي لم تهنأ بعد بقضائها على دولة الوندال، ينظر :
Yanoski ,J., App.His. .Afr., p.97.

(٢) محمد البشير شنيتي، مرجع سابق ، ص٤١؛
Raven, S., op.cit., pp.211-212.

(3) **Laroui, A.,op.cit.,p.67.**

(4) **Durliat, J.,"Les Grands Proprietaires Africains et L'etat Byzantin(533-709)", C.T, Tome.XXIX,1981,Tunis,p.520.**

(5) **Jean-Claude Cheynet.,op.cit.,p.33;**
إبراهيم على طرخان ، شمالي أفريقية والوندال ٤٣٩-٥٣٤م، ص١٦٣.

انتقلت أراضي الجنود الونداليين السابقين إلى الأملاك العامة والخاصة، في حين استولى الإمبراطور جستنيان على ممتلكات الملوك الوندال، أما أصحاب الأراضي من السكان المحليين فقد تم تجريدهم من ممتلكاتهم باسم الإمبراطور[١].

إن هذا الوضع الجديد والمعقد قد خلق خلخلة في البنية الاجتماعية والاقتصادية، فالحياة الريفية كانت متقلبة إثر التقسيمات الكثيرة لأراضي الونداليين، وقد أدت الاحتجاجات والمنازعات القانونية إلى رفع دعاوى قضائية لاسترجاع الأراضي، فجعلت الإدارة البيزنطية خمس سنوات لإثبات ملكية الأراضي والعقارات والنظر في هذه الشكاوى التى امتد البحث فيها إلى أكثر من ثلاثة أجيال مضت[٢].

كانت أكثر المنازعات القانونية تعقيداً تلك المتعلقة بالجنود البيزنطيين الذين تزوجوا بنساء ونداليات، حيث أصبحت هذه الزوجات تطالب باسترجاع أملاك أزواجهن وآبائهن الونداليين التي استولت عليها الإدارة البيزنطية، وما لحق ذلك كله من إثبات حق الملكية من تزييف لسندات الملكية وتلفيق الدعاوى القضائية الباطلة[٣].

يذكر كوريبوس[٤] هذا الوضع المتأزم بقوله « ولهذا فقد أنشئت محاكم من جميع الأنواع وبدأت القضايا الكئيبة تطل برأسها وعمت الفوضى البلاد ، وأثارت الكثير من المنازعات الضارية » .

لذلك يمكن التأكيد على أن التدوين التاريخي التقليدي القائم على فكرة أن التطور التاريخي القديم لمنطقة شمال أفريقيا لم يكن سوى سلسلة من الغزوات الأجنبية المتعاقبة[٥] صحيح إلى حد كبير فما حصل أثناء الاحتلال البيزنطي حصل من قبل أثناء الاحتلال الوندالي، إذ حل الغالب محل المغلوب في أراضيه وبين أزواجه

---

(١) بوللو – بي كواهي، مرجع سابق ، ص٢٦٨.

(2) **Bel Khodja, K.et Autres.,op.cit.,p.260;**

ب . سلامة "من روما إلى الإسلام" تاريخ أفريقيا العام، ج ٢ ، جين أفريك، اليونسكو، ١٩٨٥م، ص٥١٨.

(3) **Bury, J.B.,op.cit.,p.139; Raven.S.,op.cit.,p.213.**

(4) كوريبوس ، مصدر سابق ، ص ٧٨.

(٥) بوللو–بي كواهي ، مرجع سابق ، ص ٢٦٥.

وعبيده، فورث البيزنطيون بذلك الأرض والسكان، كما ورثوا المشكلات السياسية والعسكرية[١] والاقتصادية والاجتماعية والدينية أيضاً .

في الإطار العام كانت الإمبراطورية البيزنطية دولة بيروقراطية[٢] ذات مجتمع إغريقي مسيحي ، لعبت فيه العاصمة القسطنطينية الدور الأبرز في الحياة الاقتصادية لاسيما النظام الإقطاعي ، فقد شهد القرن الرابع وبداية الخامس الميلادي نزاعاً بين الدولة وكبار الملاك، وقد أخذت قوة هؤلاء في ازدياد في القرن السادس الميلادي وتطور الوضع بقيام كبار الإقطاعيين بتكوين عصابات مسلحة من التابعين أخذت تتحدى سلطة الدولة[٣]. وهو أقرب ما يكون إلى التمردات العسكرية التي شهدتها شمال أفريقيا زمن الإمبراطور جستنيان .

ظهر في مصر عدد من الأسر الإقطاعية في القرنين الخامس والسادس وأشهر هذه الأسر الإقطاعية آنذاك أسرة أبيون الشهيرة التي تولى أفرادها مناصب سياسية واقتصادية[٤]. لكن إذا ما تم تطبيق نظام (الاقتصاد الإقطاعي) على كل أجزاء الإمبراطورية البيزنطية فإنه يستوجب إدراك أهمية الفوارق بين أشكالها في كل من الشرق والغرب[٥].

لذا فإن دراسة الأسر الإقطاعية الكبيرة يوحي بداهةً بالمقارنة بينهاو بين النظام الإقطاعي في غرب أوروبا ، وإذا كان نظام الإقطاع في الغرب عسكرياً في جوهره، يحتفظ فيه المزارع الحر بأرضه طالما كان يؤدي خدمات سيده، خاصة في أوقات

---

(1) **Laroui, A.,op.cit.,p.67.**

(٢) المقصود بالبيروقراطية البيزنطية هو الجهاز الحكومي الضخم الذي تولى إدارة شئون الإمبراطورية في الداخل والخارج مع تهيئة وسائل الأمن والاستقرار لها وتنظيم طرق الدفاع عنها ينظر: ل . م. هارتمان ، ج. باراكلاف ، الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، ط٣ ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، مصر ، ١٩٨٩م، ص٩٢.

(٣) فتحي عثمان ، مرجع سابق ، ج٣، ص ص ١٠٣.١٠٥.

(٤) زبيدة محمد عطا، الحياة الاقتصادية في مصر البيزنطية ، ط٢ ، دار الأمين ، القاهرة ، ١٩٩٤م ، ص١١ ؛ مصطفى العبادي، الامبراطورية الرومانية: النظام الامبراطوري ومصر الرومانية، دار النهضة العربية، بيروت–لبنان،١٩٨١م، ص٢٧٧.

(٥) ل . م. هارتمان . ج . باراكلاف ، مرجع سابق ، ص٩٧.

الحرب، على أن ملكية الأرض في مصر لم تكن مشروطة بالخدمة العسكرية[١]. لكن بروكوبيوس[٢] يؤكد أن المزارعين الذين يملكون مزارع خاصة بهم قد أجبروا على إطعام الجيش البيزنطي كضريبة تدفع عن كل رجل منهم ، وهذه الضريبة لم تكن تخضع إلا لميول ورغبات الجنود والموظفين البيزنطيين .

إذا ما تم قياس هذا الوضع على شمال إفريقيا فإنه يتضح إلى حد كبير قيام النظام الإقطاعي كالذي كان قائماً في غرب أوروبا ومرتبطاً بالطابع العسكري ، أو فيما يعرف تحديداً بالمزارع المحصنة على التخوم في العصر الوندالى وبداية الاحتلال البيزنطي للمنطقة[٣].

ويبدو أن العائلات الإقطاعية الكبيرة في الأقاليم عموماً كانت تمتلك ضياعاً ضخمة من الأراضي الزراعية والرعوية وهذه العائلات ربما مثلت امتداداً طبيعياً لسيادة وحكام الأقاليم المستقلين استقلالاً ذاتياً منذ العصر الروماني[٤]. كما هو الحال مع عائلة سانت فولجوس دي روسي، وهي من المرجح أنها عائلة القديس فولجينتيوس (Fulgentius)، التي امتلكت إقطاعات كبيرة وغنية بمنطقة بيزاكيوم في زمن الملك الوندالي هونريك[٥]. وكانت من أكبر الأخطاء التي ارتكبها البيزنطيون في شمال أفريقيا ترسيخهم النظام الإقطاعي وبيعهم وظيفة إدارة المقاطعات التي شكلت نظاماً إقطاعياً ظالماً[٦] للسكان المحليين، ودُفع ببعضهم في الدخول في عبودية الدولة.

ومع أن القانون البيزنطي الصادر عام ٥٣٤م قد حسّن من وضعية العبيد في الإمبراطورية عموماً وفي شمال إفريقيا بشكل خاص وشجع كذلك على تحريرهم، فإنه

---

(١) هـ . أيدرس بل ، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ، دراسة في انتشار الحضارة الهلينية واضمحلالها ، ترجمة عبد اللطيف أحمد علي، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٨م ، ص ١٨٤ .

(2) **Procopius, Anecdota., XXIII.11-12.**

(3) **Jones,A.H.M., The Later Roman Empire 284-602, A Social Economic and Administrative Survey,Vol.2,Oxford, 1964,pp.658,663 ;**

ر.ج. جود تشايلد، دراسات ليبية، ترجمة عبد الحفيظ فضيل الميار،أحمد اليازورى،منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس،١٩٩٩م، ص ص ٨٥-٨٨.

(٤) وسام عبد العزيز فرج ، مرجع سابق ، ص ص١٤-١٥ .

(5) **Bel Khodja, K.et Autres,op.cit.,p.229; Perhson, J.D.R.,op.cit.,p.159.**

(٦) محمد المرزوقي ، مرجع سابق ، ص ١٤٠ .

في الوقت ذاته أكد على تثبيت صارم للمستعمرين في أرضهم[١].وقد أثار هذا القانون تحفظ ملاك الأراضي بعد نزوح العبيد من المناطق الريفية ورفعوا شكواهم للإمبراطور الذي أصدر قانوناً يقضي باعتبار الابن الذي يولد لأب من الأقنان وأم حرة إنساناً حراً، على أن يبقى مرتبطاً بالأرض التي يعيش عليها والده[٢].

بل ذهب الإمبراطور جستنيان أبعد من ذلك في عام٥٥٢م عندما كتب لأحد ولاته في شمال أفريقيا مشدداً عليه بقوله: « نحن نريد أن تظل هذه الولاية في نفس وضعها في العصر الوندالي، فضلاً عن ذلك فإننا نأمر أي شخص من المزارعين تخلى عن أرضه وهاجر إلى أرض شخص آخر واستقر بها أن يعود إلى أرضه السابقة»[٣].

هكذا كانت الحياة الزراعية في شمال أفريقيا تشهد تطورات خطيرة مع بداية العصر البيزنطي على الصعيد الاقتصادي و الاجتماعي بما استحدثته الإدارة البيزنطية من قوانين جديدة شملت الأرض و السكان بمختلف طبقاتهم ، على أن استمرار الوضع السابق في العصر الوندالي كان من السمات الواضحة أيضاً .

في بداية القرن الثالث الميلادي ذكر ترتيليان[٤] « حلت الأراضي الضاحكة مكان الصحاري الشهيرة، والحقول المحروثة قهرت الغابات، وهزمت قطعان الماشية الحيوانات المفترسة...كل ذلك دليل على زيادة أبناء البشر باطراد في هذا الجزء من العالم، وتأتي الشكاوى من كل صوب : الطبيعة السائرة إلى التقهقر » .

هذا النص يدل دلالة واضحة على السياسة الزراعية الممنهجة للإمبراطورية الرومانية في تلك الفترة من استصلاح الأراضي والتوسع في تربية الحيوانات ، ولكن إلى أي حد يمكن أن ينطبق هذا الوضع الاقتصادي على المنطقة في الفترة البيزنطية ؟.

---

(1) **Lançon, B.,op.cit.,p.49;**

عبد العزيز فهمي باشا ، مرجع سابق ، ص ٦٤.

(٢) بوللو – بي كواهي ، مرجع سابق ، ص٢٦٨.

(3) **Saumagne, C. ,Sur. Col. Byz.,p.295; Bel Khodja, K.et Autres.,op.cit .,p.261 .**

(٤) أ . ف . غوتييه ، مرجع سابق ، ص ١٢٥.

إن ما يمكن التأكيد عليه من خلال المصادر الأدبية كمؤلفات بروكوبيوس وملحمة كوريبوس هو الإشادة بأن هناك اقتصاداً مزدهراً نسبياً في البدايات الأولى للسيطرة البيزنطية على شمال أفريقيا بصورة محددة .

إذ يشير كوريبوس(١) إلى أن البلاد كانت تتمتع بخصوبة أراضيها ووفرة محاصيلها، حيث أخذت تتوسع في إنتاج أجود أنواع الزيوت والنبيذ، وإن أشجار الكروم كانت مثقلة بثمارها من العنب، كما أن أشجار الزيتون مثقلة بحبات الزيتون هي أيضاً. وقد مثل رسم فسيفسائي في كنيسة جستنيان بمدينة صبراتة كرمة ذات فروع متشابكة تحمل عنباً(٢). أما بروكوبيوس(٣) فقد ذكر غنى منطقة غراس بالأشجار المثمرة. كأشجار الليمون التي كانت في الغالب تحيط بالمزارع المحصنة الخاصة بالجنود(٤). كما أن تحذير بليزاريوس لجنوده بعدم التعرض لأشجار الأهالي عند نزولهم(٥) وتعرض القوات البيزنطية عام ٥٤٤م لمحاصيل السكان بالقرب من مدينة لبدة الكبرى(٦) يدل على وفرة المحاصيل الزراعية في تلك الفترة.

لقد استمر العمل بالمنشآت الزراعية والنظام الاقتصادي في العصر الروماني من قبل البيزنطيين، خاصة فيما يتعلق بإنتاج القمح وزيت الزيتون(٧) وشهدت زراعة أشجار الزيتون في هذا العصر دوراً مهماً في حياة السكان، كما أن إنتاج الحبوب لعب الدور الأهم لاسيما في ولاية بيزاكيوم(٨).

عمدت الإدارة البيزنطية إلى استغلال النشاط الزراعي في شمال أفريقيا لصالحها، ويتضح ذلك من خلال المختصين الذين بعثهم جستنيان لتقييم وحصر الأراضي

---

(١) كوريبوس، مصدر سابق ، ص ص ٦٤،٧٦؛

Jean-Claude Cheynet, op.cit.,p.36.

(٢) محمد علي عيسى،مدينة صبراتة منذ الاستيطان الفينيقى حتى الوقت الحاضر، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ١٩٧٨ م، ص ٨٨.

(3) **Procopius,Hist.War.,III.XVII.10.**

(4) **Saumagne, C.,Reco.Byz.Afr.,p.294.**

(٥) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ص٣٥٧-٣٥٨.

(6) **Mattingly, D.J.,Lagu.Lib.,p.99.**

(7) **Chaouache, H.,op.cit.,p.46.**

(8) **Birki, S.,op.cit.,p.31.**

وفرض الضرائب الباهظة على جميع الممتلكات(١). إضافة إلى ذلك فإن الإصلاحات الكثيرة التي قام بها القائد سولومون ، وعلى الرغم من أنها ذات طابع عسكري إلا أنها كانت موجهة أيضاً لخدمة النشاط الاقتصادي كإصلاح الطرق الرئيسة بين نوميديا وبيزاكيوم(٢) وحفر الآبار وإعادة صيانة القديمة منها(٣).

كما عمل على حفر الخزانات الضخمة لتجميع مياه الأمطار(٤) فضلاً عن استمرار عمل القناة الكبيرة المشيدة في العصر الروماني في تغذية مدينة قرطاجة بالمياه من جبل زغوان في الفترة البيزنطية(٥).

٢. الرعي

إن الظاهرة الاقتصادية المهمة في العصرين الوندالي والبيزنطي هي ظاهرة الرعي التي بدأت في الظهور بشكل واضح منذ منتصف القرن الثالث الميلادي(٦) وهذه الظاهرة (البداوة) تنظيم اجتماعي(٧) أكثر من كونها نشاطاً اقتصاديًا في شمال أفريقيا في هذه الفترة على وجه الخصوص .

كان اقتصاد البلاد قائماً بالأساس على مفهومين اقتصاديين هما : الرعي والزراعة ، وعندما ضعفت الزراعة كان من الطبيعي أن تلعب الحياة الرعوية الدور

---

(1) **Procopius,Anecdota.,XVIII.9-10.**

(2) **Bury, J.B.,op.cit.,p.143.**

(3) **Diehl, C.,Just.Civi.Byz.,p.180.**

(4) **Raven, S.,op.cit.,p.215.**

(٥) هذه القناة المعروفة بقناة الحنايا والتي أنشئت زمن الإمبراطور هدريانوس يبلغ طولها ١٠٠كيلو متر تقريباً وتبدأ من سفح جبل زغوان وعين أخرى في أسفل جبل سعيدان إلى صهاريج مدينة قرطاجة، ينظر: مادلين هورس ميادان، مرجع سابق ص١٢٣؛ عمر الباروني " طرابلس المدينة آبار ومواجل ومصانع الماء في التاريخ " مجلة الوثائق والمخطوطات، العدد الثالث، السنة الثالثة، منشورات مركز جهاد الليبيين، طرابلس،١٩٨٨م، ص١٢١.

(٦) محمد الطاهر الجراري، " موقف القبائل الليبية من الحكم الروماني "، مجلة الثقافة العربية، العددالسابع،السنة التاسعة، ١٩٨٢م، ص ٧٣.

(7) **Laroui, A.,op.cit.,p.69.**

الاقتصادي الأول عند السكان المحليين[١]. والذي ظهر بوضوح من خلال مشاهد الفسيفساء التي صورت فيها كثرة الحيوانات الرعوية[٢].

فما هي سمات الحياة الرعوية في تلك الفترة ؟ وما هي أهم مرتكزاتها؟.

إن هذا السؤال يقود إلى التغيرات السياسية والاجتماعية الكبيرة التي حدثت في العصر الروماني والتي لابد وأنها كانت تُلقي بظلالها على الحياة الاقتصادية حتى الغزو الوندالي الذي مثل عاملاً مساعداً على انطلاق النزعات العشائرية والقبلية في كل الأقاليم[٣].

هذه القبائل أخذت تنحى نحو الاستقلال في ظل ضعف السلطة الوندالية واستطاعت تكوين أقاليم[٤] شبه مستقلة يحكمها أمراء محليون يدينون بالولاء الاسمي للسيادة الوندالية ومن بعدها البيزنطية، وتقع تحت نفوذ الاحتلال الأجنبي، وأقاليم مستقلة تماماً وهي على أطراف مناطق نفوذ الاحتلال في الشرق والغرب والجنوب[٥].

يبدو من الواضح أن هذا التقسيم السياسي والاجتماعي للأقاليم قد خضع لتقسيم اقتصادي من حيث إن هناك قبائل مارست الزراعة وفقاً لعوامل اقتصادية ومُناخية مشجعة وخضوعاً لسياسة المحتل الممنهجة ، وقبائل أخرى امتهنت حرفة الرعي بناءً على ظروفها الخاصة ، ولكن مع ذلك لا يمكن الفصل التام بين ازدواجية العمل بالزراعة والرعي عند القبائل المستقلة وشبه المستقلة .

يذكر كوريبوس[٦] أن مزارعي قبيلة الناسامونيس قد اشتهروا بزراعة الأراضي حيث كانوا يحرثون حقول سرت إضافة إلى أن العديد من القبائل المحلية الأخرى قد مارست فلاحة أراضي جرمة ، وهذه الإشارة توضح بصورة جلية استمراراً لما ذكره

---

(١) أ . ف. غوتييه ، مرجع سابق ، ص ١٨٠؛ سعد زغلول عبد الحميد ، مرجع سابق ، ص ص١٠٦ وما بعدها .

(٢) تغريد علي شعبان ، الحيوانات البرية من خلال الفسيفساء الإفريقية الرومانية المعروضة في متحف باردو(رسالة ماجستير غير منشورة) إشراف محمد حسين فنطر ، جامعة تونس الأولى ، ١٩٩٥م ، ص٢٣١.

(٣) ب . سلامة ، مرجع سابق ، ص٥٢٢.

(٤) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص٣٤٨.

(٥) ب . سلامة ، مرجع سابق ، ص ٥٢٢.

(٦) كوريبوس ، مصدر سابق ، ص١٣٥.

هيرودوت من أن أبناء قبيلة الناسامونيس مارسوا الرعي والزراعة فضلاً عن جمعهم محاصيل التمور من واحة أوجلة سنوياً[١].

أما بالنسبة لقبيلة الفريكسيس[٢](Frexes) فلم يكن يجيد أفرادها سوى رعي القطعان فقط على حد ذكر كوريبوس[٣]. وعلى الرغم من أن قبيلة لواته المشهورة في جنوب إقليم طرابلس وتونس من أشهر القبائل الرعوية المعتمدة على ثروتها الحيوانية الكبيرة من الماعز والغنم والإبل، فإنها مع ذلك قد مارست الحياة الزراعية عند نهاية القرن الرابع الميلادي، الأمر الذي تؤكده العديد من النقوش الصحراوية التي توضح استخدام الجمال في حراثة الأرض، خاصة في منطقة قرزة[٤].وهي بذلك من القبائل التي استخدمت أسلوب الاستقرار والتنقل وفقاً لظروفها الاقتصادية المتاحة[٥].

ويبدو أن نمط التعايش بين الزراعة والرعي لهذه القبائل قد كانت تحدده ظروف سياسية واقتصادية عديدة . فقبيلة لواته التي كانت تزرع أراضي ووديان المنطقة الداخلية لإقليم طرابلس باستخدام الجمل في الأعمال الزراعية تعيش حياة مستقرة تدخل ضمن المزارع المحصنة في العصر الروماني[٦]. ومن المرجح أن هذا الوضع قد استمر العمل به في العصر الوندالي وبداية العصر البيزنطي، بل ربما تحسن وضعها الاقتصادي بعدما اتسع نفوذ هذه القبيلة نحو المناطق الساحلية إثر انتصار

---

(١) عبد السلام محمد شلوف،" دراسات في تاريخ ليبيا القديم: قبيلة الناسامونيس"، مجلة قاريونس العلمية، السنة الرابعة ، العدد الأول والثاني ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي، ١٩٩١م، ص١٤٣.

(٢) هذه القبيلة هي إحدى القبائل الموجودة ضمن مناطق النفوذ الوندالي ومن بعده البيزنطي في الحدود القريبة من قرطاجة، والتي بدأت تشكل خطراً حقيقياً على الوندال منذ بداية القرن السادس الميلادي ومن ثم على البيزنطيين بقيادة أنتالاس ينظر :

Briki, S.,op.cit.,p.9.

(٣) كوريبوس ، مصدر سابق ، ص٥٣.

(٤) محمد الطاهر الجراري ، موقف القبائل الليبية من الحكم الروماني ، ص٧٣.

(٥) عن الأسلوب الاقتصادي لقبيلة لواتة، ينظر :

Mattingly, D.J.,Lagu.Lib.,pp.105-106.

(6) **Brogan,O. ," The Camel in Roman Tripolitania",P.B.S.R ,Vol.,22,1954,p.129.**

اللواتيين بقيادة كاباون عام ٥٢٣م على الونداليين والغارات المتعددة التي شنت على مدينة لبدة الكبرى بين عامي ٥٢٧-٥٣٣م[١].

كما أن مطالبة زعماء قبيلة لواته القائد سيرجيوس تقديم الهدايا والشعارات المعهودة لهم وعرض شكواهم ضد القوات البيزنطية التي سرقت محاصيل قبيلتهم والتي على ما يبدو أنها من ثمار الزيتون أو من القمح[٢] دليل على رخائها الاقتصادي الذي سرعان ما تدهور في منتصف القرن السادس الميلادي بعد حملة القائد جون تروجليتا التي وصلت إلي هضبة ترهونة في الدواخل[٣].

وقد ظهر في القرنين الخامس والسادس على حد الصحراء جنوبي تونس ومنطقة طرابلس إتحاد قبلي عُرف بزناته، كان أفراده رعاة متنقلين على ظهور الجمال ، وربما يكون الزناتيون من الرعاة المتجولين جهة الجنوب للرعي بعد أمطار الشتاء في حين كانوا يقضون الصيف في الجبال[٤].

مهما يكن من أمر تلك القبائل، فإن الدعامة الرئيسة للاقتصاد الرعوي في هذه الفترة لاسيما في مناطق التخوم كان قائماً بالأساس على الجمل، إذ اختلفت أدواره في الحياة السياسية في أوقات الحرب والسلم وفي الحياة الاقتصادية في الزراعة والرعي فضلاً عن التجارة، وبعيداً عن الجدل القائم عند المؤرخين[٥] حول بداية دخول الجمل إلى شمال إفريقيا وأهميته السياسية والاقتصادية، فإن الجمل في العصرين الوندالي والبيزنطي اقتصرت أهميته بالدرجة الأولى علي المعارك والحروب التي خاضتها القبائل المحلية ضد الونداليين والبيزنطيين[٦]، ومع ذلك فإن استعمالاته شملت جميع

---

(1) **Moderan, Y.,op.cit .,p.214.**

(2) **Mattingly, D.J.,Lagu.Lib.,p.99.**

(٣) ر.ج . جود تشايلد ، مرجع سابق ، ص ١٦١.

(٤) جون رايت ، مرجع سابق ، ص ص٦٨-٦٩.

(٥) للمزيد حول هذا الموضوع ينظر :

Brogan,O.,op.cit.,pp.126-131; Laroui,A.,op.cit.,pp.68-70;

نبيه عاقل، " دور الجمل والحصان في الفتوح العربية المبكرة " ، مجلة دراسات تاريخية ، السنة الرابعة عشر ، العددان ٤٧-٤٨، دمشق، ١٩٩٣م ، ص ص ٣٧-٣٩ ؛ أ . ف . غوتييه ، مرجع سابق ، ص ص ١٣١-١٣٧.

(٦) بالنسبة لاستخدام الجمل في الحروب والمعارك اعتماداً على ما ذكره كريبوس و بروكوبيوس سيتم دراسة ذلك في موضوع الأسلوب العسكري المحلي في الفصل الأخير من الرسالة .

نواحي الحياة الأخرى، وأصبح منذ القرن الرابع جزءًا من أهم مواشي المنطقة في إقليم طرابلس على أقل تقدير(١)،حيث ازدهرت تربيته في هذا الإقليم، في حين لم يكن هناك ما يدل على تربيته ضمن الحيوانات الرعوية في نوميديا(٢). وتدل الأعداد الكبيرة التي غنمها المسلمون من شمال إفريقيا بعد قرن من هذه الفترة علي مدى انتشار تربية هذا الحيوان(٣).

توضح فسيفساء متحف باردو مشاهد عديدة من الحيوانات: الماشية الماعز والأغنام التي كان البدو الرحل يربونها متنقلين بها حسب وجود الماء والكلأ من منطقة إلى أخرى، فيقيمون في خيامهم في السهول في الشتاء، وفي الصيف يعودون إلى الجبال(٤).

ويشير كوريبوس(٥) إلي أن القطعان السمينة من الماشية التي كانت ترعى في الوديان كانت ضمن أهم غنائم الجيش البيزنطي .

كانت تربية الخيول قد لعبت دوراً مهماً في الحياة السياسية إذ أنها حيوانات أعدت بالأساس للمعارك والحروب(٦).ومع ذلك لم يمنع استخدامها في جوانب أخرى كألعاب السيرك التي استمرت حتى العصر الوندالي إذ يذكر الشاعر لاكسوريوس (Luxorius) في بعض قصائده حياة وألعاب السيرك في قرطاجة والتي استخدمت فيها الخيول وصورتها العديد من الفسيفسائيات في هذه الفترة، كما يذكر اسطبلات كانت تربى فيها هذه الخيول في عدد من المزارع التي لابد أنها كانت لكبار الملاك الوندال الأرستقراطيين(٧).

---

(١) محمد الطاهر الجراري، موقف القبائل الليبية من الحكم الروماني، ص ٧٣؛ أ. ف.غوتييه، مرجع سابق، ص ١٣٤ .

(2) **Kaddache , M .,op.cit.,p.207.**

(٣) نبيه عاقل ، مرجع سابق ، ص ٣٨ .

(٤) تغريد على شعبان ، الحيوانات البرية ، ص ص ٢٣١-٢٣٣.

(٥) كوريبوس ، مصدر سابق ، ص ٥٣.

(6) **Jean-Claude Cheynet .,op.cit.,p. 37.**

(7) **Rossiter, J. J.,"Stabula equorum: evidence for race –Horse Stables in Roman Africa" Afrique du Nord Antique et Medievale , 1992,Paris, pp.44-47.**

كان الحصان أكثر الحيوانات تصويراً على الفسيفساء في متحف باردو إذ مثل ٩٧ مرة على ٣٠ لوحة تعود إلى مناطق متعددة وفترات زمنية مختلفة بدءاً من القرن الثاني الميلادي وانتهاءً بالقرن السادس[١].وكذلك فسيفساء فيلا طبرقة (Tabarka) شمال تونس، وفسيفساء (Oued Athmenia) في الجزائر والتي تصور الخيول في الحياة الريفية بالقرب من الأبنية الزراعية[٢].

وقد كانت الخيول الوندالية من الغنائم التي استولى عليها بليزاريوس بعد دخوله مدينة سيليكتوم عام ٥٣٣م[٣]. ومع أن الحصان المحلي صغير الحجم ولا يتحمل الأوزان الثقيلة مقارنة بالخيول الأوربية إلا أن له قدرة كبيرة على التحمل وقطع مسافات طويلة لفترة متواصلة[٤].

أما الأبقار والثيران فإن تصويرها علي الفسيفساء قليل جداً، بل إن تصوير الأبقار لم يمثل أبداً علي ألواح متحف باردو[٥] ومع ذلك فإن كوريبوس[٦] يوضح استخدم الثيران في الزراعة حيث يقول: « بدأ المزارع في زرع كرمته الجديدة في الحقول ، وفى سعادة كان يقود ثيرانه ويربط بها المحاريث »، كما مثل الثور حيواناً مقدساً عند قبيلة لواته وجعلت له تمثالاً تقدسه ، وأطلقت في إحدى معاركها مع البيزنطيين ثوراً للدلالة على مباركة الآلهة لها في الحرب .

وبالنسبة للحيوانات الأخرى المتعلقة بالحياة الزراعية كالبغال والحمير فإنها إضافة إلى عملها الزراعي كانت من أحسن وسائل النقل[٧] استمراراً للوضع الذي كانت عليه في العصر الروماني، والشيء نفسه بالنسبة للطيور والدواجن التي توضحه

(١) تغريد علي شعبان ،الحيوانات البرية ، ص ٢١٩ .

(2) **Rossiter, J.J.,op.cit.,pp.45-46** .

(3) **Bury, J .B.,op.cit.,p.130.**

(٤) أ. ف . غوتييه ، مرجع سابق ، ص ١٢٩.

(٥) تغريد علي شعبان ، الحيوانات البرية ، ص ص ٢٢٩- ٢٣٠ .

(٦) كور يبوس ، مصدر سابق ، ص ص ٧٦، ١٠٦.

(7) **Jean –Claude Cheynet. ,op.cit.,p.37.**

العديد من الفسيفسائيات كفسيفساء كنيسة الإمبراطور جستنيان في صبراته التي تصور الطيور كالطاووس والدجاج والغرانيق والحجل والديكة والسمان[١].

٣. الصيد

اهتم سكان شمال أفريقيا برياضة الصيد ، لاسيما في الفترة ما بين القرنين الثاني والسابع الميلادي ، ومع أن وجود الحصان النوميدي ذي النوعية الجيدة والكلب السلوقي المشهور بسرعته في ملاحقة الطرائد كان من الأسباب المشجعة على الصيد إلا أن السبب الرئيسي يرجع إلى كثرة الطرائد الصغيرة والكبيرة المنتشرة في البلاد[٢]. هذا فضلاً عن انتشار السهول والغابات التي يتحدث عنها كوريبوس[٣]، كما هو الحال في الغابات المحيطة بمدينة لاريبوس ، وغابات جبال الأوراس في نوميديا[٤] التي كانت مكاناً طبيعياً لتواجد أعداد كبيرة من الحيوانات والطيور البرية.

لقد جسدت إحدى اللوحات الفسيفسائية في متحف باردو تعود إلى القرن السادس الميلادي تصويراً لعدد من الحيوانات البرية والوحشية والطيور، في حين توضح لوحة أخرى عملية صيد الأرنب البري بمساعدة الكلاب والشبكة ترجع إلى القرن الخامس الميلادي[٥].

في العصر الوندالي ومن بعده البيزنطي كانت عمليات الصيد كغيرها من العصور تتمثل في صيد الطرائد الصغيرة ، وصيد طرائد كبيرة تحتاج إلى أموال وتجهيزات وفرق صيد عديدة ، وإن كان صيد الطرائد الصغيرة من ضمن الحياة الريفية اليومية للسكان المحليين، إلا أن العديد من كبار الملاك الرومان والوندال والبيزنطيين

---

(١) محمود عبد العزيز النمس ، محمود الصديق أبو حامد، مرجع سابق ، ص١٢٢.

(٢) تغريد علي شعبان ، الحيوانات الوحشية من خلال الفسيفساء الأفريقية الرومانية (رسالة دكتوراه غير منشورة) إشراف المنجي النيفر ، جامعة تونس الأولى ، ٢٠٠١م ، ص ص ١٦٢-١٦٣ .

(٣) كوريبوس، مصدر سابق، ص ص ٤٥،١٠٣.

(٤) أسطفان كسيل، " حيوانات ونباتات شمال أفريقيا في العهود العتيقة "، ترجمة محمد التازي سعود ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، العدد الثامن ، مطبعة النجاح الجديدة ، المغرب،١٩٨٦م، ص ص ١٢٢-١٢٣.

(٥) تغريد علي شعبان ، الحيوانات البرية، ص ص١٦٤-١٦٧.

قد مارسوا هذه الرياضة وصوروا عمليات صيدهم على بلاطات فسيفسائية حتى القرن السادس الميلادي[١].

ويعد أحد الباحثين[٢] عمليات الصيد هذه من متع حياة الترف والبذخ التي عاش فيها كبار الملاك والأمراء في شمال إفريقيا بمن فيهم الأمراء الونداليون الذين مارسوا هذه الرياضة خاصة في نهاية دولتهم .

وعن صيد السمك فإن كوريبوس[٣] يذكر أن القبائل الليبية مارست هذا النوع من الصيد إذ يقول: « عندما تجمعت القبائل التي زحفت عبر البحيرات في قواربها قبائل ويلانيديان[٤](Uelanidean) وكانت تجري فوق الماء بمهارة وتصطاد السمك بصنانيرها المعقوفة » كما توضح الفسيفساء الأرضية في إحدى الكنائس البيزنطية بقرطاجة رسومات عديدة لأسماك يرجح أنها تعود إلى القرن السادس الميلادي[٥].

ثانياً : ملامح الحركة التجارية

١. النشاط التجاري

يذكر بعض الباحثين[٦] أن غزو الوندال لشمال إفريقيا قد أدى إلى تدهور التجارة في حوض البحر المتوسط، إذ لم يقتصر الأمر على عرقلة العلاقات التجارية بين روما وشمال إفريقيا فحسب، بل تعدى ذلك إلى عرقلة هذه العلاقات بين غرب البحر المتوسط وشرقه، خاصة بعد استيلاء الونداليين على جزيرة صقلية وسردينيا وكورسيكا وجزر البليار، وانتهاجهم عمليات القرصنة من السلب والنهب التي بلغت مناطق وجزراً عديدة[٧].

---

(١) تغريد علي شعبان، الحيوانات الوحشية ، ص ص ١٦٣-١٧٥.

(2) **Kaddache,M.,op.cit.,p.214.**

(٣) كوريبوس، مصدر سابق ، ص ٥٠.

(٤) هذه القبيلة من القبائل الليبية غير المعروفة حتى الآن، ينظر: هامش (٣٧) كوريبوس ، مصدر سابق، ص٥٠.

(5) **Picard,G.C.et Baillon,M., " Le Théâtre Romain De Carthage",Afrique du Nord Antique et Medievale, 1992,Paris, p.13.**

(6) **Deanesly,M.,op.cit.,p.79;Perkins, W.," Excavations in the Severan Basilica at Lepcis Magna",P.B.S.R ,Vol.20,1952, p.118.**

(٧) إبراهيم علي طرخان ، شمالي إفريقية والوندال ٤٣٩-٥٣٤م، ص ١٢٨.

على أن العلاقات البحرية بين شمال إفريقيا و باقي مناطق البحر المتوسط كانت تعرقلها الطبيعة الجغرافية للسواحل البحرية أيضاً، حتى أن سالوست يؤكد على أن البحر كان خالياً من الموانيء و إن حمل هذا التعبير شيئاً من المبالغة[١].

ويشير بروكوبيوس[٢] في هذا السياق إلى أن عمليات القرصنة التي بدأت على صقلية وإيطاليا في زمن جيزريك قد أخذت تستأنف مع بداية كل ربيع التوجه شرقاً لمهاجمة ألليريا وبلاد البيلوبونيز وكل الجزر القريبة منها .

ويبدو أنه من المبالغة وصف تدهور النشاط التجاري، بل وتعطيله على مدى الفترة الوندالية بكاملها، إذ يجب التأكيد على أن هذه الفترة مرت بمرحلتين مهمتين كانت انعكاساتهما السلبية والإيجابية واضحة على الحركة التجارية بين الشرق والغرب .

المرحلة الأولى: هي مرحلة حكم جيزريك والتي نشطت فيها أعمال القرصنة والاعتداءات المستمرة على الإمبراطورية الرومانية الغربية والشرقية، وقد جاءت الحملات البحرية من هاتين الإمبراطوريتين كردة فعل طبيعية على هذه الاعتداءات وكانت حملة عام ٤٦٨م الفاشلة أكبرها حجما وأكثرها كلفة وعدة[٣]. وربما كانت الدوافع التجارية إحدى أسباب هذه الحملات .

المرحلة الثانية: والتي تبدأ منذ توقيع اتفاقية السلام الدائم بين الونداليين والإمبراطور الشرقي زينون عام ٤٧٤م[٤]وحتى نهاية المملكة الوندالية عام ٥٣٤م، فقد شهدت تحسناً ملحوظاً في العلاقات التجارية لاسيما مع بداية عهد هونريك الذي شجع التجار حتى أصبحت قرطاجة عاصمة تجارية من جديد[٥]. ومن المرجح أن التجار الشرقيين

---

(١) أسطفان كسيل، " شمال إفريقيا في عالم البحر الأبيض المتوسط "، ترجمة محمد التازي سعود ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس ، مطبعة النجاح الجديدة ، المغرب، ١٩٨٥م ، ص ١٤.

(2) **Procopius,Hist.War.,III.,V.٢٣-25.**

(٣) كلفت هذه الحملة خزينة الإمبراطورية البيزنطية ٤،٥٠٠،٠٠٠ صولدي وأكثر من ١١٣ سفينة ينظر :

Guerdan,R.,Byzantium:its Triumphs and Tragedy,London ,1956, p.103 ; Baynes, N.,The Byzantine Empire,Oxford University Press,1962 ,p.144.

(4) **Pavy,A.,op.cit.,p.247.**

(٥) محمد محي المشرفي ، مرجع سابق ، ص١٢٤ .

خلال هذه المرحلة قد استأنفوا علاقاتهم التجارية مع الممالك الجرمانية في بلاد الغال وأسبانيا والتي استمرت تجارتهم حتى بداية القرن السابع الميلادي(١).

وقد يدلل على هذا التحسن استمرارية الحركة التجارية في العصر الوندالي من خلال عملية البناء والتعمير التي شهدتها بعض المدن مثل حيدرة وتبسة وهيبو والتي ميزت هذه المدن بالطابع التجاري إلى حد كبير(٢). كما توضح العديد من الكنوز النقدية التي تم الكشف عنها في مدينة لبدة الكبرى استمرار النشاط التجاري في الفترة الوندالية، ويمكن اعتبار أن سكان المباني المتأخرة في هذه المدينة هم من الذين كانوا يعملون بالتجارة(٣).

صفوة القول فيما تقدم أن الونداليين مع أنهم كانوا سبباً في التغير الاقتصادي الكبير الذي حدث في القرن الخامس الميلادي، و خاصة عرقلة النشاط التجاري إلا أن ذلك كان مرتبطاً بظروف سياسية معينة في تلك الفترة، أما الأمر الآخر الذي تجدر الإشارة إليه فهو أن سيطرة الوندال على شمال أفريقيا وسقوط روما في أيدي القوط قد يكون سبباً في تنامي دور بيزنطة كوسيط للتجارة بين الجزئين الشرقي والغربي في القرن السادس الميلادي(٤).

ومن المرجح أن هيلدريك عند اعتلائه عرش المملكة الوندالية عام ٥٢٣م سعى إلي إقامة علاقات تجارية مع الإمبراطورية البيزنطية بحكم علاقاته الجيدة مع الإمبراطور جستنيان، وقد اتضحت حقيقية هذه العلاقات من خلال التجار الشرقيين الموجودين في قرطاجة والذين سرعان ما كانوا من مشجعي جستنيان على غزو شمال

---

(1) **Haywood, R.M.,Ancient Rome, New York,1967,p.602.**

(٢) شهدت هذه المدن وخاصةً حيدرة استمرار الحياة الاقتصادية وذلك بإعادة الترميمات والإصلاحات التي أجريت على العديد من المنشآت والمنازل الرومانية في العصر الوندالي في نهاية القرن الخامس وبداية السادس الميلادي ينظر :
Wells,C.M., op.cit.,pp.93-95,101;
ب. سلامة ، مرجع سابق ، ص ٥١٤.

(٣) ر.ج . جود تشايلد ، مرجع سابق ، ص ص١٩٩، ٢٠٢.

(٤) ستيفن رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧م، ص١٩٦؛ السيد الباز العريني ، مرجع سابق ، ص٨٧.

أفريقيا بعد اغتصاب جليمر العرش من هيلدريك[١]. وقد تعرض العديد من هؤلاء التجار إلى السجن وبقوا فيه حتى مجيء البيزنطيين[٢].

من جملة ما يؤكد وجود حركة تجارية نشطة نسبياً قبيل الاحتلال البيزنطي كثرة السفن التجارية التي وُجدت في ميناء قرطاجة عند دخول البيزنطيين إليها[٣]. ويشير بروكوبيوس[٤] في السياق ذاته إلي أن حشداً من التجار الأجانب والقرطاجيين المطلة منازلهم على البحر قد قدموا شكواهم للقائد بليزاريوس ضد البحارة البيزنطيين الذين سرقوا ممتلكاتهم في الليلة السابقة لدخول الأسطول البيزنطي إلى المدينة .

أما كوريبوس[٥] فيكاد يدلل بإشارة واحدة صريحة علي الحالة الجيدة التي كان يعيشها التجار في السنوات الأولى من السيطرة البيزنطية إذ يقول: « لقد عاد السلام بوفرة في الموارد ، وكان التجار يغنون في كل مكان ».

إن التجارة الخارجية للولايات البيزنطية الجديدة في زمن الإمبراطور جستنيان غير واضحة المعالم ، لكن مع ذلك فإن قراءة الحركة التجارية البيزنطية في عمومها من خلال ما يذكره بروكوبيوس[٦] ربما تعطي صورة واضحة بأن التجارة الخارجية قد بدأت تنبعث من جديد باتجاه الغرب، حيث يذكر هذا المؤرخ أن جستنيان قد كلف أحد الموظفين بفرض رسوم جمركية كبيرة على السفن الليبية والإيطالية التي تدخل ميناء القسطنطينية[٧]. وهذا ما يرجح إحياء التجارة البيزنطية مع شمال أفريقيا. يضاف إلى ذلك أن بروكوبيوس[٨]. في كتابه تاريخ الحروب يشير إلي أن سفينة القيادة أثناء حملة

---

(1) **Moderan,Y.,op.cit.,p.227; Kaddache,M.op.cit.,p.213**.

(2) **Procopius,Hist.War.,III.XX.5.**

(3) **Briki,S.,op.cit.,p.59.**

(4) **Procopius,Hist.War.,III.XX.22-25.**

(٥) كوريبوس، مصدر سابق ، ص٧٦.

(٦) حول سياسة جستنيان التجارية وأساليب استغلال التجار وعلاقة كل ذلك بالمعاملات المالية ينظر :
Procopius,Anecdota.,XX.1-5,XXV.

(7) Ibid,XXV.8.

(8) Procopius,Hist.War.,III.XIII.23-24.

٥٣٣م كانت محملة بأعداد كبيرة جداً من الجرار الزجاجية المملوءة بالمياه، هذه الجرار يرجح بعض الباحثين أنها كانت في الغالب لأغراض تجارية[١].

وقد يدعم إشارات هذا المؤرخ الدراسات الأثرية الميدانية التي أجريت على بقايا الجرار الشرقية التي تم الكشف عنها في المنطقة، وخاصة في قرطاجة في القرن السادس الميلادي. إذ يتضح من الكمية الكبيرة للجرار الشرقية التي يرجع تاريخها إلى القرنين الخامس والسادس والتي وجدت بمنطقة قرطاجة ازدياد حركة الرحلات التجارية التي ساهمت السفن التجارية فيها، وذلك بنقل الفخار الأفريقي المختوم (TSA) إلى القسطنطينية وأثينا ومنطقة أنثيوس، وبطريقة عكسية كانت هذه السفن تجلب معها جراراً مملوءةً بالزيت من سوريا، والنبيذ من فلسطين إلى قرطاجة[٢].

تشهد التنقيبات الأثرية الحديثة على خصوصية الواردات الشرقية بضبط أعداد كبيرة من الجرار الشرقية من المجموع الذي تم إيجاده بميناء قرطاجة ، إذ كشف عن النسب المتنوعة لهذه الواردات وفقا لفتراتها الزمنية المختلفة[٣].كما يتضح من (الجدول (١)).

إن الجرار الشرقية التي كانت تحتوي علي الزيت شكلت أكثر من خمس إجمالي مجموع الجرار خلال القرنين الخامس والسادس، وهو ما يطرح مسألة أن استيراد الزيت الشرقي إلى قرطاجة كان بسبب نقص في الإنتاج المحلي[٤]. لكن هذا لا يعني أن زيت شمال إفريقيا لم يكن من ضمن الصادرات التي كانت تصدر إلى الشرق وتحديداً إلى القسطنطينية ، بل إن صادرات الزيت الإفريقي استمرت وبكميات كبيرة حتى الفتح الإسلامي في منتصف القرن السابع[٥].

---

(1) **Deanesly,M.,op.cit.,p.83; Bury, J.B.,op.cit.,p.129.**

(2) **Clay,T.," Carthage et son commerce dans L`antiquité Tardive", Afrique de Nord Antique et Medievale, 1992, Paris,p.352; Jean-Claude Cheynet,op.cit.,p.38.**

(3) **Briki,S.,op.cit.,p.60.**

(4) **Caly,T.,op.cit.,p.354;**

م . ولفورد، " تجارة قورينائية "، ترجمة مصطفى عبد الله الترجمان ، مجلة آثار العرب، العدد الرابع، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ١٩٩٢م، ص٢٨.

(5) **Raven,S.,op.cit.,p.216; Jones, A.H.M.,Lat.Rom.Emp.,Vol.2,pp.824,845.**

وقد يكون الزيت والنبيذ الشرقي الذي جُلب إلى المنطقة كان بناءً على رغبة من الطبقة الارستقراطية الشرقية الجديدة التي بدأت في الاستيطان مع بداية الاحتلال البيزنطي، وإذا ما تم القياس مع مصر من حيث إن الكنيسة المصرية قد عملت على استغلال أموالها في التجارة الخارجية في القرن السابع الميلادي[١] فإن الكنيسة في شمال أفريقيا قد تكون ممن ساهم في الحركة التجارية، ليس من خلال

(١) مصطفي العبادي، مرجع سابق ، ص ص٢٨٤-٢٨٥.

الواردات التي تجلب إليها فحسب بل حتى من الصادرات الموجهة إلى الإمبراطورية البيزنطية. خاصةً بعدما حظيت بدعم الإمبراطور جستنيان وغدت الكنيسة قوة اقتصادية ضخمة(١).

مهما يكن من أمر فإن التحسن الذي حدث في النشاط التجاري يمكن إرجاعه إلى إعادة استخدام البيزنطيين للنظام التجاري الروماني من خلال استمرارية العمل بالمنشآت والبنايات الرومانية القديمة وتطويرها إلى حد ما بما يخدم الحركة التجارية التي نتج عنها تصدير المنتجات الغذائية الإفريقية من شمال أفريقيا كالقمح والزيت، وفي المقابل استقبال المنتجات الشرقية المصنعة ذات الجودة العالية(٢).

وفي هذا الإطار سعت الإمبراطورية البيزنطية إلى إعادة تنظيم الطرق البرية(٣) والبحرية ليكتمل ربط شبكة الطرق المؤدية في النهاية إلى القسطنطينية وضمان حرية الحركة التجارية معها، وأوضح مثال علي ذلك هو إعادة توجيه أهم السلع التجارية وهو القمح الذي يأتي من مصر وإفريقيا وتغير وجهته من روما لصالح القسطنطينية(٤)، على أن السواد الأعظم من صادرات القمح كانت تأتي من مصر مقارنة مع صادرات شمال أفريقيا(٥). (ينظر الخريطة رقم٦).

بالنسبة للتجارة الداخلية فإن الفترة الممتدة من القرن الرابع إلى السابع قد تعرضت لتغيير اقتصادي نتج عنه انكماش التجارة ، وبذا انتهت التكاملية التي كانت تتسم بها العلاقة بين منطقة ساحل البحر المتوسط والمناطق الداخلية، وكان الدور المهم في ذلك للجمل الذي وسع من عملية التبادلات التجارية بين شمال

---

(١) نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، ص١٨٥.

(2) **Maurin, L.," Thuburbo Majus et la Paix Vandale", C.T, Tome.XV,année 1967 ,Tunis, pp.253-254; Chaouache, H.,op.cit.,pp.45-46.**

(3) **Bury,J.B.,op.cit.,p.143.**

(4) **Jean-Claude Cheynet.,op.cit.,p.38;**

خليفة بن ناصر ، صلاح هادى الحيدري ، مرجع سابق ، ص٦٥.

(5) **Durliat,J., De La Ville Antque à la Ville Byzantine: Le Probleme des subsistances, Paris,1990,p.227.**

أفريقيا والسودان في القرنين الثالث والرابع الميلاديين على أن الحدث الرئيسي في حياة سكان المناطق الساحلية كان متمثلاً في الغزو الوندالي(١).

لكن هل الغزو الوندالي هو المعطل الحقيقي للتجارة الصحراوية ؟

إن الإجابة على هذا السؤال تستوجب العودة إلى فترات سابقة لهذا الغزو ولظروف معينة كانت سبباً في تدهور وانحسار التجارة الصحراوية.

ترجح بعض الأدلة الاجتماعية والأثرية والاقتصادية استناداً لما ذكره كوريبوس من أن الإمبراطور مكسيميان في نهاية القرن الثالث الميلادي قام بشن عملية عسكرية على مناطق غرب ليبيا الحالية لتخفيف ضغط القبائل المحلية بقيادة لواته على المدن الساحلية التي كسدت حركتها التجارية مع الجنوب وحاولت تطوير نفسها على عجل مما زاد في إرهاقها مادياً(٢). ويرجح أيضاً أن القوافل التجارية تحولت إثر ذلك من لبدة الكبرى إلى مدينة صبراتة نتيجة تواجد قبيلة لواته في تلك المناطق(٣).

في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلادي تجددت هجمات القبائل الليبية على المدن الساحلية في إقليم المدن الثلاث والمدن الخمس وكان من أشهر هذه القبائل المازيك والأستوريان والمكاي(٤)وكانت قبيلة الأوستوريان التي شنت هجماتها في كل الجهات قد استخدمت أسلوبها الحربي في اجتياح المناطق الريفية من قطع الأشجار وتخريب المباني الزراعية وقتل ملاك الأرض وسرقة غلالها علاوة

---

(١) أ . لاروند، " التنمية الزراعية في ليبيا في عهد الرومان وتأثيرها على الاقتصاد الليبي – الروماني قبل الفتح الإسلامي "، (ليبيا القديمة) تقرير ودراسات اليونسكو المطبعة الكاثوليكية ، لبنان ١٩٨٨م ، ص ص ٢٠ –٢١ ؛ أسطفان كسيل ، شمال أفريقيا في عالم البحر الأبيض المتوسط، ص١٢ .

(٢) ينظر هامش (٤٤) كوريبوس ، مصدر سابق، ص٤٠.

(٣) محمد الطاهر الجراري ، موقف القبائل الليبية من الحكم الروماني ، ص٧٤ .

(٤) حول علاقة المدن الخمس بالمدن الثلاث و الهجمات التي كانت تتعرض لها من القبائل الليبية خلال هذه الفترة وغيرها ينظر :

Roques , D., Synésios de Cyrène et la Cyrénaique Du Bas-Empire , Paris ,1987, pp .120 - 121;

عبد السلام محمد شلوف ، ظروف انتقال العاصمة من قوريني إلى طلميثة ثم إلى سوسة في قورينايقا ٢٩٧–٦٤٢ م (رسالة ماجستير غير منشورة) إشراف فوزي فهيم جاد الله ، جامعة قاريونس ، ١٩٨٤ م ، ص٢٥٣.

على فرض الحصار المستمر على المدن الساحلية[١]. وقد أدى هذا الوضع إلى قطع الطريق التجاري بين قرطاجة والإسكندرية بسبب هذه الهجمات، واستمر هذا الانقطاع حتى منتصف القرن السادس الميلادي[٢].

على أية حال فإن التجارة الداخلية في العصر الوندالي من المرجح أنها لم تشهد تحسناً ملحوظا واستمرت في تدهورها. سيما إذا أُخذ في الاعتبار سياسة الوندال في تدمير حصون وأسوار المدن الساحلية ماعدا قرطاجة وبعض المدن الأخرى[٣]. وكان ممن تعرض لمثل هذه السياسة التدميرية مدينة لبدة الكبرى التي يصفها بروكوبيوس[٤] في كتابه البنايات في موضوعين مختلفين أنها لم تكن عامرة بالسكان في معظمها وأن جزءاً كبيراً منها كان مغطى بالرمال .

يبدو أن هذه الوضعية المتردية كانت تعيشها مدينة لبدة الكبرى وباقي مدن الإقليم، وعلى الرغم من عملية الإحياء وإعادة البناء التي شهدتها زمن الإمبراطور جستنيان[٥] فإن الطرق التجارية قد بدأت في التوجه غرباً نحو مدينة قرطاجة وما جاورها . يدل على ذلك الدراسة الحديثة التي أجراها ت. جاراد (T.Garrad) وبين فيها من خلال بعض المسكوكات أن تجارة الذهب عبر الصحراء التي بدأت في القرن الرابع اتسع نطاقها اتساعاً كبيراً في القرن السادس وكانت تونس وجهة هذه التجارة[٦]. وقد يكون لمدينة ثوبوربوماجوس[٧] (Thuburbomajus) التي تقع على مفترق طرق

---

(١) مصطفي كمال عبد العليم ، مرجع سابق ، ص١٧٦؛
Mattingly,D.J., Lagu.Lib.,p.105.

(٢) جون رايت ، مرجع سابق ، ص٧٢ ؛ ر.ج . جود تشايلد ، مرجع سابق ، ص٢٤٦.

(3) **Goodchild, R.G.and Perkins,J.B.W.," The Roman and Byzantine defences of Lepcis Magna" P.B.S.R ,Vol. 21,1953,p.71.**

(4) **Procopius, Buildings.,Vl., IV.1-2,VI.IV-6.**

(٥) عبد السلام محمد شلوف، ظروف انتقال العاصمة من قوريني إلى طلميثة ثم إلى سوسة في قورينايقا، ص٢٨٧ ؛
Perkins,W.,op.cit.,p.118.

(٦) حول التجارة الصحراوية في الفترة البيزنطية ينظر: د. لانج، " المجتمع في منطقة بحيرة تشاد في نهاية الفترة البيزنطية قبل الفتح الإسلامي" (ليبيا القديمة) تقرير ودراسات اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، لبنان ١٩٨٨، ص٢٦٠.

(٧) تقع هذه المدينة في هنشير كاسباط في سهل غني على بعد ٧٠كيلو متراً جنوب غرب قرطاجة وفي قلب ولاية زوجتانيا ، ينظر :
Maurin, L., op. cit.,p.226.

مهمة وعلى مقربة من العاصمة قرطاجة دور الوسيط التجاري البارز بين المدن الساحلية و المناطق الداخلية حيث تشير البنايات العامة للقرنيين الخامس والسادس الميلاديين إلى وجود نشاط اقتصادي كبير يبرهن على علاقة ناجحة ومربحة، وإن كان هذا الجهد مخصصاً في أكبر جزء منه إلى البنايات الدينية المسيحية(١).

خلاصة القول أن جستنيان قد حاول جعل المنطقة الداخلية من أوجلة شرقاً إلى غدامس غرباً تدخل ضمن سيطرة حكومة القسطنطينية رغم اختلاف هذه المنطقة جغرافياً واقتصادياً واجتماعياً، في إيماءة منه إلى استمرارية السلطة الرومانية السابقة(٢) ويتضح ذلك جلياً من خلال اتفاقية السلام الدائم التي عقدها جستنيان مع مدينة غدامس(٣) في جو لايخلو من المسحة الدينية المسيحية التي صُبغتْ بها هذه المعاهدة، وهو ما يدعو إلى مقارنة هذا الوضع التبشيري بالمسيحية مع تفعيل النشاط التجاري لصالح الإمبراطورية البيزنطية(٤).

وهكذا إذا ما تم التسليم بأن عصر جستنيان هو العصر الذهبي للتجارة البيزنطية فإن الإشكالية القائمة في شمال أفريقيا حول التجارة هي في كيفية التوفيق بين التحسن الذي طرأ على التجارة في هذه الفترة من جهة ، وبين الصعوبات الكبيرة والكثيرة التي عاشت فيها الأوضاع السياسية والعسكرية في المنطقة بأسرها.

٢. الضرائب

---

(1) **Maurin, L.,op.cit.,pp.251,253-254.**

(2) **Roques, D.,op.cit.,p.121;**

عبد اللطيف البرغوثي ، تاريخ ليبيا الإسلامي ، من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر العثماني، منشورات الجامعة الليبية ، دار صادر، بيروت ، ص٣٠.

(3) **Procopius, Buildings.,VI.III.9-11.**

(٤) حول انتشار المسيحية في المملكة السودانية ، ينظر : أحمد عطية رمضان ، مرجع سابق، ص ص١٢٦ وما بعدها ؛ كولين ماكيفيدي ، مرجع سابق ، ص٧٣.

يذكر بروكوبيوس[1] أن القائد الوندالي جيزريك قد أعفى جميع الونداليين من دفع أي نوع من أنواع الضرائب على الأرض التي منحت لهم، في حين أن الأرض الأقل خصوبة والتي بقيت في أيدي مالكيها السابقين قد خضعت لتأدية ضرائب باهظة للحكومة الوندالية، وقد يكون الأمر عكس ما ذكره بروكوبيوس من حيث إن الونداليين قد سلكوا سياسة تتسم باللين نسبياً مع السكان المحليين، وخفضوا الضرائب التي كانت مفروضة عليهم[2] إلا إذا اقتصر هذا المؤرخ في حديثه على تعامل الونداليين مع أملاك وأراضي الكنيسة الكاثوليكية، فذلك يأخذ منحى آخر. ومع هذا فإن السياسة الضريبية التي اتبعها البيزنطيون فيما بعد كانت جد فادحة، فقد أصبحت الأمور أسوأ عن طريق فساد الإدارة وبيع وشراء المناصب، وتفاقم الوضع إلى حد فرض الضرائب على الفقراء مرتين في السنة[3] .

إن الإدارة المالية في زمن الإمبراطور جستنيان تعسفت في فرض الضرائب ولجأت إلى مختلف أساليب الإكراه في جمعها حتى توفر للإمبراطور السيولة النقدية اللازمة لتحقيق مشروعاته الضخمة[4] وقد أكد بروكوبيوس[5] أن تحصيل مثل هذه المبالغ الضخمة من أجل احتياجات الحرب على شمال أفريقيا كان من ضمن المناقشات المطولة بين الإمبراطور وجهاز إدارته المالية .

بعد الغزو البيزنطي أراد الإمبراطور أن يكون رعاياه قادرين على دفع الضرائب التي كان في حاجة إليها لإحياء خزائنه ومجابهة تكاليف الحروب في شمال إفريقيا والتمردات المتفاقمة[6] التي أخذت في ازدياد مع اتساع ابتزاز الموظفين وجباة

---

(1) **Procopius, Hist. War.,III.V.14-16 .**

(2) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، مرجع سابق، ص١٢٣.

(3) **Raven,S.,op.cit.,p.217;**

أحمد بن عامر ، مرجع سابق ، ص٩٠؛ أحمد توفيق المدني ، مرجع سابق ، ص ١٤٢.

(4) وسام عبد العزيز فرج، مرجع سابق ، ص١٨٢ ؛ إسماعيل مطهر ، مرجع سابق ،ص١٥٦.

(5) **Procopius,Hist.War.,III.X.1-3.**

(6) **Kaddache,M.,op.cit.,p.219.**

الضرائب ونهب الجنود وتمردهم[١]. الأمر الذي جعل النظام الضريبي في المنطقة يواجه صعوبة تحصيل الضرائب ولعدة سنوات[٢].

في العصر الروماني سعت التشريعات الرومانية إلى ربط المزارعين بالأرض وإلحاقهم بالتبعية من خلال قوانين الجباية التي أخذت تتطور إلى مسؤولية الجباية الجماعية التي يتكفل بها الملاك الكبار مقابل تبعية المزارعين الصغار لهم، وهو النظام الإقطاعي الذي أفضى إلى تنامي صفة القنية أواخر القرن الرابع وما بعده[٣]، وقد يكون اعتماد هذه التشريعات وتشجيع التنمية الزراعية مدفوعاً بعوامل سياسية أكثر منها اقتصادية لغرض تثبيت القبائل شبه البدوية بالأرض ، مما يساعد على حل المشاكل الإدارية المعقدة وكذلك سد حاجات روما خاصة من الزيت والقمح[٤]

وقد حاولت الإمبراطورية البيزنطية ترسيخ هذه السياسة، سياسة التبعية والتوطين بإلزام المستعمرين الجدد على الاستقرار في أرض غيرهم[٥] وعمدت على خلق منافسة كبيرة بين الملاك الكبار في المطالبة بإرجاع المزارعين الفارين من أراضيهم بقصد ضمان استمرار دفع الضرائب[٦]وقد قام الإمبراطور جستنيان بإرسال موظفين خاصين إلى شمال إفريقيا لتقدير قيمة الأراضي ، وفرض ضرائب جديدة وكبيرة أيضاً[٧].

إن الحديث على السياسة الضريبية للإمبراطورية البيزنطية في العموم أثناء حكم الإمبراطور جستنيان يصفها بروكوبيوس[٨] بالكارثية، إذ استهدفت بالدرجة الأولى مالكي الأراضي الذين ضاعت آمالهم في الحصول على الرزق وتأمين أسباب الحياة .

---

(1) محمد على دبوز ، مرجع سابق، ص٤٤٥ ؛ بوللو_ بي كواهي ، مرجع سابق، ص٢٦٩.

(2) **Jones,A.H.M.,Lat .Rom.Emp.,Vol.1.p.283.**

(٣) محمد البشير شنيتي ، مرجع سابق ، ص٤١ ؛ مصطفى كمال عبد العليم ، مرجع سابق، ص ص١٧٢ – ١٧٣.

(٤) بوفيل ، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ، ترجمة الهادي أبو لقمة ، محمد عزيز ، ط٢ ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، ١٩٨٨ ، ص ٩٢.

(5) **Saumagne,C.,Sur.Col.Byz.,pp.295-296.**

(6) **Bel Khodja, K.et Autres.,op.cit.,p.261;**

هـ. إيدرس بل ، مرجع سابق، ص١٧٦.

(7) **Raven,s.,op.cit.,p.215.**

(8) **Procopius, Anecdota.,XXIII.11-22.**

فالعبيد الذين يعملون بأجر يومي، والمزارعون الذين يقدمون منتجاتهم لملاك الأرض وهؤلاء الملاك الذين يدفعون الضرائب مقابل الأرض التي يملكونها ، كل هؤلاء لم يكن يهمهم صفة الحاكم الجديد ، مادامت البنية الاقتصادية لن تتغير إلى الأسوأ لكن على العكس تماماً فقد تفاقم التسلط الضريبي وبدأ في تزايد مستمر وبلغ مستويات غير محتملة خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي تحت حكم البيزنطيين(١).
على أن النظام المالي البيزنطي رغم التطورات المستحدثة فيه إلا أنه صار على غرار النظام الروماني القديم ، فكانت الضريبة العامة تؤخذ من غير المالكين وتعفى منها المدن الكبرى، أما الضريبة التي تستوفي من العقارات والأملاك فإنها تتم بوحدات ثلاث هي العشرية والمئوية والألفية، في حين كانت جميع الضرائب تجبى عن طريق فرق من الوكلاء وموظفي الضرائب(٢).

ومنذ القرن الرابع الميلادي أخذ النظام المالي البيزنطي يستبدل الضريبة العينية بما يعادلها من المال، وقد تحقق مذ ذاك الحين هذا التحول الضريبي وصار دفع الضرائب النقدية إجبارياً(٣). ولكن إلى جانب الضرائب المدفوعة نقداً ظلت الضرائب والغرامات العينية التي تجبى تحت اسم انونا(٤)(Annona) إلى جانب الأعباء والنفقات الاستثنائية وضرائب صيانة الجسور والطرق(٥).

كانت ضريبة القمح أنونا من أهم الضرائب الرومانية التي استمرت جبايتها في العصر البيزنطي، كما تنوعت كمية وطرق تحصيلها في القوانين البيزنطية، فقد احتاجت القسطنطينية نحو ثمانية ملايين مد من القمح سنوياً بإضافة الإمبراطور

---

(1) **Laroui,A.,op.cit.,p.74.**

(2) **Diehl, C.,Etudes Byzantines ,Paris,1905, pp.124-125.**

(٣) فتحي عثمان ، مرجع سابق ، ج٣، ص ص١٠٤-١٠٥.

(٤) يقصد بالأنونا هي الضريبة السنوية التي كانت تدفع قمحاً ، وقد بدأ منذ القرن الثاني الميلادي استبدال منح القمح للرومانيين بالخبز واتسعت شبكة التوزيع لتشمل الزيت واللحم والخمر ينظر : آسيا مسعودى بوعجيمي،" إنشاء وتطور المرافق الأساسية للتجارة الرومانية في المغرب خلال العهد الإمبراطوري الأول" ، حوليات جامعة الجزائر ، العدد الثامن أفريل، ١٩٩٤م ، ص١٥٩.

(5) **Diehl, C.,Etu.Byz.,p.125.**

ثيودوسيوس عام ٣٩٢م لأنونا القسطنطينية ١٢٠ مداً يوميًا، وأكد جستنيان هذه الإضافة في قانونه، ولم تتغير النسبة في الفترة ما بين ٣٩٢-٥٤٣م، كما أشار قانون ١٣ إلى ضريبة القمح التي بلغت ثمانية ملايين مداً سنوياً[١]. وقد قدرت الأنونا في منتصف القرن الخامس الميلادي في شمال إفريقيا بنحو أربعة صولدي ، وهي نفس النسبة التي كانت زمن الإمبراطور جستنيان في مصر، أما أنونا شمال إفريقيا في حكم هذا الإمبراطور فإنها قدرت بخمسة صولدي توضع في راتب الموظفين الحكوميين[٢]. وكانت ضريبة المواريث تقدر بنحو خمسة في المائة[٣].

شمل تأثير هذه الضرائب جميع طبقات المجتمع عدا الأملاك العسكرية التي كانت معفية ومستثناة من أي ضريبة إضافية إلى جانب أملاك الكنيسة التي لم تتحمل أعباء ونفقات مفرطة[٤]. واعتقد في هذا السياق أن محاولات جستنيان نشر المسيحية قد ارتبط بإعفائه معتنقي الدين الجديد من أي ضرائب قد يضطرون لدفعها. وهذا ما يذكره بروكوبيوس[٥] بالضبط عندما يتحدث عن مدينة بوريوم[٦](Boreium)، التي كانت وظلت حتى زمن الإمبراطور جستنيان لا تدفع أي ضريبة، ويمكن قياس ذلك على واحتي أوجلة وجالو اللتين دخل سكانهما بالكامل في المسيحية وبنى لهما كنيسة أم الرب ، لتعليمهم الدين المسيحي الجديد ويكاد ينطبق الأمر أيضاً على سكان واحة غدامس الذين أدخلهم جستنيان جميعًا وطواعية في الديانة المسيحية . وإذا كان ذلك كله لا يخلو من مبالغات المؤرخ بروكوبيوس وخاصة في الدخول الكامل لسكان هذه الواحات في المسيحية فقد يوضح هذا الاعتناق أو الاعتقاد الجديد أنه كان مشروطاً لإعفائهم من الضرائب و ربما لمساواتهم مع غيرهم من المسيحيين .

---

(١) زبيدة محمد عطا ، مرجع سابق، ص٤٩؛

Durliat, J., Vil. Ant. Vil., pp.217-218.

(2) **Jones, A.H.M., Lat.Rom.Emp.,Vo1.2.,p.670.**

(3) **Baynes,N.,op.cit.,p.127.**

(4) **Diehl,C.,Etu.Byz.,p.125.**

(5) **Procopius, Buildings.,VI.II.11-12,14-20,VI.III,10-11.**

(٦) يقع موقع بوريوم في قمة رأس بو قرادة وهو لسان صغير من الأرض داخل البحر على بعد ١٢ كيلو متراً شمال شرق قرية مرسى البريقة ، ينظر: ر.ج . جود تشايلد ، مرجع سابق ، ص٣٠٤.

مجمل القول فيما يتعلق بالضرائب ما يوضحه بروكوبيوس[١] في تاريخه السري من أن « لفظ الضرائب قد أصبح كلمة سارية على كل لسان بشكل طبيعي في هذه الفترة بالذات » . وهو ما يعطي تصوراً واضحاً على انتشار وتداول هذه الكلمة في الحياة الاقتصادية اليومية ، وعلي شدة وطئتها على الناس.

٣. العملة

شهدت العملة تدهوراً واضحًا في النصف الأول من القرن الخامس إثر انقسام الإمبراطورية الرومانية عام ٣٩٥م ، وكان التذبذب الذي طرأ على العملة الرومانية و البيزنطية ناتج بالدرجة الأولى عن هجمات القبائل الجرمانية على الغرب والتي أدت إلى تدهور الحياة الاقتصادية في كلا الجانبين الشرقي والغربي للإمبراطورية[٢].

إن الوندال الذين احتلوا شمال أفريقيا منذ عام ٤٢٩م من المرجح أنهم كانوا قد سكوا عملاتهم في بلاد الغال ثم أسبانيا وقلدوا الطابع الروماني في ضرب عملتهم[٣]. ومع استقرارهم بشمال إفريقيا قام قائدهم جيزريك بسك النقود الوندالية مستفيداً من دار سك العملة التي كان يستخدمها الرومان في قرطاجة[٤]. وكانت أكثر العملات الوندالية انتشاراً ووضوحاً هي تلك التي تداولت في عهد الملوك الوندال (جونثاموند ، تراساموند ، هيلدريك ، جليمر). حيث سجلت هذه العملات أسماء هؤلاء الملوك على العديد منها، في حين كانت عملات جيزريك وابنه هونريك رديئة الصنع و لم تحمل اسم أي ملك منهما ، وكانت عملاتهما تقليداً لسك الرومان لعملاتهم كالعملات المعدنية التي ضربت في زمن حكم هونوريوس[٥].

---

(1) **Procopius, Anecdota ., XXIII.15-17** .

(2) **Carson, R.A.G., Coins of the World, Great Britain, 1975,pp.185-186; Longuet, H., Introduction à la Numismatique Byzantine, London, 1961,pp.63-64.**

(3) **Wroth, W., Western & Provincial Byzantine Coins of the Vandals, Ostrogoths and Lombards, London, p.XV.**

(٤) حول سك العملة في العصر الوندالي في قرطاجة، ينظر :
Whitting, P.D.,Byzantine Coins,London,1973 , pp.89-90;
عبد الحفيظ محمد على ، مرجع سابق ، ص٣٤.

(5) **Wroth,W.,op.cit.,pp.XV-XVI; Longuet, H., op.cit.,p.65.**

حملت النقود الوندالية الزي الروماني الذي ارتداه ملوكهم منذ عهد جونثاموند تشبهاً بالرومان ، وكذلك إكليل الأباطرة وحلة القيادة ودرعهم ، وكانت النقائش تسمي الملك مولانا أوملك ، وغالباً ما كانت تمثل امرأة تمسك بيدها سنابل القمح التي ترمز إلى رخاء وسعادة قرطاجة[١]. وقد تم الكشف عام ١٩٣٠م في مدينة لبدة الكبرى على كنز يضم ٢١١٠ قطع من العملات الصغيرة ، وكان الكثير من هذه النقود ذات طبعة غير متقنة ويبدو أنها قد سكت من قبل قبيلة أو شعب أقل مدنية من الوندال بسبب رداءة صناعتها ، وهو ما يرجح أن هذا الكنز يتكون من عملات محلية تعود للفترة الوندالية اختلطت فيها الطبعات البيزنطية الرسمية بالنماذج المحلية[٢].

كان الوندال خلافاً للقوط الغربيين والشرقيين قليلاً ما يستخدمون الذهب في عملاتهم ، إذ اقتصر ضرب العملة عندهم في الغالب على الفضة والبرونز[٣]. ويظهر تدني قيمة العملات البرونزية إلى حد كبير مقارنة بالصولد الذهبي من خلال عقود ألواح ألبارتيني في نهاية القرن الخامس الميلادي، وقد بدأت الأسعار بالتأكيد في الانخفاض لاسيما ثمن الأراضي الذي انحط انحطاطاً كبيراً بناءً على ما أوضحته هذه العقود[٤].

أثناء حكم الملك هيلدريك و نتيجة لعلاقة الصداقة التي ربطته بالإمبراطورية البيزنطية سك هذا الملك عملات عليها صورة الإمبراطور جستين الأول[٥]. وكذلك الإمبراطور جستنيان[٦].ومن المرجح أن يكون الوندال أثناء حكم هيلدريك قد استعملوا العملات المعدنية التي سكت من الذهب والبرونز في الفترة المفصلية القصيرة عام

---

(١) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص٣٣٨.

(٢) ر.ج . جود تشايلد ، مرجع سابق ، ص ص٢٠٢-٢٠٣؛
Wroth,W.,op.cit.,p.XXI; Whitting,P.D.,op.cit.,p.92.

(٣) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، مرجع سابق ، ص١٢٦.

(٤) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص٣٣١؛
Durliat, J.,Gra .pro. Afr.,p.526.

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص28؛
Longuet, H .,op.cit.,p.65.

(٦) مبارك بن محمد الميلي ، مرجع سابق ، ص٣٤٦.

٥٢٧م والتـي كـان فيهـا جسـتنيان شـريك عمـه جسـتين الأول فـي الحكـم إذ صُـور الإمبراطوران جالسين جنباً إلى جنب على وجه هذه العملات[١]. (ينظر الشكل١).

بعد نجاح المشروع البيزنطي في احتلال الغرب قام جستنيان بفتح دور جديدة لسك العملات في العديد من المدن الكبرى بدءاً من الإسكندرية وحتى قرطاجة وصقلية وروما ورافينا[٢]. وكانت العملة الذهبية التي ضُربت في القسطنطينية في بداية حكم جستنيان تصور تمثالاً نصفياً للإمبراطور مع رمح ودرع على واجهة العملة في حين كـان الصـليب الطويـل علـى الكرة الأرضـية علـى الظهـر ، ومـع النصـر الـذي أحـرزه بليزاريوس على الوندال واحتفالاً بهذا النصر قام الإمبراطور جستنيان بسك عملة ذهبية جديدة عـام ٥٣٤م . ٥٣٥م ، تصـور الإمبراطـور يمتطـي حصـاناً تخليداً لانتصـاره[٣]. (ينظر الشكل٢).

لقـد سـعى الإمبراطـور جسـتنيان إلـى الاهتمـام بالعملـة فـأمر فـي القـانون ١٣ المـوظفين المكلفـين بـوزن النقـود وبخـتم السـبائك الذهبيـة وإثبـات الـوزن الصـحيح لا الاهتمام بالقيمة الاسمية لما يرد إليهم من عملات[٤].

وفيمـا يتعلـق بسـك النقـود فـي شـمال إفريقيـا، فـإن ولايتـي بيزاكيـوم والولايـة البروقنصـلية كانتـا الأكثـر عـدداً مـن حيـث المكتشـفات النقديـة البيزنطيـة علـى مـدى الفترات البيزنطيـة، حيث تم ضبط ما يقارب من ٢٠ كنزًا من النقود في وسط تونس وشمالها، وفيما يتعلق بفترة حكم الإمبراطور جستنيان فقد كانت على النحو التالي[٥]:

تاريخ و مكان الاكتشاف	التركيبية	التاريخ المقترح
ثيسدروس(الجام) ١٩٠٤م	٦٢ (صولدي)	ليون الأول إلى جستنيان الأول (٤٥٧-

(1) **Goodacre, H., A Handbook of the Coinage of the Byzantine Empire, London, 1967,p.67; Rynearson, P.F., Byzantine Coin Values A Guide, London, 1967, p.45.**
(2) **Jean-Claude Cheyent.,op.cit., p.37; Goodacre, H.,op.cit.,p.69.**
(3) **Carson, R.A.G.,op.cit.,p.199; http://en.wikipedia.org/wiki/Justinian_I .**
(٤) زبيدة محمد عطا ، مرجع سابق ، ص١٩٤.
(5) **Briki,S.,op.cit.,p.70.**

		٥٣٨م) (٥٤٠-٥٤٥م)
ليبتس مينوس (لمطة)١٩٠٩م	١٠ نقود	جستنيان الأول(٥٤٢-٥٦٥م)

لقد أظهرت النقود الذهبية المكتشفة بشكل أولي عن مؤشر الأحوال الاقتصادية الجيدة التي كانت سبباً في تحسن وضعية المنطقة اقتصادياً[١]، كما أن العملات التي تم الكشف عنها في إقليم المدن الثلاث توضح الأمر نفسه من حيث انتعاش الحياة الاقتصادية و النمو النسبي للنشاط العمراني بعد الاحتلال البيزنطي عام ٥٣٣م والذي أدى في المحصلة إلى اتساع تداول العملة من جديد[٢].

ومع بداية فتح دار العملة في قرطاجة عام ٥٣٤م بدأ سك العملة الذهبية الصولدي ولكن باختلاف قليل عما كان في عاصمة الإمبراطورية التي كان وزن الصولدي فيها ٤,٤١ جرام ، كما في (الشكل ٣- أ). علاوة على سك العملة الفضية أيضاً في قرطاجة[٣].وتظهر العملة الذهبية بشكل صولدي (جامدة) بوزن ٤,٥٥جرام من الذهب وإلى أقسامها الفرعية: النصف والثلث ، وربما بوزن ٤,٤٥ جرام التي سكت في قرطاجة[٤] ، كما في (الشكل ٣- ب) ، أما العملة النحاسية أو البرونزية فقد كانت تتكون من فولبيس بأوزان مختلفة و انتشرت على نطاق واسع[٥].

ثالثا: الصناعة

(1) **Ibid, p.71.**

(٢) الفاتوري كارافو،" دراسة عن بعض قطع العملة المكتشفة بصبراته ولبدة الكبرى "، ترجمة محمود الصديق أبو حامد، مجلة ليبيا القديمة، المجلد الخامس عشر والسادس عشر ١٩٧٨-١٩٧٩م، مطابع باردي، روما، ١٩٨٧م، ص٢١.

(3) **Carson, R.A.G.,op.cit.,p.199; http://WWW.coinarchives.com/a/Lotviewer.php? LotlD=107916&AuelD=121&Lot=1079 .**

(٤) كان وزن الصولدي الذهبي منذ زمن الإمبراطور قسطنطين يساوي أربعة جرامات، ينظر : زبيدة محمد عطا ، مرجع سابق ، ص١٩٣؛

http://www.coinarchives.com/a/Lotviewer.php?LotlD=107049&AuelD=121&Lot=1083.

(5) **Briki, S.,op.cit.,p.71; Whitting, P.D.,op.cit.,p.118.**

كان ازدهار الصناعة في شمال إفريقيا قد بدأ متزامناً مع النمو الزراعي الذي شهدته المنطقة تحت الحكم الروماني منذ بداية القرن الأول الميلادي بسبب حركة التجارة النشطة التي كانت مع روما وولاياتها الأخرى من جهة[١] والتطور الكبير الذي طرأ على موانئ الشمال الإفريقي والموانئ الإيطالية من جهة ثانية[٢].

لكن هذا الوضع القائم على تصدير السلع التجارية الأولية إلى روما والاستيراد من هذه الأخيرة المنتجات المصنعة لم يعد موجوداًَ مع مجيء الونداليين ويبدو أن هذا الوضع أدى إلى تشجيع الصناعات المحلية وتطوير بعض السلع الرومانية المصنعة في السابق التي توقفت بتوقف الحركة التجارية[٣].

وقد يكون من الإجحاف الحكم على الفترة الوندالية في شمال إفريقيا أنها فترة عطلت فيها التجارة وأهملت وتدهورت فيها الصناعة حكماً مطلقاً وقاطعاً غير قابل للنقد ، إذ يمكن إدراك بعض الملامح الاقتصادية التي كانت تعيشها المنطقة في هذه الفترة ولاسيما فيما يتعلق بالصناعة .

ففي سنة ٤٥٥م وعندما نهب الوندال روما، قام جيزريك بجلب أعداد كبيرة من الأسرى إلى قرطاجة كان من ضمنهم عدد من العمال المهرة وصناع الأسلحة والحرفيين[٤] وهذا الأسلوب في جلب الصناع والحرفيين إلى قرطاجة ربما كان يستخدم مع كل عملية سلب لجزيرة أو بلاد بنسب متفاوتة وطرق مختلفة .

كانت صناعة السفن في دار الصناعة بقرطاجة من أهم الصناعات التي تميزت بها الفترة الوندالية ، إذ استخدمت في البداية في الأعمال الحربية وعلى نطاق واسع ولكن بعد اتفاقية السلام مع البيزنطيين عام٤٧٤ م بدأ انحطاط في صناعة سفن

---

(١) عمار المحجوبي ، ولاية إفريقيا من الاحتلال الروماني إلى نهاية العهد السويري (١٤٦ق.م-٢٣٥م) ، مركز النشر الجامعي ، تونس ، ٢٠٠١ م، ص ص١٣٥-١٣٦.

(٢) حول موانئ شمال إفريقيا وإيطاليا في العصر الروماني ينظر : آسيا مسعودي بوعجيمي ، مرجع سابق ، ص ص١٦٣-١٦٥.

(3) **Chaouache,H.,op.cit.,p.45.**

(4) **Wroth,W.,op.cit.,p.XXVI;**

إبراهيم على طرخان ، شمالي إفريقية والوندال ٤٣٩-٥٣٤م، ص١٢٥.

الأسطول الوندالي[١] الأمر الذي يرجح أن العديد من السفن الحربية الوندالية قد استُخدمت في النشاط التجاري الذي بدأ في التحسن الملحوظ منذ نهاية القرن الخامس وبداية السادس بصناعة السفن من الأخشاب التي تجلب من كورسيكا[٢].

ويبدو أن الصناعات التي تمس الحياة اليومية كصناعة الملابس والأحذية والصناعة الصوفية وبعض الحرف الأخرى خاصة تلك المتعلقة بالنشاط الزراعي ، قد كانت مستمرة بصورة طبيعية على حد ما يذكره القديس أوغسطين في بداية العصر الوندالي[٣]. وهو ما ينطبق إلى حد كبير على الفترة الوندالية، كما كان للونداليين شهرتهم في صناعة حليهم ذات الطراز الجرماني والتي تم الكشف عنها في مدينة هيبو وقرطاجة وتوبوربوماجوس ومكتار[٤]. وتنوعت صناعة الحلي عندهم بين صياغة الذهب واستعمال المجوهرات من العقيق والزجاج الأحمر والأخضر والأحجار الكريمة من الفيروز والكهرمان[٥].

أما بالنسبة للفترة البيزنطية في زمن حكم الإمبراطور جستنيان فإن الآثار الكثيرة والرائعة التي تكشف عنها القلاع الضخمة والبنايات والكنائس الجديدة في عمارتها وزخرفتها ذات الطراز الفخم تنم عن حياة مدنية جديدة اختلفت ولو نسبياً عن سابقاتها، ويأتي هذا التطور في فن البناء البيزنطي من جملة ما شهدته الإمبراطورية في زمن هذا الإمبراطور[٦]، حتى عدت هذه الفترة عصراً ذهبياً أول للفن البيزنطي في مختلف النواحي[٧] وقد تم إنشاء العديد من المدن وإعادة بناء البعض من قبل الإمبراطور

---

(1) **Clay,T.,op.cit.,pp.355-356.**

(2) أسطفان كسيل ، حيوانات ونباتات شمال أفريقيا في العصور العتيقة ، ص ١٣٠.

(3) **Jones.A.H.M.,Lat.Rom.Emp.,Vol.2.,pp.848-849.**

(4) ب . سلامة ، مرجع سابق ، ص ٥١٤ .

(5) **Deanesly, M.,op.cit.,p.77.**

(٦) ب. سلامة، مرجع سابق، ص٥٢٠ ؛ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، مرجع سابق، ص ١٣٨؛ لبيب عبد الساتر ، مرجع سابق ، ص ٢٢١ .

(7) **Hoyt, R.S., op.cit.,p. 109; Hollister, C.W., op.cit., p.33.**

جستنيان، كما تم تدشين الحمامات على شرف الإمبراطور وتمتع فن الفسيفساء بنهضة بسيطة، ذلك الفن الذي تم تبنيه في عشرات من الأديرة والكنائس الجديدة(١).

إن ترميم المدن وإعادة تكبيرها قد تم تسجيله في نصب تذكارية تخليداً للإمبراطور جستنيان، لكن السمة البارزة لهذه الفترة هي الهندسة المعمارية الدينية التي أخذت المكان المهم في هذه الأعمال وعلى الرغم من تدهور الحياة المدنية الذي استمر حتى تلك الفترة ، فإن الحضارة الرومانية برزت بروزاً أخيراً مشبعاً بالتأثيرات الشرقية التي أثرت على الفنانين البيزنطيين وفي هذا المجال فإن العصر البيزنطي مقارنة بالعصر الوندالي كان استمراراً حقيقياً للهندسة العسكرية والدينية الرومانية على حدٍ سواء(٢).

من الواضح أن أعمال البناء الكبرى خاصة تلك المتعلقة بالدفاعات العسكرية قد تطلبت توفر أعداد كبيرة من العمال المهرة كبناء أسوار وجدران مدينة تبسه وبوابتها التي تحمل اسم (الباب العالي لسولومون) والتي استغرقت أعمال البناء فيها زهاء سنتين وعمل نحو ٨٠٠ عامل(٣). وهو ما يمكن أن يقاس أيضاً على مدينة لبدة الكبرى من إعادة بناء تحصيناتها وبوابتها الكبرى والعمل على استخدام الميناء بعد ترصيفه وإصلاحه من جديد(٤).

إن صناعة الفسيفساء لعبت دوراً مهماً في الحياة اليومية القديمة رغم ارتفاع تكاليف صناعتها، إذ كانت لها معامل ثابتة ومتنقلة يعمل فيها مجموعة من العمال والفنانين الذين يتقاضون أجوراً مرتفعة(٥) وقد تميز الفن المعماري الإفريقي في فترة حكم الإمبراطور جستنيان بالتأثر الشرقي الذي ظهر بوضوح في الفسيفساء الكنائسية ككنيسة الموسط قرب

---

(1) **Raven, S.,op.cit.,p.216 .**

(2) **Bel Khodja, K. et Autres., op.cit.,p.260; Beschaouch, A.,La Légende de Carthage , 1993, p.124.**

(3) **Raven,S.,op.cit.,p.215.**

(4) **Goodchild, R.G.and Perkins.W.,op.cit.,pp.55,68.**

(٥) محمود عبد العزيز النمس ، محمود الصديق أبو حامد ، مرجع سابق ، ص ١٤١ ؛ تغريد على شعبان ، الحيوانات البرية ، ص ١٨٤.

بلدة المحرص بتونس والتي تكشف عن إتقان كبير لصنَّاع الفسيفساء الأفارقة المتأثرين بالطابع الشرقي في استعمالهم للمواد المحلية الغنية بالألوان(١).

كما تظهر التأثيرات الشرقية في فسيفساء الأنهار الأربعة والجنة المأخوذة من بير فتوحة الموجودة حالياً بمتحف اللوفر بفرنسا(٢) وفسيفساء كنيسة جستنيان بصبراتة(٣). وربما كذلك الكنائس الأربعة التي بُنيت في لبدة الكبرى(٤). كما تبين مكتشفات المنازل المتأخرة والمتعلقة ببقايا الصخور والأواني الفخارية في مدينة ثوبوربوماجوس والموشاة برسوم مختومة ببصمات واضحة لرموز مسيحية خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين(٥).

من الملاحظ أن صناعة الفسيفساء قد اختلفت خلال القرن الخامس والسادس الميلاديين مقارنة بالقرون السابقة بسبب تفضيل المواضيع الزخرفية والاهتمام بالكتابات الإنجيلية أكثر من الصور سواء الحيوانية أو الإنسانية(٦).وكذلك فن النحت الذي اعتنى هو أيضاً بموضوعات تتعلق بالمسيح والديانة المسيحية، فالرموز المسيحية شملت الصليب إلى جانب الطيور والحيوانات من الحمام والطاووس والإيل على جانبي الكؤوس الكبيرة ذات العري رمزاً لينبوع الحياة (٧). وهو ما يؤكد على عدم توقف التصوير الحيواني والإنساني ليس في الفن والنحت فحسب بل أيضاً في الفسيفسائيات الكنائسية كما في كنيسة جستنيان في صبراتة وبير فتوحة السالفتي الذكر .

---

(١) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ٣٧٣.

(2) **Beschaouch,A.,op.cit.,p.124.**

(٣) محمود عبد العزيز النمس ، محمود الصديق أبو حامد ، مرجع سابق ، ص ١٢٢ ؛ محمد على عيسى ، مدينة صبراتة ، ص ٨٨.

(4) **Procopius, Buildings.,VI.IV.4; Perkins,W.,op.cit.,p.111.**

(5) **Maurin,L.,op.cit.,p.236.**

(٦) تغريد على شعبان ، الحيوانات الوحشية، ص١٨٥؛

Duval, N.,"Les Prix des concours Agonistiques en Afrique de Nord au Bas-Empire", Afrique de Nord Antique et Medievale,1992,Paris,p.38.

(٧) محمد على عيسى، " معالم من الآثار المسيحية المبكرة في ليبيا منذ بداية القرن الرابع – منتصف القرن السادس الميلادي "، مجلة أثار العرب ، العدد السادس، طرابلس–ليبيا، ١٩٩٣م، ص١٠٧.

أما عن صناعة الفخار فمع تدني إنتاجها في شمال أفريقيا بسبب التدهور الاقتصادي في القرنين الرابع والخامس(١) فإنه مع بداية القرن السادس شهدت صناعته ازدهاراً كبيراً بسبب حركة التجارة النشطة مع الشرق، حيث ثم تصدير الفخار الإفريقي المختوم (TSA) إلى كل من القسطنطينية وأثينا وانثيوس(٢).وقد تكون النشاطات الحرفية بمقاطعة بيزاكيوم كما في باقي الشمال الإفريقي قد ارتبطت تحديداً بالمنتجات الزراعية إذ تحولت هذه المنتجات إلى سلع تجارية بعد تعبئتها وتخزينها،وتمثل أهم هذه النشاطات الحرفية المتعلقة باستخراج زيت الزيتون(٣). إضافة إلى صناعة المصابيح الفخارية ذات الطابع المسيحي التي تعود للقرنين الخامس والسادس الميلاديين(٤).وبخصوص الصناعات الضرورية اليومية المتعلقة بالسكان المحليين فيذكر كوريبوس(٥) سلعاً لابد وأنها صنعت محلياً مثل الملابس الخشنة والعباءات الكتانية والأحذية المحلية ، فضلاً عن أحجار طحن الحبوب والتي من المرجح أنها كانت تستخدم بشكل يومي ، إضافة إلى صناعة الأسلحة من الدروع والسيوف والحراب القوية النصال المصنوعة من خشب الدردار والرماح المصنوعة من خشب الصنوبر.

رابعاً: العوامل المؤثرة في النشاط الاقتصادي

ليس مستبعداً أن النشاط الاقتصادي بمرتكزاته الثلاث الزراعة و الصناعة والتجارة وما يلحق هذه الأنشطة من مظاهر اقتصادية أخرى قد كانت رهينة عوامل مهمة أثرت فيه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ويمكن في العموم حصر هذه العوامل في الجوانب السياسية والاجتماعية والدينية .

(1) **Haywood, R.M.,op.cit.,p.601.**

(2) **Clay,T.,op.cit.,p.351.**

(3) **Briki,S.,op.cit.,p.46.**

(٤) ماريا روزاريا لا لوميا،" مصابيح فخارية من العهد المسيحي القديم مكتشفة بديماس سرت"، ترجمة عيسى سالم الأسود، مجلة ليبيا القديمة، المجلد الثامن، ١٩٧١م، مطابع ج.باردي،روما ١٩٧٤م، ص٨؛
Picard,G.C.et Baillon, M.,op.cit.,p.13.

(٥) كوريبوس، مصدر سابق ، ص ص٥٠ -٥١ ، ١٠٩، ١٢٣.

١. الأمن والاستقرار

غداة انتصار البيزنطيين على الوندال أقامت الدبلوماسية البيزنطية علاقات ودية مع العديد من القبائل المحلية المجاورة لقرطاجة، وكانت الأكثر أهمية مع ارنا في تريبوليتانيا وانتالاس وكوتزيناس في بيزاكيوم[١]. ويبدو أن السنوات الأولى للاحتلال قد مثلت فترة استقرار سياسي واقتصادي واجتماعي إلى حد كبير زمن القائد سولومون، إذ أن طموحات زعماء القبائل المحلية بالكاد كانت تذهب لأبعد من تقدير الإمبراطور لسيادتهم الفردية[٢] في الوقت الذي كانت فيه الخلافات بين هؤلاء الزعماء قائمة والعمل المشترك بينهم مفقود[٣].

من الجدير بالملاحظة أن فترة السنوات الأولى للاحتلال البيزنطي كانت تتسم بظاهرتين مهمتين: أولاً محدودية الاحتلال الذي اقتصر في عملياته العسكرية على المناطق والمدن الساحلية، ثانياً التحصينات السريعة التي أجراها البيزنطيون على البنايات الرومانية القديمة أو إنشاء تحصينات بيزنطية جديدة[٤]. على أن فترة الاستقرار والأمن النسبي التي شهدها البيزنطيون خلال العقد الأول من سيطرتهم لم تكن خالية من الثورات بالمطلق فهناك الثورة المسلحة التي قادها كوتزيناس ضد البيزنطيين في منطقة بيزاكيوم[٥]. وكذلك ثورة أبيداس في جبال الأوراس بنوميديا[٦]. إضافة إلى أن مشروع التحصينات البيزنطية خلال هذه المرحلة يوضح حالة عدم الاستقرار الأمني بسبب هجمات القبائل المحلية[٧].

---

(1) Bel Khodja, K.et Autres.,op.cit.,p.256.

(2) Raven, S.,op.cit.,p.217; Durliat,J.,Gra.Pro. Afr.,p.526.

(3) Bury ,J.B.,op.cit.,p.142.

(4) **Diehl, C.,Just.Civi.Byz.,p.179.**

(5) **Bel Khodja, K .et Autres.,op.cit.,p.256.**

(6) **Laroui, A.,op.cit.,p.72.**

(7) **Maurin, L.,op.cit.,p.250.**

إن الحروب التي اندلعت في زمن الإمبراطور جستنيان وعملية البناء والتحصين كانت تتطلب في الغالب أموالاً طائلة[١]، هذه الأموال حاول البيزنطيون جمعها باتباع سياسة الاستغلال المباشر لكافة طبقات المجتمع من فرض الضرائب والإقامة القسرية للمزارعين في أراضيهم[٢]. الأمر الذي أشاع حالة من عدم الاستقرار والأمن فكانت له انعكاساته الاقتصادية السيئة لاسيما على الزراعة التي بدأت تتحدر نحو الانحطاط .

ومع اندلاع ثورة القبائل المحلية الكبرى عام ٥٤٤م وخلال عامين امتدت الثورة لتشمل المناطق ما بين قرطاجة ونوميديا من جهة وبين بيزاكيوم وتريبوليتانيا من جهة أخرى[٣]. وزادت تهديدات هذه القبائل بصورة جدية عندما أظهرت نزعتها الاستقلالية بشكل كبير[٤]. وقد ضمنت هذه القبائل في مجملها القبائل المستقرة الممتهنة للزراعة والقبائل الرعوية و الجمالة من الرحل[٥] التي لاقت ما لاقته من تردي الأوضاع الاقتصادية بسبب الحروب التي أدت إلى تدمير ونهب المحاصيل الزراعية والقضاء على الثروة الحيوانية. وقد أكد كوريبوس[٦] حالة الدمار والخراب التي شهدتها شمال إفريقيا على لسان القائد جون تروجليتا حين قال: « إن تكاليف الحرب وهذه الأماكن بطرقاتها التي تفتقر إلى المسالك والدروب تصيب عقلي باضطراب، إذ موسم الجفاف على وشك المجيء، كما أن الإقليم نفسه فقد الكثير من موارده في الحرب وهو الآن وا أسفاه أضعف من أن يتحمل المزيد من الدمار، إن جيشنا الهائل لن يتحمل كارثة المجاعة » .

---

(1) **Jean-Claude Cheynet.,op.cit.,p.35**

(٢) جون رايت ، مرجع سابق ، ص٧٠؛ محمد المرزوقي ، مرجع سابق ، ص١٤٠؛
Bel Khodja, K.et Autres.,op.cit.,p.261.

(3) **Raven,S.,op.cit.,p.218.**

(4) **Saumagne,C.,Reco.Byz.Afr.,p.282.**

(5) **Chaouache,H.,op.cit.,p.46;**
شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص٣٦٦ .

(٦) كوريبوس ، مرجع سابق ، ص ١٣٧ .

وقد كان لقبائل الدواخل الليبية دورها في هذا الدمار، إذ انكفأت على نفسها وتفرغت هي الأخرى لشن الغارات على المزارع والواحات ، ودخلت في نزاع مع بعضها البعض، الأمر الذي أدى إلى إفقار المزارع وانحطاط السكان إلى مستوى الرعاة الرحل[١].

إن السكان في شمال إفريقيا عانوا من جور الحكام البيزنطيين وقسوة جباة الضرائب[٢]. ثم إلي الاستمرار فيما يسمى بحرب الإعادة . إعادة السيطرة الرومانية على المنطقة . قد أدى إلى تدهور الأحوال الاقتصادية تدهوراً كبيراً[٣]، فعُطلت الزراعة وأُهملت أساليبها العلمية وكذلك الأمر بالنسبة للتجارة، كما انتشرت أعمال السلب والنهب، وعمت المجاعة، ففزع الناس إلى الغابات والمناطق النائية[٤] خلافاً لما كان عليه العصر الوندالي الذي شهد نشاطاً اقتصادياً بسبب الاستقرار النسبي، حين نشطت التجارة واستمر السكان في ممارسة صناعتهم ، وكانت الغلات الزراعية تكفي حاجاتهم الضرورية[٥].

وقد يكون كوريبوس[٦] أفضل من يصور حالة المزارعين في ظل الحروب والكوارث حيث يقول: « وا أسفاه ، إن المزارع المغربي الذي يحصد مرتين في السنة محصول فاديس (Vadis) . أي الوادي . الزكي الرائحة العطرة ويقوم مرتين بربط حزم الشعير بالقش، قد تملكته ثورة الغضب... ما أعظم حبه للمغانم والسلب والنهب آنذاك، كل ذلك في سبيل رغبة وحشية في القتال في الكسب الرخيص الدنيء» وتتضح من خلال هذه الإشارة أوضاع المزارعين في ظل الحكم البيزنطي الذين عمدوا إلى السلب والنهب وقطع الطرق والفرار من مزارعهم مع أن القوانين البيزنطية ثبتتهم

---

(١) عبد الطيف البرغوثي ، التاريخ الليبي القديم ، ص ص٤٩٦-٤٩٧.

(٢) مبارك بن محمد الميلي ، مرجع سابق ، ص٣٧٣.

(3) **Boak,A.E.R.,A History of Rome to 565A. D.,Fourth Edition,NewYork,1955,p.492.**

(٤) محمد على دبوز ، مرجع سابق ، ص٤٤٦.

(٥) نقولا زيادة، "العالم العربي وشمال إفريقية في العصر الروماني والبيزنطي"، مجلة تاريخ العرب ، العددان ١١١-١١٢، مطبعة المتوسط ، مصر، ١٩٨٨م ، ص٢٦ ؛ محمد بلحولة ، مرجع سابق ، ص١٠٩.

(٦) كوريبوس ، مصدر سابق ، ص ص ٥١-٥٢ .

في أرضهم بقانون الإقامة الجبرية . كما أن الحروب لم تطل السكان فحسب بل أدت إلى القضاء على الغابات الطبيعية وحرق الأشجار بخاصة الفاكهة منها[١] ونقص أعداد الحيوانات إلى حد كبير بسبب الحروب الطويلة والعديدة[٢].

كان عصر الإمبراطور جستنيان قد شهد ثلاث نكبات رئيسية هي الحروب والطاعون والمجاعات[٣]. وقد مثل وباء الطاعون أحد أكبر هذه الكوارث انتشاراً نظراً للخسائر البشرية والاقتصادية الفادحة التي ألحقها بالعالم القديم بين عام ٥٤٢- ٥٤٣م[٤]. ويذكر بروكوبيوس[٥] إلى أنه « انتشر وباء الطاعون في العالم بأسره...وكان عدد كبير من الناس قد نجوا من الإصابة به، لكنه في الوقت نفسه قد قتلت أعداد كبيرة بسببه».

يبدو أن بداية ظهور هذا الوباء كانت من إثيوبيا ومن ثم انتقل إلى مصر فأسيا على أنه من المرجح أن انتشاره في أسيا الصغرى وشمال إفريقيا وإيطاليا وصولاً إلى غرب أوروبا يرجع إلى عاملين اثنين هما : القوافل والرحلات التجارية، والحملات العسكرية[٦].

لذا فإن تأثير مرض الطاعون على الإمبراطورية البيزنطية ،كان كبيراً جداً ، فقد أثر على الحياة الحضرية في المدن بسبب تهديد المرض الذي خلق مشكلة خطيرة في عدم توفير الضروريات اليومية كنفاذ الطعام وانتشار المجاعة وتعطيل التجارة، وكذلك الأمر بالنسبة للمناطق الريفية التي أهملت فيها الزراعة وتركت فيها المحاصيل دون عناية وهلكت العديد من الحيوانات، وعلى الرغم من محاولات جستنيان لتفادي الوضع المتدهور بالتحكم في أسعار السلع وإمداد المدن بالمؤن وتقليص الرواتب

---

(١) اسطفان كسيل ، حيوانات ونباتات شمال أفريقيا في العصور العتيقة، ص ١٣٠.

(٢) كوريبوس ، مصدر سابق ، ص ١٢٢.

(٣) أدوارد جيبون ، مرجع سابق ، ص ٤٧٠.

(٤) حول تاريخ وباء الطاعون في العالم القديم و أسباب إنتشاره و طرق عدواه ينظر : بحث كريستين سميث (Crichton smith) على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).
www.loyno.edu/history/journal/1996-7/smith.html

(5) **Procopius, Anecdota.,VI.22.**

(6) **Lançon, B.,op.cit.,pp.51-52; WWW.loyno.edu/history/jornal/1996-7/smith.html.**

وقطع ميزانيات الترفيه[١] فإن الحياة الاقتصادية كانت تسير من سيئ إلى أسوأ، وهذا الوضع يمكن قياسه أيضاً على شمال أفريقيا.

لقد كانت آثار الطاعون واضحة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في شمال أفريقيا من حيث انحطاط الزراعة وهلاك السكان ولاسيما من الجيش ، وهذا كله قد خلق حالة من عدم الاستقرار والأمن في المنطقة[٢]. كما جاء هذا الوباء متزامناً مع الحروب العديدة التي كانت تخوضها القوات البيزنطية ضد القبائل المحلية حتى أن كوريبوس[٣]. يساوي بين الحروب والطاعون في الدمار والخراب بقوله: ‹‹ ذلك أن الوباء(الطاعون) حليف الحرب›› .

٢. التركيبة الاجتماعية

إن العوامل الاجتماعية المؤثرة في النشاط الاقتصادي أثناء السيطرة البيزنطية توضح وجود خلخلة حقيقية للبنية الاجتماعية التي عاشتها المنطقة، إذ بنهاية دولة الوندال زال محتل وظهر محتل آخر جديد .

ومع هذا المحتل الجديد انتهت جميع طبقات المجتمع الوندالي في شمال أفريقيا[٤]. وفي الإطار ذاته تجدر الإشارة إلى أن الكثير من الجنود البيزنطيين قد تزوجوا من نساء ونداليات، من أرامل وبنات الجنود الونداليين[٥]. هذا الزواج خلق مشكلة اجتماعية كبيرة في مطالبة هؤلاء النساء أزواجهن الجدد باسترداد ممتلكات أزواجهن السابقين بعد مصادرة الإدارة البيزنطية لها بأمر من الإمبراطور جستنيان ، وقد قاد هذا الأمر في النهاية إلى انشقاق القوات البيزنطية واندلاع التمرد الكبير بقيادة ستوتزاس بعدما انضم إليه ثلثا الجيش البيزنطي وبعض فلول الوندال[٦].

---

(1) **WWW.loyno.edu/history/jornal/1996-7/smith.html**.

(2) **Briki,S.,op.cit.,pp.93-94; Bury,J.B.,op.cit.,p.145.**

(٣) كوريبوس ،مصدر سابق ، ص ٧٨.

(٤) كان الوندال كالشعوب الجرمانية الأخرى ينقسمون إلى ثلاث طبقات رئيسة هي النبلاء والأحرار والعبيد ينظر: عبد الحفيظ محمد على ، مرجع سابق ، ص ص ٣٦-٣٧.

(5) **Joens,A.H.M.,Lat.Rom.Emp.,Vol.2.,p.679.**

(6) **Raven,S.,op.cit.,p.213.**

علاوة على ذلك فإن من بقى في شمال أفريقيا من المحاربين الونداليين إما أنهم أصبحوا عبيداً للجنود البيزنطيين وإما أنهم استبعدوا من مناصبهم على الرغم من اعتناقهم المذهب الجديد وتركهم مذهبهم الأريوسي، وفي المحصلة نجحت السياسة البيزنطية في القضاء على الوجود الوندالي في شمال أفريقيا(١).

إن المسألة الأكثر أهمية بالنسبة للحياة الاجتماعية في المنطقة هي تلك المتعلقة بنظام الحدود الذي يتعذر فيه ضبط الحدود الرسمية للاحتلال مع الحدود الفعلية التي كانت خاضعة للسكان المحليين، وعليه فإن الرومان قد حاولوا منذ مجيئهم ممارسة سيطرتهم على السكان والأرض في آن واحد(٢).هذه السيطرة التي بدأت في التلاشي ما بين القرنين الثالث والسادس الميلاديين لا يمكن ربطها بظروف خارجية ومُناخية وبشرية وتجاهل الحقيقة التاريخية من أن السكان المحليين قد نزحوا إلى المناطق الصحراوية النائية ومارسوا حياة البداوة مضطرين لا مختارين لذلك(٣).

إن الفترة الوندالية مثلت في حقيقتها مرحلة استثنائية إلى حد كبير فقد بلغت القبائل المحلية ذروتها فيها، وإن لم تكن هذه القبائل قد سيطرت بصورة فعلية على المدن الساحلية فإن انتصاراتها العديدة منذ بداية القرن السادس الميلادي، تبرهن على اتساع نفوذها على حساب المناطق الساحلية التي طالما سيطر عليها الرومان ومن بعدهم الوندال(٤).

كان مجيء البيزنطيين بمثابة إحياء للتقاليد الرومانية القديمة، لاسيما في عملياتهم العسكرية التوسعية، إذ عمدت الإدارة البيزنطية إلى سياسة السيطرة على المناطق السكانية ومصادرة الأرض المشاع، ومن هنا دخل البيزنطيون والسكان المحليون في منازعات كبيرة كانت فيها قوة السكان قد أخذت في ازدياد(٥).

---

(1) **Bury,J.B.,op.cit.,p.139.**

(٢) بوللو. بي كواهي ، مرجع سابق ، ص٢٧٠.

(3) **Laroui, A.,op.cit.,p.71.**

(٤) للمزيد حول حروب القبائل المحلية مع الجيش الوندالي ما بين نهاية القرن الخامس وبداية السادس الميلاديين ينظر:
Briki,S.,op.cit.,pp.9-10; Moderan,Y.,op.cit.,pp.214-215.

(٥) بوللو – بي كواهي ، مرجع سابق ، ص ٢٧٠.

إن السياسة البيزنطية تجاه السكان سرعان ما تحولت من سياسة الاسترضاء والمحاباة التي كانت من أجل التفرغ لقتال الونداليين إلى سياسة الاستبعاد وفرض الضرائب والتنكيل[١] وتطبيق القوانين البيزنطية كتوريث مهن الآباء لأبنائهم وتثبيت نظام الطبقية في المجتمع[٢]. وحتى إن ظهرت طبقة متوسطة بين الأحرار والعبيد أثناء حكم الإمبراطور جستنيان من المزارعين المستأجرين (الكلولون) فإن هذه الطبقة في الواقع شكلت العبيد المرتبطين بالأرض مقابل حصة معينة من الإنتاج[٣].

من المرجح أن المشكلات السياسية والاقتصادية الناتجة عن الاحتلال البيزنطي قد عزلت المدن عن المناطق الريفية، فالأولى تحصنت خلف حصونها المنيعة، وحظيت بالاهتمام الكبير، في حين أن الثانية أخذت تسير نحو الانهيار وإذا ما كانت الحروب الطويلة والمتواصلة هي التي دمرت المزارع والمحاصيل وهدمت المباني الريفية فإن السبب الحقيقي يكمن في معاداة السكان وعدم الاهتمام بهم[٤].

كانت أخطر المشاكل الاجتماعية التي واجهت منطقة شمال إفريقيا قد بدت واضحة في النقص الشديد في عدد السكان[٥]. وذلك بسبب الحروب الطويلة بقيادة بليزاريوس وسولومون وجرمانوس وتروجليتا حتى منتصف القرن السادس الميلادي[٦]. ففي معركة ماما وحدها التي وقعت بين البيزنطيين والسكان المحليين قتل ما يقارب من عشرة آلاف من السكان، كما قُتِل من هؤلاء أيضاً نحو خمسين ألفاً بالقرب من جبل برقوان بنوميديا سنة ٥٣٥م[٧].

---

(١) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، مرجع سابق ، ص ص ١٣٤-١٣٥ .

(٢) هـ . أيدرس بل ، مرجع سابق ، ص١٧٧.

(٣) حول هذه الطبقة بالتفصيل ينظر: نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، ص ص ١٧٢-١٧٦؛ عبد العزيز فهمي باشا ، مرجع سابق ، ص ٦٤.

(4) **Laroui, A.,op.cit.,p.7٦.**

(5) **Diehl,C.,Just.Civi.Byz.,p.179.**

(6) **Lot,F.,op.cit.,p.293.**

(٧) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص٣٦٧؛

Saumagne,C.,Reco.Byz.Afr.,pp.294-295.

كما شكلت المجاعات والأمراض سبباً آخر- إضافةً للحروب . في نقص عدد السكان أثناء حكم الإمبراطور جستنيان، إذ انخفض عدد السكان المطلين على البحر المتوسط بسبب وباء الطاعون عام ٥٤٢-٥٤٣م انخفاضًا كبيراً ، ومثل معدل الوفيات الهائلة تدهوراً اجتماعياً واقتصادياً ملحوظاً(١). وكانت المدن أكثر من غيرها عرضة لهذا المرض بخاصة القسطنطينية التي فقدت خلال الأربعة شهور الأولى ما بين خمسة إلى عشرة آلاف قتيل في اليوم لتصل حصيلة هذا الوباء في النهاية إلى ما يقدر بثلاثمائة ألف(٢).

ومع عدم وجود إحصائيات واضحة ودقيقة عن معدل وفيات السكان بسبب هذه الكوارث والحروب فإن النتائج الأولية لضحايا مرض الطاعون في ولاية بيزاكيوم لم تتجاوز ١٥% من عدد السكان الإجمالي، ومع الانخفاض الكبير في السنوات التي عقبت الاحتلال البيزنطي فإن عدد السكان قد أخذ في الارتفاع منذ النصف الثاني للقرن السادس، وهذه الزيادة السكانية قد تم إثباتها بالمعطيات الأثرية التي دلت على مستوى حيوية المدن والأرياف في هذه الولاية(٣).

ويمكن أن يضاف عاملان مهمان في زيادة معدل النمو السكاني في شمال إفريقيا أثناء السيطرة البيزنطية ٥٣٣-٥٦٥م، أولهما هجرة العديد من القبائل والعشائر المحلية من الشرق، بخاصة من برقة وخليج سرت إلى داخل منطقة الشمال الإفريقي، وهذه الهجرة ضمت بالتحديد قبائل الاستوريان ولواته(٤).أما العامل الثاني فيتعلق بالتنظيم الاجتماعي لهذه القبائل من حيث تعدد الزوجات ، ويتضح ذلك من الرسالة التي بعثها زعماء محليون إلى القائد سولومون الذي حاول تهديدهم بالحرب، فسخروا منه ومن رجاله الذين لا يستطيعون الزواج إلا بامرأة واحدة ، أما هم فبإمكانهم أن يتزوجوا من خمسين امرأة و ليس لديهم ما يخشونه من قلّة الأطفال أو توقف

---

(1)WWW.LOYNO.edu/history/Journal/1996-7/Smith.html.

(2) **Jean-Claude Cheynet.,op.cit.,p.35; Lonçon,B.,op.cit.,p.52.**

(3) **Briki,S.,op.cit.,p.96.**

(4) **Mattingly,D.J.,Far.Fron.Exp.,p.136.**

الإنجاب[١]. وهذا الوضع ينطبق على قبيلة الناسامونيس التي عرفت تعدد الزوجات، والعديد من القبائل المحلية الأخرى[٢].أما البيزنطيون فإن القوانين المسيحية قد زادت من توثيق عقود الزواج وتصعيب أحكام الطلاق، والزواج للمرة الثانية أثناء حكم الإمبراطور جستنيان، بل ويعاقب بالموت من يتزوج اثنتين معاً ، إضافة إلى أن العزوبية في ظل المسيحية قد أصبحت من الفضائل[٣].

مهما يكن الأمر فإن الوضع الكارثي الذي ألم بالإمبراطورية البيزنطية لا يمكن تجاهله بالمطلق، على الرغم مما قد تظهره كتابات بروكوبيوس وكوريبوس من مبالغات تاريخية حول التدهور الاقتصادي والانهيار الاجتماعي، لاسيما النقص الكبير في عدد سكان الشمال الإفريقي، إذ يذكر بروكوبيوس[٤] في تاريخه السري أن أعداداً لا تحصى من البشر قد ماتوا في معظم ولايات الإمبراطورية البيزنطية وأن ليبيا مع اتساع مساحتها فإنها أصبحت خالية من السكان ، إلى أن يصل هذا المؤرخ بالقول أنه لا يمكن لأحد أن ينكر بأن ليبيا قد فقدت لوحدها زهاء الخمسة ملايين إنسان دون أن يعترض أحد على هذه الحقيقة .

وإن كانت هذه الإشارة يجب أن تحمل على محمل المبالغة فإن كوريبوس[٥]ما ينفك يشاطر هذا التهويل في حديثه عن تناقص عدد السكان في مواضع كثيرة كقوله: « الآن أصبحت المدن خالية دون سكانها الليبيين ، وفي كثير من البيوت لم يكن هناك سوى شخص واحد تائه وحده لكي يحافظ بلا جدوى على مال أبيه ».

٣. الخلافات الدينية

(1) **Kaddache,M.,op.cit.,p.225.**

(٢) إن تعدد الزوجات بالنسبة للقبائل المحلية هو تنظيم اجتماعي معروف منذ ما قبل مجيء الرومان للمنطقة ، وهذا النظام في الحقيقة لا يمكن وصفه بالإباحية المطلقة التي يشير إليها العديد من الكتاب الكلاسيكيين مثل هيرودوت على سبيل المثال ، للمزيد عن تعدد الزوجات عند قبيلة الناسامونيس ينظر: عبد السلام محمد شلوف ، قبيلة الناسامونيس ، ص ص١٥١-١٥٣.

(٣) عبد العزيز فهمي باشا ، مرجع سابق ، ص٦٥؛ نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، ص١٦٤.

(4) **Procopius, Anecdota.,XVIII.4-9.**

(٥) كوريبوس ، مصدر سابق ، ص٧٧.

إن آخر العوامل المؤثرة في الحياة الاقتصادية وبصورة مباشرة هو الصراع الديني الذي نشب بين البيزنطيين والونداليين ، هذا الصراع كان مرتكزاً بالأساس على عنصرين اثنين : أولهما الخلاف المذهبي حول طبيعة المسيح بين الكاثوليكية والاريوسية ، وثانيهما حالة العداء والكره التي أظهرها الونداليون ضد كاثوليك شمال إفريقيا بسبب علاقتهم الدينية والدنيوية بالبابا والإمبراطور الشرقي في القسطنطينية(١). ومن المؤكد أن من كان له النصر على الآخر كان له الحق في فرض مذهبه عليه بل وتجريده من كل شيء. وهو الأمر الذي فعله الإمبراطور جستنيان عندما هزم الوندال فأصدر أمره بإعلان الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي الدين الرسمي في شمال إفريقيا(٢)، وسمح في المقابل لرجال الدين بمراقبة المدن والتدخل في الشئون السياسية والمالية والإدارية والعسكرية(٣).

قد يكون من المحتمل أن الدوناتيين الذين شكلوا حركة اجتماعية على أسس سياسة واقتصادية قد رحبوا بالوندال الأريوسيين(٤)، بعدما مثل هؤلاء الدوناتيون خلال القرن الرابع الميلادي ظاهرة ثقافية ودينية في مناهضة الوجود الروماني الحاكم والكنيسة الكاثوليكية من خلال قيام رهبانهم بدعم ثورات الفلاحين والزعماء المحليين ، مثل فيرموس وجيلدون، الأمر الذي أثر على بنية الاقتصاد الروماني وخاصة في نوميديا(٥). لكن السؤال هنا هل استمر العمل بالمذهب الدوناتي المحلي والأريوسي الوندالي في ظل الحكم البيزنطي؟.

---

(1) **Boutbouqalt,T.,op.cit.,p.68; Kaddache, M.,op.cit.,p.206.**

(٢) أحمد توفيق المدني ، مرجع سابق ، ص١٣٦؛ محمد مصطفى بازامة ، ليبيا في عهد الخلفاء الراشدين ، دار مكتبة الفكر ، طرابلس ، ص٢٣.

(٣) مبارك بن محمد الميلي ، مرجع سابق ، ص٣٧٢؛

Durliat, J.,Gra. Pro. Afr.,p.527.

(٤) محمد المبكر ،" القديس اغسطينوس وقضية العلاقات بين الدوارين والدوناتية "، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس ، مطبعة النجاح الجديدة ، المغرب، ١٩٨٥م ، ص ص٣٤-٣٨ ؛ جون رايت ، مرجع سابق ، ص٦٦.

(5) **Brown, P., " Christianity and Local culture in Late Roman Africa", J.R.S, Vol. 58,1968,pp.86.-87.**

إن المعلومات عن هذا الموضوع تكاد تكون معدومة(١). وربما يرجع السبب في ذلك إلى أعمال التبشير المسيحي الجديد التي قام بها الإمبراطور جستنيان وفرضه المذهب الكاثوليكي الذي طغى على بقية المذاهب الأخرى(٢). كما توضح ذلك إشارات بروكوبيوس السالفة الذكر عن التبشير المسيحي واهتمامه ببناء الكنائس لاسيما في المناطق الداخلية في واحات أوجلة وجالو وغدامس ، إضافة إلى تمكن الإمبراطور جستنيان حسب رواية هذا المؤرخ من إدخال أفراد القبيلة الليبية الجادابيتاني (Gadabitani) في المسيحية وارتدادهم عن دياناتهم الوثنية السابقة(٣).

أعتقد أن إشارات بروكوبيوس بشأن نشر المسيحية الكاثوليكية في شمال إفريقيا لا ترقى إلى مستوى الحقيقة التاريخية إذ تُظهر هذه الإيحاءات تعصب المؤرخ وتحمسه الكبير للمذهب الكاثوليكي. خاصة فيما يتعلق بنشر المسيحية بين القبائل المحلية وتحديداً في المناطق الداخلية(٤)، والتي ظلت هذه القبائل متمسكة بديانتها الوثنية فيها(٥).

إن التعصب الديني للقبائل المحلية التي ظلت على وثنيتها ضد الوجود البيزنطي المسيحي كان سمة من سمات الحروب الطويلة التي خاضها الطرفان، وذلك باعتماد قادة هذه القبائل على رؤى وتنبؤات كهنة إلههم جورزيل الذي طالما كان طريقهم للنجاة والنصر(٦). وهذا الخيال الديني من رؤى ونبوءات لم يكن ليفارق البيزنطيين أيضاً.

---

(١) من المرجح أن المذهب الرسمي للإمبراطورية البيزنطية كان قد فرض نفسه على الدوناتيين والأريوسيين وخاصة في المدن التي شهدت هذا الصراع بين هذه المذاهب المسيحية ، ينظر : محمد على دبوز ، مرجع سابق ، ص٤٤٥؛ أحمد بن عامر ، مرجع سابق ، ص٨٨.

(٢) نقولا زيادة ، مرجع سابق ، ص٢٧ ؛ محمد مصطفى بازامة، ليبيا في عهد الخلفاء الراشدين ، ص٢٧ ؛ محمد بلحولة ، مرجع سابق ، ص١١١.

(3) **Procopius,Buildings.,VI.IV.12;**

عبد اللطيف البرغوثي ، تاريخ ليبيا الإسلامي ، ص ص٣٤- ٣٥.

(4) **Saumagne,C.," La Paix Vandale", C.T ,tome X, année1962, Tunis,p.425;**

عبد اللطيف البرغوثي ، تاريخ ليبيا الإسلامي ، ص٣٥.

(٥) موريس لومبارد ، مرجع سابق ، ص ٨٠.

(6) **Yanoski, J.,App.His.Afr.,p.100.**

في هذا السياق يشير كوريبوس[1] إلى نبوءة إحدى الكاهنات بأنه: « في حرب مريرة ستوقع قبائل لواته(Languantans) المنتصرة قوة اللاتين في فوضى واضطراب، ولسوف تحتفظ قبائل مازاكس (Mazax) للأبد بحقول بيزاكيوم (Byzacium) بقوتها العظيمة، ثم سيكون سلام يحمل الرخاء بين طياته ، كما أن القائد كركاسان (Carcasan) سوف يدخل قلعة قرطاجة الشامخة من خلال بواباتها المشرعة ، سيقود رجاله إلى وسط المدينة ».

كانت قمة الصراع الديني في شمال أفريقيا قد تمثلت في فصل من فصول الخلافات الدينية القديمة التي استمرت حتى زمن الإمبراطور جستنيان حول عقد المجامع الكنسية التي ما فتئت تناقش موضوع طبيعة المسيح من حيث كونها طبيعة بشرية أم إلهية أم ممتزجة من كليهما معاً .

جاءت فتنة ما يعرف بالفصول الثلاثة لتشكل نقطة الخلاف الجديد القديم بين الكنيسة الإفريقية و الكنيسة الشرقية في القسطنطينية التي تحظى بتأييد الإمبراطور والذي عقد مجمعاً دينياً عالمياً في عاصمته سنة ٥٥٣م ، نتج عنه إدانة فصول أو رسائل الفقهاء الثلاث[2]. التي أجازها مجمع خلقدونية منذ أكثر من قرن في عام ٤٥١م[3]. وبهذه الإدانة تأتي نهاية هذه الأزمة في شمال إفريقيا بأوامر الإمبراطور جستنيان الصارمة لانزال العقوبات المادية بالسجن و النفي و الإبعاد لكل من يقف ضد سياسته الدينية، إضافة إلى ذلك إعطاء مفوضي الإمبراطورية في الأقاليم كافة الوسائل الفعالة لإقناع هؤلاء[4] .

---

(١) كوريبوس ، مصدر سابق ، ص١٣٣.

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ص ص٥٣-٥٥ ؛ عبد القادر أحمد اليوسف ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص٨٠.

(٣) إسماعيل مطهر، مرجع سابق ، ص١٥٣.

(4) **Diehl, C.,Just.Civi.Byz.,p.361.**

الفصل الرابع :

النظم الإدارية و الدفاعية للبيزنطيين في شمال أفريقيا أثناء حكم الإمبراطور جستنيان

أولاً: النظم الدفاعية في شمال أفريقيا قبيل الاحتلال البيزنطي

ثانياً : مشروع جستنيان الإداري في شمال أفريقيا

ثالثاً: النظام الدفاعي البيزنطي

١.المؤسسة العسكرية

٢.حدود وعمارة التحصينات البيزنطية

رابعاً : الصعوبات التي واجهت الإدارة العسكرية البيزنطية

١.الفوضى العسكرية في الجيش البيزنطي

٢.الأساليب العسكرية المحلية

أولا:النظم الدفاعية في شمال أفريقيا قبيل الاحتلال البيزنطي

استمرت السيطرة الرومانية علي المنطقة حتى سنة ٢٣٨م من دون أن تهددها أخطار كبيرة، ولكن كلما حاول الرومان قطع مرحلة جديدة في بسط نفوذهم اصطدموا بثورات محلية بالغة الخطورة أحياناً، فاضطروا إلى شن حملات عسكرية بلا انقطاع بالقيام بما سمي مجازاً في عرف الاستعمار الروماني " تهدئة البلاد "(١).

كانت سياسة الرومان الدفاعية موجهة بصورة خاصة ضد القبائل المحلية، وقد اتضحت هذه السياسة منذ عهد الإمبراطور أغسطس الذي حرك الجيش الروماني للقيام بالعديد من الحملات العسكرية(٢). ففي الفترة القصيرة الممتدة من سنة ٣٣ ق . م إلى ١٩ ق . م احتفلت روما بما لا يقل عن ستة انتصارات، ومن بين الحملات الرومانية البارزة في تلك الفترة حملة بالبوس (Balbus) لمواجهة القبائل الجيتولية في شاطئ الحضنة و قبائل الجرمنت في فزان، والحملة الثانية التي قادها ضد واحة غدامس، كما تمكن الرومان بعد ذلك من قمع العديد من الثورات المحلية كثورة قبائل الجيتول في جنوب موريتانيا وثورة قبيلة الناسامونيس في خليج سرت الكبير (٣) .

ويبدو أنه مع تواصل توسع الرومان في شمال أفريقيا حتى منتصف القرن الثالث الميلادي(٤) ازداد تعدد الثورات والهجمات التي كانت تشنها القبائل المحلية ضد الجيوش الرومانية التي ما فتئت تمارس قمع هذه الثورات على مدى القرون الثلاثة الأولى للميلاد .

طرأت تغيرات جوهرية في التنظيم الإداري والعسكري في الولايات الإفريقية أثناء حكم الإمبراطور دقلديانوس ، ورغم أن ولايات شمال أفريقيا كانت أقل معاناة من الولايات الأخرى فإنها لم تكن بمنأى عن الأزمة العامة التي أثرت في العالم الروماني وعلى مختلف النواحي ، فكانت الغارات الموريتانية على وجه التحديد نذير انحسار

---

(١) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ١٧٧ .
(٢) أحمد محمد انديشة ، مرجع سابق ، ص ١٩١ .
(٣) عمار المحجوبي ، مرجع سابق ، ص ٩٦ .
(٤) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ١٨٦.

النفوذ الروماني وسبباً في تقويض السلطة الرومانية التي زاد من إرهاقها الأزمات المالية والاقتصادية في المنطقة إبان القرن الثالث الميلادي[١].

إن السمة الأكثر وضوحاً في إصلاحات دقلديانوس ومن بعده قسطنطين كانت في تخفيض السلطة الحكومية ، والفصل الكامل بين السلطتين المدنية والعسكرية ، كما أن الحد من سلطة القادة العسكريين في ولايات الإمبراطورية كان من الملامح البارزة في السياسة الإمبراطورية تفادياً للأزمة الكبيرة التي أدت إلى الفوضى العسكرية وتنامي قوة القادة العسكريين منذ منتصف القرن الثالث الميلادي [٢].

كان الجيش الروماني في القرن الرابع الميلادي مختلفاً تماماً عن الجيش في العصر المبكر للإمبراطورية، إذ جعلت هجمات القبائل المحلية من الضروري بناء جيش خفيف الحركة، ووجود قوة ضاربة مستعدة دائماً للقيام بعمل سريع في المناطق غير الآمنة ، وبالإضافة إلى هذا الجيش النظامي كان هناك أيضاً حرس الحدود الليميتاني[٣] (Limitanei) .

إن دخول الوندال محل الرومان في شمال أفريقيا لم يغير شيئاً في تلك الحدود أو في المناطق التي كانت عرضة للخطر في داخل الولايات التي بقيت حتى نهاية القرن الرابع الميلادي بعيدة عن أية ثورات أو غارات السكان المحليين [٤] . ومن المرجح أن حدود السلطة الإدارية للونداليين امتدت على طول الساحل الأفريقي من خليج سرت شرقاً إلى طنجة غرباً كما لو كانت أثناء السيطرة الرومانية[٥] مع اختلاف قوة وضعف السيطرة الوندالية على هذه المنطقة أو تلك تبعاً للظروف السياسية والاستراتيجية المتاحة للونداليين .

قسم الوندال شمال أفريقيا إلى ست ولايات إدارية تمثلت في ولاية قرطاجة الأصلية وولاية زوجيتانيا شمال تونس وبيزاكيوم وسطها وجنوبها ، ثم ولاية نوميديا في

---

(١) ع. محجوبي، " العصر الروماني " تاريخ أفريقيا العام، ج٢ جين افريك ، اليونيسكو، ١٩٨٥، ص ٤٨٢ ؛ ب . هـ . ورمنقتن، مرجع سابق ، ص ١٧.

(٢) عبد العزيز فهمي باشا ، مرجع سابق ، ص ص ٥٩ – ٦٠ .

(٣) هؤلاء الجنود الفلاحون الذين خُصصت لهم قطع من الأرض تقع على طول الحدود قد أُعفوا من الضرائب مقابل حماية الحدود و صد هجمات القبائل المغيرة ، ينظر : ع . محجوبي ، مرجع سابق ، ص ص ٤٨٢– ٤٨٣.

(٤) ب . هـ . ورمنقتن ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

(5) **Deanesly, M.,op.cit.,p. 75.**

الغرب مع مقاطعة قسنطينة الحالية وكذلك لابريتانيا شرق تبسة ، أما بقية الشمال الأفريقي فكان نفوذ الونداليين عليه محدوداً(١).

ومنذ عام ٤٥٥ م دخل شمال أفريقيا بالكامل تحت سيطرة الوندال حسب ما يذكره فيكتور دي فيتا ، وأصبحت جميع الولايات الوندالية في المنطقة خاضعة لسلطة إدارة حكام ونداليين يسمون جوديكيس(٢) (Judicis).

فيما يتعلق بالسياسة العسكرية للوندال فإن الاختلاف الكبير بينها وبين السياسة العسكرية الرومانية يقتضي فهم ماهية الجيش الوندالي وتكوينه من جهة ، ومن ثم أهم ملامح النظم الدفاعية للونداليين من جهة ثانية .

شكل الوندال منذ البداية طبقة عسكرية حاكمة وفرضوا أنفسهم على البلاد حيث أخذوا ينظمون شؤونهم الذاتية على أساس الحكم شبه العسكري الذي كانوا قد جلبوه معهم ولكنهم في نفس الوقت لم يحاولوا تغيير النظام الإداري الروماني الذي كان سائداً بين سكان المنطقة الذين تُرك لهم حكم أنفسهم حكماً ذاتياً على خلاف ما كان قبلهم(٣) .

كانت المؤسسة العسكرية الوندالية قوامها الشعب الوندالي نفسه الذي كان قلّة ضئيلة لم يتعدَّ في أحسن الأحوال الخمسة بالمائة من مجموع السكان المحليين والأفارقة والرومان ، وقد تراوح ما بين خمسين إلى ثمانين ألفاً ، لذلك كانوا أقرب أن يكونوا جيشاً للاحتلال من أن يشكلوا أمة ، وعلى أن يعتمدوا على العنصر العسكري أكثر من اعتمادهم على العنصر المدني(٤) .

في هذا الإطار يذكر بروكوبيوس(٥) « أن جيزريك نظم الونداليين والآلان في سرايا ، وعين عليهم ثمانين قائداً عسكرياً على الأقل وسماهم تشيليارتشس (Chiliarchs) – أي قائد الألف – ليظهر أن جيشه المكون من المحاربين يبلغ

---

(١) أحمد توفيق المدني ، مرجع سابق ، ص ١٢٤ ؛ أحمد بن عامر ، مرجع سابق ، ص ٧٢ .

(2) **Selmane, K .,op.cit.,p.3 .**

(٣) عبد اللطيف البرغوثي ، التاريخ الليبي القديم ، ص ٤٤٥ .

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ٣٣ ؛

Raven.S.,op.cit.,p .198 .

(٥) **Procopius, Hist . War., III.V.18.**

عددهم ثمانين ألفاً في خدمة فعلية» . كما أكد هذا المؤرخ في السياق ذاته «أن عدد الونداليين والآلان لم يبلغ عددهم في الأوقات السابقة أكثر من الخمسين ألف رجل، لكن بعد ذلك الوقت كثر عددهم إلى حد كبير بسبب الازدياد الطبيعي فيما بينهم وانضمام أجانب آخرين إليهم ، ولكن اسم الآلان وكل الأجانب الآخرين باستثناء المغاربة تم توحيدهم تحت اسم الونداليين»(١).

وإن كان بروكوبيوس يؤكد أن كل من دخل في النظام العسكري الوندالي من غير السكان المحليين قد عمم عليهم الاسم الوندالي فإن جيزريك قد استفاد من هؤلاء السكان وخاصة النوميديين في حروبه البحرية التي كان يشنها ضد مناطق عديدة في غرب البحر المتوسط، كما هو الحال عندما استولى على إقليم طرابلس وبعض جزر البحر المتوسط، وكذلك إيطاليا عندما استباح عاصمتها روما عام ٤٥٥ م (٢).

كما يضاف إلى ذلك فرقة من ١٠٠٠ جندي قوطي قد دخلت ضمن الجيش الوندالي عندما تزوج الملك الوندالي تراساموند من أمالافريدا أخت ثيودريك الملك القوطي في إيطاليا وكان هؤلاء الجنود القوطيون من ضمن من رافق أمالافريدا إلى قرطاجة(٣) .

لم يكن الجيش الوندالي جيشاً نظامياً متهيئاً دائماً لخوض المعارك، و لكن كان الونداليون يتحولون جميعاً إلى جنود يحملون السلاح في أوقات الحرب، و لهذا السبب أيضاً كانوا يعدون أبناءهم إعداداً حربياً(٤) كما مثل الملك الوندالي القائد الأعلى للجيش على الدوام(٥) .

إن الجندي الوندالي لم يحسن حرب المشاة والمقاتلة مرتجلاً إلى حد كبير، بل كان يخوض حروبه بفرق من الفرسان الخيالة التي تستخدم السيوف والرماح كسلاح فعَّال في المعارك، ولم يكن هؤلاء الفرسان يجيدون الرمي بالنبال كما هو حال جنود

---

(١) **Procopius, Hist . War., III. V. 19 – 21.**

(٢) عبد اللطيف البرغوثي ، التاريخ الليبي القديم ، ص ٤٤٥ .

(3) **Deanesly, M .,op.cit., p. 81 .**

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ٣٣ ؛ أحمد بن عامر ، مرجع سابق ، ص ص ٧٢ – ٧٣ .

(٥) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ٣٣٨ .

الجيش البيزنطي والهوني ، وكانت هذه الفرق في الغالب موزعة لحفظ الأمن وحراسة البلاد (١) .

شكل الأسطول الوندالي القوة الضاربة في الجيش الوندالي الذي استطاع خلال فترة قصيرة في زمن الملك جيزريك أن يفرض سيطرته على العديد من جزر البحر المتوسط و يهدد أمن وسلامة سواحل الإمبراطوريتين الرومانية والبيزنطية(٢). ومع هذا كله فإن الجيش الوندالي سرعان ما تدهورت قوته القتالية بسبب حياة البذخ والترف التي أصبح يعيشها الوندال في شمال أفريقيا(٣). والعزوف عن أعمال القرصنة من سلب ونهب والتي كانت سائدة قبل ذلك .

أما السياسة الوندالية الدفاعية فإن العديد من المصادر والمراجع تشير إلى أن سياستهم كانت قائمة على تدمير حصون وأسوار المدن واستباحتها لاسيما تلك المطلة على ساحل الشمال الأفريقي .

يذكر بروكوبيوس هذه السياسة في موضوعين مختلفين الأول : عند عرضه لتتابع أحداث التاريخ الوندالي في شمال أفريقيا حيث يقول: « قام (جيزريك) بتهديم أسوار جميع المدن في ليبيا ماعدا قرطاجة ، وبذلك لا يكون لليبيين أنفسهم الذين يناصرون قضية الرومان أساس قوي للتمرد ولا أولئك الذين أرسلهم الإمبراطور ، يكون لديهم أي دافع لأسر أي مدينة أو خلق اضطرابات للونداليين ، وذلك بإقامة حامية فيها » (٤) .

أما الإشارة الثانية فقد جاءت عندما بدأ البيزنطيون محاولة النزول على شاطئ شمال أفريقيا في حملة عام ٥٣٣ م ، وقد أشار فيها هذا المؤرخ بوضوح إلى أن سياسة التدمير الوندالية شملت كل المدن دون استثناء وذلك بقوله: « ولم تبق حتى مدينة واحدة مسورة في ليبيا عدا قرطاجة نتيجة لقرار جيزريك»(٥). ولهذا فإن العديد

---

(١) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، مرجع سابق ، ص ١٢٣.

Deanesly.M.,op.cit.,pp.76,81; Raven.S.,op.cit.,p.204.

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ص ٣٣- ٣٤ .

(3) **Kaddache, M.,op .cit ., p .214 .**

(4) **Procopius, Hist. War., III.V. 8.**

(5) **Ibid, III.XV. 9.**

من المؤرخين[١] يحاول تأكيد ما ذهب إليه بروكوبيوس الذي يبعد زمنياً عن فترة جيزريك وسياسته الدفاعية ما يقرب من مائة عام ، من أن هذا الأخير قد دمر أسوار وحصون جميع المدن وفق سياسة متعمدة ، ولعدم ترك أية فرصة لقيام أي عدو بالتمرد ضده بعد التحصن في هذه المدينة أو تلك وقد ظهر فشل هذه السياسة الدفاعية الوندالية في الحملة البيزنطية عام ٤٦٨ م والتي لم تجد صعوبة في الاستيلاء على إقليم المدن الثلاث ، وكذلك الحال بالنسبة لحملة عام ٥٣٣ م التي تمكن من خلالها الجيش البيزنطي بسبب سياسة جيزريك المتهورة من تحقيق انتصارات كبيرة على الونداليين .

وإذا ما تم التأكيد على مسألة أن الوندال مارسوا هذه الأعمال على العديد من المدن باستثناء البعض مثل حصون طنجة ومدينة هيبوريجيوس ومن بعدها قرطاجة[٢] فإنه يجب أخذ هذه السياسة وفقاً للفترة الزمنية ذاتها ولأسباب وظروف الوندال أنفسهم ، ففي تلك الفترة مثل الوندال قلَّة سكانية مقارنة بعدد السكان الأصليين والرومان، ولذلك لم يتمكنوا من فرض سيطرتهم واحتلالهم بصورة فعلية وكاملة، إضافة إلى ذلك فإن سياسة الوندال الحربية كانت موجهة بالأساس إلى الخارج من خلال أعمال القرصنة، لاسيما في فترة حكم جيزريك[٣] وإلى بقايا الرومان المتحالفين معهم في شمال أفريقيا كما أوضح بروكوبيوس من قبل وليس كما يرى البعض بأن السكان المحليين هم الذين كانوا مستهدفين من هذه السياسة[٤].

ثانيا: مشروع جستنيان الإداري في شمال أفريقيا

إن التطرق إلى موضوع الإدارة البيزنطية في المنطقة بما تتضمنه من مؤسسات مدنية وعسكرية يعد مهمة دقيقة ومعقدة في ذات الوقت، فهي معقدة بدليل أن هذه الفترة تمثل فترة انتقالية وتشكل جسراً للبدايات الأولى للعصور الوسطى ، ومن هنا

---

(١) **Goodchild , R.G. and Perkins, J.B.W.,op.cit.,p.43; Sjostrom, I .,op.cit.,p.39;**
د .ي هاينز، مرجع سابق ، ص ٧٤،عبد اللطيف البرغوثي، التاريخ الليبي القديم ، ،ص ص ٤٤٦ –٤٤٧
(2) **Deanesly, M .,op.cit.,p.78 .**
(٣) أحمد توفيق المدني ، مرجع سابق ، ص ١٣٣ ؛ مبارك بن محمد الميلي ، مرجع سابق ، ص ٣٤٣ .
(٤) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ٣٦ .

تظهر الصعوبة في فصل ما ينتمي إلى العصور القديمة ، وما يتعلق بالعصور الوسطى، كما أن هناك صعوبات أخرى تفرض نفسها بندرة المعلومات القابلة لإنارة الطريق ، ومن الملاحظ أيضاً أن العديد من المؤرخين الذين درسوا هذه الإشكالية قد اكتفوا بدراسة مؤسسات أفريقيا البيزنطية دون محاولة منهم لتمييز بين ما هو روماني وما هو بيزنطي(١) .

من الناحية الجغرافية فإن السيطرة البيزنطية على البلاد لم تكن كاملة حتى وإن شمل نفوذهم الساحل الشمالي من طرابلس شرقاً حتى طنجة وسبته غرباً ، فإنه على ما يبدو أن هذا النفوذ كان هشاً لاسيما في الأطراف الشرقية والغربية ، أما في الجنوب فلم يتعد الاحتلال البيزنطي نصف امتداد أفريقية الرومانية، فكان أقصى اتساعه : سهل مجردة وهضبة الأوراس ووقفت حدوده الجنوبية عند تبسة ومسكولا وتمجاد ولمبيزة وطنجة والمسيلة(٢). بذلك فإن حلم جستنيان في إعادة غزو كل المقاطعات الرومانية القديمة لم يتأت في الواقع ، فكانت أفريقيا البيزنطية أقل اتساعاً مما كانت عليه زمن الإمبراطور دقلديانوس(٣).

جاء إعلان الإمبراطور جستنيان لمشروعه الإداري في أبريل عام ٥٣٤ م وذلك بتنظيم الولاية البيزنطية الجديدة ، ولما تعذر أن تبقى البلاد كما كانت في القرن الرابع الميلادي تابعة لمقاطعة إيطاليا والتي سيطر عليها القوط الشرقيون فإنها بذلك أصبحت ولاية لها إدارتها الخاصة بها(٤).

لقد عين الإمبراطور على رأس هذه الولاية حاكماً عاماً يدعى بريفي دي برايتوري (Prefet du Pretoire) وهو أعلى سلطة في الحكم والتي مقرها الرئيس في مدينة قرطاجة، وذلك بما يمتلكه من صلاحيات كبيرة في الجانب التشريعي والإداري

---

(1) **Mansouri,M .T., Les Institutions de L`Afrique Byzantine (mémoire pour le certificat d'aptitude â la recherche), par . Mahjoubi,A., Université de Tunis , Septembr ,1982, p.9**.

(٢) خليل إبراهيم السامرائي وآخرون، تاريخ المغرب العربي، ط١ ، دار المدار الإسلامي بيروت، ٢٠٠٤ م، ص ٥٤؛ **Lot, F.,op.cit.,p.283.**

(٣) **Bel Khodja, et Autres.,op.cit.,p.252.**

(٤) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ٣٦٠ ؛ **Bury, J.B.,op .cit.,pp.139 -140 .**

والقضائي والمالي(١) ومن المرجح أن أول من تولى هذا المنصب الإداري الذي تغلب عليه الناحية المدنية هو أرشيلاوس(٢) (Archelaus)(٣) كما هو واضح في قائمة حكام الإدارة البيزنطية في شمال أفريقيا (الجدول (٢)) .

كان لهذا الحاكم العام مجلس إداري مكون من عدد من المختصين والمستشارين الإداريين ، ويضم عشرة دواوين بلغ عدد موظفيها ١١٨ موظفاً ، بالإضافة إلى تسع نقابات تقوم بالأعمال الإدارية وبخاصة المالية منها(٤) وقد بلغ العدد الإجمالي لأعضاء المجلس البيزنطي العام نحو ٤٠٠ موظف كان أكثرهم مكلفين بالإشراف على جباية الضرائب وأعمال التحصين وغير ذلك من الأشغال العامة الأخرى(٥) وقد كان المرتب السنوي للحاكم العام يبلغ ١٠٠دينار ذهبي ، أما مجموع مرتبات هؤلاء الموظفين فقد بلغ نحو ٩٥٧٢ ديناراً ذهبياً(٦) .

إن الهيكل التنظيمي لمشروع جستنيان لسنة ٥٣٤م قد قسم شمال أفريقيا إلى سبع ولايات وضعت جميعها تحت سلطة الحاكم العام ، وإذا كان عدد هذه الولايات لم يطرح أي مشكلة حقيقية فإن تحديدها وطبيعة وضعها التنظيمي والإداري هو ما خلق عدة خلافات جوهرية حول قراءة النص القانوني لتقسيم الإمبراطور جستنيان(٧) .

---

(١) **Kaddache , M., op .cit ., p .219.**

(٢) يذكر بروكوبيوس أن أرشيلاوس كان من الرجال النبلاء وكان قاضياً في بيزنطة وألليريا ، ولكن بعد ذلك تولى منصب قائد الجيش ، ينظر :

Procopius, Hist .War., III.XI.17.

(٣) **Joens, A .H.M., Lat. Rom . Emp., Vol.1.p . 273; Pavy, A.,op.cit.. ,p.275.**

(٤) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ٣٦١؛ السيد عبد العزيز سالم، مرجع سابق ، ص٧٩ .

(٥) أحمد توفيق المدني ، مرجع سابق ، ص ١٣٩ ؛ إسماعيل مطهر ، مرجع سابق ، ص ١٥٦ .

(٦) زاهر رياض، شمال أفريقيا في العصور الوسطى، مكتبة الانجلوالمصرية، مصر،١٩٨١م، ص ١٥.

(٧) كان النص الذي يحدد عدد الولايات البيزنطية باللغة اللاتينية على النحو التالي :

" Et ab ea auxiliante deo Septem provinciae cum Suis iudicibus disponantur . quarum Tingi, quae proconsularis antea vocabatur. Carthago et Byzacium ac Tripolis rectores habeant Consulares : reliquae vero. id est Numidia et Mauritania et Sardinia, a Praesidibus cum dei auxilio gubernentur . "

ينظر :

BenAbbẻs, M., L'Afrique Byzantine Face ậ La conquête Arabe : Recherche sur le VII siècle en Afrique du Nord . (Thèse pour le Doctorat en Histoire) Directeur de thèse : Cloude Lepelley , Université Paris, Février, 2004 , p.26 .

حسب هذا النص يمكن إدراج الولايات البيزنطية في شمال أفريقيا بالكيفية التالية (١)

١) أربع ولايات مخصصة للقنصليات :

أ- تنجياتنيا .

ب- الولاية البروقنصلية .

ج- بيزاكيوم .

د- تريبوليتانيا .

٢) ثلاث حكومات مسيرة من طرف رؤساء المجالس العليا :

أ- نوميديا .

ب- موريتانيا .

ج- سردينيا .

على الرغم من أن هذه هي القراءة الحرفية للنص اللاتيني حول التقسيم الإداري للمنطقة فإن هناك من يرى أن هذه الولايات كانت تضم زوجيتانيا وبيزاكيوم ونوميديا وموريتانيا وتريبوليتانيا وكذلك قرطاجة(٢) . في حين يرى البعض الآخر أن هذه الولايات هي البروقنصلية (الولايات الرومانية القديمة) وبيزاكيوم وتريبوليتانيا ثم نوميديا وسردينيا ، أما موريتانيا فإنها بلا شك قد انقسمت إلى موريتانيا الستيفية في الشرق وموريتانيا القيصرية أو الطنجية في الغرب(٣).

لقد تم إجراء تعديل النص القانوني والتأسيسي للنظام البيزنطي الجديد بحذف كلمة طنجة (Tingi) ووضع كلمة زوجيتانيا (Zeugi) وبذلك التعديل تم إزالة منطقة طنجة التي كانت جزءاً تابعاً لأسبانيا منذ زمن الإمبراطور دقلديانوس ، كما أن ربط زوجيتانيا بالبروقنصلية بحذف الفاصلة بينهما يؤدي إلى خفض عدد الولايات إلى ست وهو ما يتناقض مع النص نفسه، ومن المرجح أنه للوصول إلى العدد سبعة لهذه الولايات أن موريتانيا في هذا النص كانت تضم موريتانيا الستيفية والقيصرية، وهذا ما

---

(١) للمزيد حول الوضع الإداري في شمال أفريقيا زمن الإمبراطور جستنيان لاسيما في موريتانيا الطنجية، ينظر : بحث أنريكي جوزالباس " مسألة منطقة سوتا البيزنطية " :

Gozalbes, E.," El Problema de la Ceuta Bizantina",C.T, Tome XXIX,1981,Tunis, pp. 32 – 42 .

(٢) عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، مرجع سابق ، ص ٥١ .

(3) **Joens ,A .H. M., Lat .Rom. Emp .,Vol .1.p.273; Kaddache, M.,op.cit.,p.219.**

كان عليه النظام الروماني حتى القرن الرابع[١]. (ينظر الخريطة رقم٧–٨). إذ أن الهيكل الإداري البيزنطي في البلاد قد وضع وفقاً لمحددات عسكرية وقانونية كان من ضمن السياسة الرومانية السابقة [٢] .

إن مسألة الخلاف الحقيقية في مناطق النفوذ البيزنطي تكمن في أقصى الولايات الغربية وهي موريتانيا الطنجية التي يُعتقد بأنها لم تشكل جزءاً من ولايات الشمال الأفريقي، بل كانت تابعة لأسبانيا تحت حكم القوط الغربيين ، أما منطقة سبتة فقد مثلت حالة خاصة إذ تبعت إدارياً موريتانيا القيصرية حتى مجيء البيزنطيين واعتبرت كقاعدة لانطلاق الحملات البيزنطية القادمة[٣]. وإذا كان البيزنطيون قد سيطروا على مدينة سبتة وقلعتها الحصينة بقيادة بليزاريوس فإن القوط الغربيين لم يكفوا عن محاولاتهم استعادة هذه المدينة والتي كان آخرها التي انهزمت فيها قواتهم هزيمة كبيرة عام ٥٤٤ م[٤].

تجدر الإشارة إلى أن جزيرة سردينيا كانت من ضمن ما تم تحديده من الولايات والمناطق البيزنطية الخاضعة لسلطة الولاية الأفريقية الجديدة ، ويرجع السبب في اعتقادي بالدرجة الأولى إلى أن هذه الجزيرة كانت من أوائل جزر البحر المتوسط الغربية التي دخلت تحت سيطرة البيزنطيين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت جزيرة سردينيا حتى الاحتلال البيزنطي لشمال أفريقيا تحت الحكم الوندالي، وذلك ليس غريباً أن تشكل جميع المناطق التي سيطر عليها الونداليون وأصبحت في أيدي البيزنطيين ولاية واحدة، وأن يلقب الإمبراطور جستنيان بسبب هذا الانتصار على الونداليين بسيد الوندال وأفريقيا .

كانت نظرية الإمبراطور دقلديانوس الخاصة بفصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية سارية النفاذ حتى وصول الإمبراطور جستنيان إلى حكم الإمبراطورية

---

(١) **BenAbbès , M.,op.cit.,pp .26 – 27 .**

(٢) ب . سلامة ، مرجع سابق ، ص ٥١٥؛

Diehl,C.,Just.Civi.Byz.,p.177.

(٣) **GozaIbes, E.,op.cit.,p. 39 .**

(٤) محمود سعيد عمران ، مرجع سابق ، ص١٢٤.

حيث عمد هذا الأخير إلى التخلي عن هذه النظرية[١] وأعاد توحيد السلطتين في يد حكام الأقاليم والولايات[٢]، لكن مع ذلك هناك من يرى أن الفصل بين السلطة العسكرية والمدنية ظل معمولاً به حتى فترة الإمبراطور جستنيان وبشكل خاص ولاية شمال أفريقيا[٣] .

من المرجح أن عملية الجمع بين السلطتين كانت من ضمن المستجدات التي طرأت نتيجة لمشروع الإمبراطور جستنيان الجديد بمحاولة إعادة جميع الولايات والأقاليم التي انفصلت عن الإمبراطورية الرومانية إلى سلطة الإمبراطورية في القسطنطينية .

لقد جرى العمل على جعل حكام الأقاليم حكاماً عسكريين لهم صلاحيات مطلقة منذ أن تم البدء في احتلال شمال أفريقيا[٤]. ومن الملاحظ أن الإمبراطور جُستنيان قد تخلى عن القاعدة العامة في الفصل الواضح بين السلطات المدنية والعسكرية، ومع أنه في شمال أفريقيا كان نادراً ما يتم جمع المنصبين معاً، فإن هناك ميلاً منذ البداية لضم سلطة الحاكم البريتوري مع سلطة قائد الجيش في يد شخص واحد، يصبح نائباً للإمبراطور في كل شيء ويلقب بحاكم الولاية اكسرخس[٥] (Exarch)[٦] أو رفع منصب الحاكم المدني إلى منصب قنصل[٧](Consulares).

أعتقد أن تركيز السياسة البيزنطية على جمع كل السلطات في يد حاكم الولاية الأفريقية، لاسيما في البدايات الأولى للاحتلال كان يخضع لظروف سياسية وعسكرية كثيرة من حيث إن البلاد كانت قاعدة استراتيجية لانطلاق العديد من الحملات على

---

(١) هـ . ايدرس بل ، مرجع سابق ، ص ١٨١ .

(٢) أسد رستم ، مرجع سابق ، ص ص ١٧٤ – ١٧٥ ؛ مصطفى العبادي ، مرجع سابق ، ص ص ٢٦٢ – ٢٦٣ .

(٣) نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، ص ١٤٥ ؛ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، مرجع سابق ، ص ١٣٢ ؛ زاهر رياض ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

(٤) فتحي عثمان ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٨٣ .

(٥) لقد ظهر منصب الأكسرخس بصورة واضحة في شمال أفريقيا في نهاية القرن السادس الميلادي عندما كانت الحاجة لوجود نظام دفاعي ضد الهجمات المرتقبة، وبالتالي كان الهدف الأساسي من وظيفة حاكم الولاية الجمع بين السلطات المدنية والعسكرية تفادياً للعديد من المشاكل الخطيرة التي تعرضت لها المنطقة ينظر:

Durliat, J., Gra. Pro. Afr., p.527.

(٦) **Bury,J.B., op.cit., p.141.**

(٧) **Joens, A.H. M., " Frontier Defence in Byzantine Libya" ,L. H , 1968,p.292** .

غرب أوروبا، وبالتالي كان ضرورياً معرفة هذا الدور ،كما أن الصلاحيات التي أعطيت للحاكم العام جعلت منه قادراً على اتخاذ التدابير اللازمة لتسيير الشئون المدنية القضائية والمالية من جهة والعمل على إعادة بناء بنية النظم الدفاعية من جهة ثانية .

وقد اتضح جلياً سمات الجمع بين سلطات الحاكم المدني وقائد الجيش في شخصية القائد البيزنطي سولومون من خلال ولايتي حكمه الأولى (٥٣٤-٥٣٦م)(١) والثانية (٥٣٩-٥٤٤م) وكذلك القائد جرمانوس (٥٣٦-٥٣٩م)(٢).

صفوة القول أن المشروع الاستعماري البيزنطي الموضح في قانون جستنيان لسنة ٥٣٤م يشكل إطاراً نظرياً للتنظيم الإداري الجديد للولايات الأفريقية، وهذا الإطار التأسيسي الذي أقامه جستنيان بقدر ما جاء نتيجة لظروف ووقائع تلك الفترة، فإن الاعتماد على التقاليد والقوانين الرومانية والتي كانت سائدة في الولاية الرومانية بشمال أفريقيا كان سمة من السمات البارزة للإدارة البيزنطية الجديدة ومن الجدير بالملاحظة أن الإدارة البيزنطية العليا كانت تستند في معلوماتها على المصادر الكلاسيكية الرومانية المحفوظة عندها لاسيما في الجانب الإداري(٣) .

ثالثا: النظام الدفاعي البيزنطي

حاولت الإدارة البيزنطية منذ السنوات الأولى لها في شمال أفريقيا تطوير النظم الدفاعية التي من شأنها أن تؤمن وجودها وتعمل على استقرارها السياسي والاقتصادي ، وبذا فإن هذه النظم قد اتسمت زمن الإمبراطور جستنيان بأنها كانت موجهة للداخل إلى حد كبير ضد السكان المحليين ، وذلك بما قد تسببه القبائل المحلية من غارات على المدن والأرياف التي خضعت للسلطة البيزنطية .

هذا ويعتمد النظام الدفاعي في شمال أفريقيا بالأساس على دعامتين اثنتين:

أولاً : المؤسسة العسكرية .

---

(1) **Stratos ,A.N.,Byzantium in the seventh century, Vol.1, Amsterdam, 1968,p37; .Diehl,C., Just .Civi. Byz.,p.178 ;Raven .S.,op.cit .,p. 214** .

(٢) **Joens, A. H. M., Lat.Rom.Emp.,Vol.2.p.656; Bel Khodja, K.et Autres.,op.cit.,p. 253 .**

(٣) **BenAbbès , M., op . cit .,p .33 .**

ثانياً : حدود وعمارة التحصينات البيزنطية .

١. المؤسسة العسكرية

كانت الحملة البيزنطية عام ٥٣٣ م حملة عسكرية وعملاً استعمارياً يغلب عليه الطابع العسكري طيلة فترة حكم الإمبراطور جستنيان[١] الذي حاول فرض سيطرته والوصول بحدود هذه الولاية إلى ما كانت عليه أثناء الوجود الروماني[٢].

ولعل ما يوضح غلبة هذا الطابع العسكري للحملة ما ذكره بروكوبيوس[٣] عن الاستعدادات العسكرية الكبيرة من عدد القوات البيزنطية المشاركة في الحملة وأنواع الفرق العسكرية وتشكيلات الجيش والأسطول البحري إضافة لذكره أسماء قادة الجيش البيزنطي ووظائفهم ومواطنهم الأصلية (ينظر الجدول (٣)) .

بالنسبة للقيادة العسكرية ، فإن القانون أو المرسوم الموجه في نفس التاريخ أبريل عام ٥٣٤ م إلى الحاكم العسكري الأعلى بليزاريوس والمتعلق بالتنظيم الإداري للمنطقة قد نص على تحديد خمس قيادات دوقية في كل من تريبوليتانيا ، بيزاكيوم ، نوميديا ، موريتانيا القيصرية ، سردينيا وهذه الدوقيات العسكرية تمثل مناطق حدودية[٤] على أطراف مركز الولاية البيزنطية الجديدة في قرطاجة .

لقد تم وضع الدوقيات الأربع الأولى تحت حاكم عسكري يدعى دوكس (Dux) وحدد المدينة التي ستكون مركزاً لكل دوقية وهي على النحو التالي:[٥]

أ- تريبوليتانيا ومركزها لبده الكبرى .

ب- بيزاكيوم مركزها مدينة قفصة أو لبده الصغرى .

ج- نوميديا و مركزها قسنطينة (كرتا) .

د- موريتانيا القيصرية ومركزها شرشال .

---

(١) **Murabet ,M .,op .cit ., p.20; Mansouri ,M.T.,op .cit ., p. 25**.

(٢) مبارك بن محمد الميلي ، مرجع سابق ، ص ٣٦٤ .

(٣) حول هذه الاستعدادات العسكرية للحملة البيزنطية بالتفصيل ينظر :

Procopius, Hist . War.,III .XI.

(4) **BenAbbẻs, M.,op. cit .,p. 47; Joens ,A.H.M.,Lat. Rom. Emp., Vol. 2.p.656.**

(٥) **Pavy,A., op.cit.,p .275; Saumagne, C., Reco. Byz. Afr.,p.294;**

خليل إبراهيم السامرائي وآخرون ، مرجع سابق ، ص ص ٥٥-٥٦.

أما دوقية سردينيا فإن اهتمام البيزنطيين بها كان كبيراً جداً بسبب موقعها الاستراتيجي كقاعدة أمامية للحملات البيزنطية والأمر ينطبق على مدينة سبتة في موريتانيا الطنجية وخاصة قلعتها المحصنة[١] .

إن أداة التواجد البيزنطي في شمال أفريقيا تتمثل قبل كل شيء في جيش الاحتلال[٢]. هذا الجيش الذي كان وريثاً للجيوش الرومانية والسياسة العسكرية الرومانية التي كانت سبباً في عظمة روما واتساع حدودها وكثرة ولاياتها[٣].ومنذ القرنيين الرابع والخامس الميلاديين أصبح الجيش البيزنطي في وضع أفضل مما كان عليه الجيش الروماني في الغرب الذي كان يعاني من انهيار الولايات الرومانية الغربية، ومع أن الجيش البيزنطي قد تعرض لأخطار وهجمات الفرس والهون في الشرق فإن تحصينات مدينة القسطنطينية وباقي المدن البيزنطية الأخرى قد زادت من تنامي قوة الجيش البيزنطي[٤] .

انقسم الجيش البيزنطي أثناء حكم الإمبراطور جستنيان إلى فرق، لكل فرقة قائد مسؤول عن منطقة شاسعة تضم بضع ولايات ، وقد قسم جستنيان أيضاً القيادات الكبيرة إلى قيادات أصغر منها، فأصبحت الدولة مقسمة عسكرياً إلى مناطق حربية كبيرة تخضع كل منها إلى سلطة القائد العام[٥] (Magister Militum). ومع احتلال شمال أفريقيا وُضعت المنطقة تحت سلطة قائد عام ، وإذا ما تمت الإشارة إلى أن صلاحيات هذا القائد كانت تتضمن السلطات العسكرية والمدنية معاً كما هو الحال بالنسبة للقائد سولومون وجرمانوس[٦] فإن هناك من يشير إلى أن فصل السلطات المدنية عن العسكرية كان منذ البداية عندما سلم القائد بليزاريوس قبيل مغادرته إلى

---

(١) **BenAbbès, M .,op.cit.,p.47; Joens, A.H.M.,Lat. Rom . Emp., Vol .1.p.274.**

(٢) **Kaddache ,M .,op.cit.,p.219 .**

(3) **Baynes,N.,op.cit.,p.133;**

حسين الشيخ ، مرجع سابق ، ص ١٠٩ .

(4) **Haywood, R .M.,op.cit.,p.599**.

(٥) فتحي عثمان ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٨٤ .

(٦) **Joens, A. H. M., Lat .Rom . Emp.,Vol .2.p. 656**.

القسطنطينية عام ٥٣٤ م الإدارة المدنية إلى أرشيلاوس والقيادة العسكرية إلى سولومون(١) .

من الواضح أن الدوقيات الأربع سالفة الذكر كانت تحت حكم قائد عسكري لكل منها، وأن الجيوش البيزنطية التي كانت فيها تمثل جيوش حدود لحفظ الأمن والاستقرار، لكن معرفة علاقة هذه الدوقيات بالقيادة العليا للقوات البيزنطية في الولاية هو ما لا يمكن تأكيده ، وذلك بأن العديد من المصادر الموجودة هي بعيدة جداً لإعطاء إجابة واضحة، باستثناء السنة الأولى للاحتلال والتي كان فيها بليزاريوس قائداً عاماً للجيش البيزنطي، أما غير ذلك فإن القائد العسكري في شمال أفريقيا كان يخضع لسلطة الإدارة العامة استجابة للمتغيرات والظروف التي كانت تتعرض لها المنطقة(٢) .

مهما يكن من أمر فإن القائد العام للجيش البيزنطي في شمال أفريقيا وإن لم تكن صلاحياته واضحة المعالم وعلاقته بالقيادات العسكرية الأخرى غير مؤكدة فإنه من البديهي أن يكون هذا القائد قد عُيِّن من قبل الإمبراطور مباشرة وأن مركز قيادته في الغالب في قرطاجة، في حين كانت وظيفته بالأساس تأمين النظام والدفاع عن جميع الأراضي الخاضعة لسلطة الاحتلال البيزنطي(٣) .

وبالنسبة لتشكيلات الجيش البيزنطي في جميع أنحاء الإمبراطورية فيمكن أن تقسم إلى خمسة أصناف رئيسة وهي :(٤)

١. قوة سريعة الحركة من الكوميتاتينسيس(٥)(Comitatenses) وهذه القوة تجند بصورة رئيسة من منطقة ألليريا وأيزوريا.

---

(١) **Pavy, A.,op. cit ., p. 276**;

زاهر رياض ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

(٢) **BenAbbès, M.,op.cit., p.48 .**

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ص ٨٠ – ٨١ ؛

Bel Khodja, K.et Autres.,op .cit .,p .253 .

(٤) للمزيد حول هذه الأصناف يراجع :

Bury, J. B.,op .cit.,pp . 76-78 .

(٥) هذه القوة تمثل جيش النبلاء المحاربين تحت قيادة الإمبراطور ، وهو جيش كان يستطيع التحرك بسرعة إلى أية نقطة مرغوب فيها ينظر : ستيفن رنسيمان ، مرجع سابق ، ص ١٦٠ ؛

Joens ,A. H. M., Fro. Def. Byz .,p. 292 .

٢. قـوات الحـدود الليميتـاني (Limitanei) تشـابه القـوة السـابقة وتقـوم علـى حمايـة وتأمين حدود الإمبراطورية .

٣. قوة الفودراتي[١](Foederati) والتـي علـى مـا يبـدو ظهورهـا فـي الجـيش البيزنطـي كان في القرن الخامس الميلادي، لكن الميزة الواضحة لهذه القوة هي ظهورها بكثرة في تاريخ حملات بليزاريوس بسبب أهميتها للجيش الميداني .

٤. القوات التي انضمت منذ القرن الرابع الميلادي كحلفاء للجيش البيزنطي، وتكونت من الهون والهيرولي على سبيل المثال، وقد ارتبطت بمعاهدات مع الإمبراطورية مقابل إعطائهم الأراضي والإعانات المالية السنوية .

٥. الصنف الأخير من هذه القوات يتمثل في عبيد وخدم القادة العسكريين وضباط الجيش وبعض الأغنياء الذين يشاركون في معارك وحملات الإمبراطورية الرومانية ، ولقد وصل عدد هؤلاء الرجال بالنسبة للقائد بليزاريوس وحده حوالي ٧٠٠٠ شخص .

إضـافة إلـى ذلـك يـذكر بروكوبيـوس[٢]. أن هنـاك قـوات تضـم نحـو ثلاثـة آلاف وخمسمائة جندي قد شكلت أصلاً للعمل على حماية القصر، وهذه القوات تعرف باسم سكولاري (Scholarii) وهي على ما يبدو كانت تمثل قوات الحرس الإمبراطوري.

كان جيش الإمبراطور جستنيان قد اعتمد إلى حد كبير على فرق المرتزقة التي أخذت في تزايد داخل قواته[٣] حتى بلغ عدد هذا الجيش نحو ١٥٠،٠٠٠ جندي[٤] وهذا العدد هو نصف عدد قوات الجيش الروماني زمن الإمبراطور أغسطس الذي بلغ نحو ٣٠٠،٠٠٠ جندي، وأقل بكثير حتى من جيوش الأباطرة البيزنطيين الذين سبقوا جستنيان في حكم الإمبراطورية البيزنطية[٥] . على أنه من المرجح أن عدد الجيش

---

(١) يذكر بروكوبيوس : " في وقت مبكر كان يتم تجنيد الأجانب (غير اليونانيين) فقط ضمن الفودراتي ، أي أولئك الذين ورثوا النظام السياسي الروماني ، ليس كعبيد ، إذ لم يخضعوا للحكم الروماني ، ولكن على أساس المساواة الكاملة لأن الرومانيين يسمون المعاهدات مع أعدائهم فوديرا . ولكن في الوقت الحاضر لا شيء يمنع أي أحد من اتخاذ هذا الاسم " وبذلك يفهم من هذه الإشارة أن هؤلاء قد أصبحوا من المرتزقة الأجانب علىالرغم من ارتباطهم بشروط المعاهدة مع البيزنطيين والعمل في الخدمة العسكرية مقابل منحهم الأراضي، ينظر :

Procopius, Hist. War., III .XI.3-4 ; Baynes,N.,op .cit ., p.138.

(2) **Procopius, Anecdota.,XXIV.15-16**.

(٣) فتحي عثمان ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٨٤ .

(٤) **Joens, A. H. M., The Decline of the Ancient World, London , 1968,p.114 .**

(5) **Starr, C.G., The Ancient Romans, Oxford University Press , London , 1971 , p.113**;

البيزنطي في هذه الفترة كان يستثنى منه جنود الحدود الليميتاني، وخاصة في مناطق الدانوب والحدود الشرقية للإمبراطورية[1] .

ومع أن فرق المرتزقة كانت في غالبيتها من الشعوب والقبائل الشرقية فإن سيطرة جستنيان على شمال أفريقيا قد ساعده على تكوين فرق عسكرية من هذه المنطقة وبخاصة من الونداليين الذين كون منهم خمس فرق سميت باسمه (فندالي جستنياني Vandali Justiniani) وضعت على الحدود الفارسية ، إضافة إلى عدد كبير من الونداليين الذين دخلوا في خدمة القائد بليزاريوس أيضاً[2] . ولكن هؤلاء دخلوا في الجيش البيزنطي كعبيد وليس كحلفاء .

كان التجنيد في الجيش البيزنطي إلى حد كبير يتم طوعاً ومالت الخدمة إلى أن تكون وراثية، حيث أغلب الجنود تلوا آباءهم في هذه المهنة، وقد استخدم هذا التجنيد بصورة خاصة في المناطق الحدودية بين الفلاحين ، ومع ذلك فإن قانون جستنيان لم يحتو على قوانين تفرض التجنيد وتلزم أبناء الجنود والمحاربين على الخدمة العسكرية مما يبدو أن التجنيد في هذه الفترة كان طوعاً ، كما تجدر الإشارة إلى أن جنود الحدود قد عملوا لصالح قوات الإمبراطورية البيزنطية لمدة خمس وعشرين سنة أو أكثر[3] .

ونظام عمل هؤلاء الجنود الفلاحين هو نفسه الذي كان معمولاً به في العصر الروماني منذ منتصف القرن الأول الميلادي، ونتيجة للمدة الطويلة في خدمة الجيش الروماني كانت تُعطى لهم حقوق المواطنة الرومانية[4] .

خلال القرن السادس أُعدت الجيوش بشكل رئيسي من قوات الكوميتاتينسيس والفودراتي وكذلك الليميتاني كما هو الحال في شمال أفريقيا ، وكانت هذه القوات مدعومة دائماً من الخدم الخاصين و بعض قوات الحلفاء ، وقد قدر عدد الجيش

أسد رستم ، مرجع سابق ، ص ١٩٣ .

(1) **Joens, A .H .M.,Dec. Anc.Wor.,p.218**.

(٢) إبراهيم علي طرخان ، شمالي أفريقية والوندال ٤٣٩ – ٥٣٤ م ، ص ص ١٥٣ – ١٥٤ .

(3) **Joens, A. H.M.,Dec. Anc.Wor.,pp.212 , 220;**

أحمد بن عامر ، مرجع سابق ، ص ٨٥.

(4) **Starr,C.G.,Anc.Rom., p.111** .

المشارك في الحملة أو المعركة الواحدة ما بين ١٥،٠٠٠ إلى ٢٥،٠٠٠ جندي وكان نادراً ما تصل قوات الجيش إلى ٤٠،٠٠٠ جندي[١] .

ويذكر بروكوبيوس[٢] أن الحملة البيزنطية على شمال أفريقيا عام ٥٣٣ م كانت تضم في عددها النهائي حول ٣٠،٠٠٠ شخص منهم حوالي ١٥،٠٠٠ من الجند النظاميين مقسومين على ما يبدو ١١،٥٠٠ من قوات الكوميتاتينسيس و ٣،٥٠٠ من المرتزقة، إضافة إلى ١٠٠٠ من قوات الحلفاء الأجانب ٤٠٠ من الهيرولي و ٦٠٠ من قبيلة ماساقتا الهونية[٣] .

من الملاحظ أن القائد بليزاريوس لم يكن يجازف بالجيش البيزنطي بكامله في حربه مع الوندال إلا بعد اختبار قواتهم عن طريق بعض المناوشات التي يقوم بها سلاح الفرسان، ولكن الأمر المهم في ذلك أن هذا القائد كان يستخدم قوات الفودراتي المرتزقة في مقدمة جيشه دون التغرير بقواته الخاصة التي تأتي خلف هذه القوات كما حدث في معركة ديكيموم[٤] .

انقسم الجيش البيزنطي في شمال أفريقيا مثل نظيره الجيش الروماني إلى وحدتين أساسيتين هما قوة المشاة ، وقوة سلاح الفرسان[٥] . وقد أُطلق على قائد القوة الأولى ماجستر بيديتوم (Magister Peditum) في حين كان قائد القوة الثانية ماجستر إيكيتوم[٦] (Magister Equitum)، ومن المرجح أن هاتين القوتين قد انقسمتا إلى وحدات أصغر من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ جندي كما كان ذلك في الجيش الروماني[٧] .

ومع أن الإمبراطورية البيزنطية قد اهتمت كثيراً بقوة المشاة قبل حكم الإمبراطور جستنيان فإنها حرصت أيضاً على زيادة سلاح الفرسان في جيوشها منذ زمن

---

(١) **Bury, J.B.,op.cit.,p. 78; Sjostrom , I., op.cit., pp.41 – 42** .

(2) **Procopius, Hist . War., III.X I.2, 11-15.**.

(٣) لتفاصيل أكثر حول فرق المرتزقة و الحلفاء المشاركة في الحملات البيزنطية نحو الغرب ينظر :
Joens ,A. H. M., Lat .Rom . Emp.,Vol . 2. pp. 667 – 668 .

(٤) **Procopius, Hist . War.,III .XIX . 13 – 14 .**

(٥) كوريبوس ، مصدر سابق ، ص٣٨.

(٦) **Mansouri, M .T., op .cit ., p. 27.**

(٧) **Starr, C.G., Anc . Rom .,p.111**.

الإمبراطور قسطنطين ، أما الإمبراطور جستنيان فإنه جعل محور قوات جيشه من الفرسان وزيدت وحداته من الخيالة الثقيلة(١).

كان أكثر من ثلثي الجيش النظامي في القوات البيزنطية المشاركة في احتلال شمال أفريقيا من قوات المشاة البالغ عددها نحو ١٠،٠٠٠ جندي مقابل ٥،٠٠٠ من قوة الفرسان(٢) ويعتقد أن كثرة أعداد قوة المشاة المتزايدة لم تكن معهودة في المنطقة من قبل، وهو السبب الذي أدى إلى انتصار الجيش البيزنطي في العديد من المعارك بخاصة مع الوندال الذين لم يستغلوا تفوقهم العددي الكبير في سلاح الفرسان(٣).

لقد كانت قوات جيش الإمبراطور جستنيان مدربة تدريباً جيداً وكان الجزء الأكبر من الجنود من المقاتلين المخضرمين وإن كانوا في أحيان كثيرة ميالين لأعمال النهب والسلب وعدم الانضباط من قبل الضباط والجنود على السواء، ومع ذلك فإن القوات الأكثر فعالية كانت من الكاتافراكتي(٤) (Cataphracti) الخيالة المسلحة بالأقواس والسيوف والرماح(٥). إضافة إلى السهام والدروع والخوذات(٦).

ومن نافلة القول أن الجيش البيزنطي يختلف عن الجيش الروماني كونه يعتمد على الفرسان المزودين بالنبال والرماح الذين اعتادوا على حروب الصحاري والمناطق الوعرة في صراعاتهم الطويلة مع الفرس، وهذه التجربة لا يستهان بها بالنسبة للمعارك التي خاضها الجيش البيزنطي في شمال أفريقيا في القرن السادس الميلادي ضد القبائل البدوية الجمالة، الأمر الذي لم يواجهه الجيش الروماني بصورة فعَّالة في السابق(٧).

٢. حدود وعمارة التحصينات البيزنطية.

---

(١) عمر كمال توفيق ، مرجع سابق ، ص ٩٣ ؛

Haywood ,R. M ., op .cit ., p. 599 .

(٢) **Procopius, Hist . War ., III .XI. 2; Deanesly. M ., op.cit.,p. 83** .

(٣) **Bury . J. B ., op . cit ., p . 137** .

(٤) هذه القوة من الخيالة الثقيلة من آسيا الصغرى و قد كانت سبباً في معظم انتصارات جستنيان العسكرية ينظر : ستيفين رنسيمان ، مرجع سابق ، ص ١٦١ .

(٥) **Boak, A.E.R., op.cit.,p. 491** .

(٦) كوريبوس ، مرجع سابق ، ص ص ٣٨ – ٣٩ .

(٧) أ . ف. غوتييه ، مرجع سابق ، ص ص ١٤٤ – ١٤٥ .

كانت حدود الإمبراطورية البيزنطية التي عُززت في القرن السادس من قبل الإمبراطور جستنيان في الولاية البيزنطية الجديدة تمثل منطقة ذات اهتمام خاص لعلماء التاريخ المهتمين بالهندسة المعمارية العسكرية، وسبب هذا الاهتمام قد يقع بالدرجة الأولى وراء تاريخ التحصين في المنطقة خلال القرون الثلاثة التي سبقت الغزو البيزنطي[١] . هذه الفترة كانت من أهم مظاهر النظم الدفاعية فيها تتمثل في تشكيل مناطق الحدود واستحداث قطاعات جديدة من جهة، وتنامي ظاهرة القصور المحصنة[٢] الكنتيناريا[٣] (Centenarium) من جهة ثانية.

كان القائد العسكري يعتمد على التحصينات في كثير من الأحيان أكثر من اعتماده على الجند ، وعندما هدم الوندال أو أهملوا البنايات الرومانية وجب ترميمها وتشييد مباني جديدة ، وقد أُنيط هذا العمل بالقائد سولومون الذي وطد وعمم السياسة الدفاعية التي كان يطبقها جستنيان في كامل الإمبراطورية ، كما يتضح من خط الدفاع الروماني السابق في إقليم طرابلس وبيزاكيوم ونوميديا[٤]، وإن كان قد انحصر كثيراً نحو الشمال وأجريت عليه بعض التجديدات في منطقة بيزاكيوم ونوميديا[٥].

علاوة على ذلك فإنه من الأهمية بمكان فهم المعنى الاصطلاحي لكلمة ليميس (Limes) على أنه ليس فقط الموانع والتحصينات المادية الطبيعية منها والصناعية، ولكن تشمل كل وسائل الدفاع من قلاع ومعسكرات وطرق ومواصلات ونحو ذلك ، وهو بذلك يعد نظاماً دفاعياً متكاملاً[٦]، يهدف في الغالب إلى تثبيت حدود

---

(1) **Pringle, D . ,The Defence of Byzantine Africa from Justinian to the Arab Conquest, Part. 1, Oxford , England , 1981,p. 131** .

(٢) موسى معمر الريحاني ، تاريخ النظم الدفاعية في ولايات شمال أفريقيا الرومانية ١٩٢ – ٤٣٠ م (رسالة ماجستير غير منشورة) إشراف عبد الحفيظ فضيل الميار ، جامعة المرقب ٢٠٠٤ – ٢٠٠٥م، ص ١٤١ .

(٣) الكنتيناريا هذه التسمية تُطلق على القلاع العسكرية التي انتشرت بكثرة في هذه الفترة خاصة في منطقة حدود إقليم طرابلس والتي تُعرف الآن باسم القصور ينظر: ب. هـ . ورمنقتن، مرجع سابق ، هامش ص ص ٣٥ – ٣٦

(٤) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ص٣٦٢–٣٦٣؛

Startos,A.N.,op.cit.,p.37.

(٥) ينظر الخريطة رقم (٩) محمد محي الدين المشرفي، مرجع سابق، ص ١٤٠.

(٦) ب.هـ. ورمنقتن، مرجع سابق ، ص٤٥.

الإمبراطورية والعمل على صد هجمات المغيرين، فضلاً عن إيجاد ملاجئ آمنة للسكان ضد أي عدو(١).

وفي الوقت الذي يمكن الإشارة فيه إلى أن العديد من التحصينات البيزنطية قد قامت على التحصينات والمواقع الرومانية السابقة فإنه في ذات الوقت يمكن التأكيد على أن السياسة الدفاعية البيزنطية كانت أيضاً واضحة المعالم والسمات.

إن دراسة العمارة العسكرية في عصر الإمبراطور جستنيان يُعد أمراً ذا أهمية بادية للعيان، ذلك أن مخططات الحصون ودفاعات المدن التي شُيِّدت خلال هذه الفترة في شمال أفريقيا كانت غير متأثرة على حد كبير بوجود المنشآت الدفاعية السابقة في نفس المواقع، وهي التي مكنت تحصينات القرن السادس الميلادي من أن تكون متميزة بالبساطة النسبية عن تلك التي أنشئت في أوقات سابقة(٢).

لقد تم تحديد ثمانية مواقع عسكرية شيدت بشكل رسمي، وهناك أربعة مواقع أخرى محتملة والتي تشمل الإنشاءات غير الرسمية، والآلاف من الأعمال الدفاعية المجزأة الصغيرة(٣). في حين بلغ عدد المدن التي تم بناؤها أو أعيد ترميمها بطلب من الإمبراطور ثمانية وعشرون مدينة، وعلى وجه الخصوص خلال ولاية سولومون الثانية (٥٣٩-٥٤٤م)، وقد حظيت هذه المدن باسم جستنيان تخليداً له مثل كابودفادا وسوسة وكذلك مدينة قفصة(٤) التي تشير العديد من النقوش إلى أنها كانت تمثل مدينة حدودية ذات أهمية كبيرة لخطوط الدفاع البيزنطية المتقدمة نحو الجنوب(٥) .

إن خط الحدود البيزنطية بشكل عام كان مطابقاً في تخطيطه مع ذلك الذي يوجد في القرن الرابع الميلادي، إذ يتوجه دائماً من الشريط الساحلي لمدن إقليم طرابلس . وإن كان في الفترة البيزنطية قد اقترب أكثر من الساحل . ليتحول بعد ذلك

---

(١) فتحي عثمان ، مرجع سابق ، ج١،ص٨٥.

(2) **Pringle, D., op.cit.,p.131.**

(3) **Raven,S.,op.cit.,p.214.**

(4) **Briki,S.,op.cit.,p.16.**

(٥) حول أهمية هذه المدينة في عصر جستنيان وأهم الإنشاءات البيزنطية فيها، ينظر :

Saumagne,C.," Capsa Les Vestiges De La Cite Latin De Cafsa", C.T, Tome X , année 1962,Tunis,pp.527-530.

إلى الشمال الغربي مرتكزاً على خط منطقة الشط، ثم يصعد نحو منطقة قفصة، ومنها إلى نوميديا في الشمال الغربي أيضاً[(١)].

هذه الوضعية للحدود البيزنطية توضح على ما يبدو ما هية وحقيقة النفوذ البيزنطي في بيزاكيوم ونوميديا. والذي قد يتفق إلى حد كبير مع خط الحدود الروماني قبيل الفترة الوندالية في أنه ليس خطاً للدفاع فحسب بل خطاً اقتصادياً يفصل بدقة بين الأراضي الزراعية والصحراوية[(٢)].

بالنسبة للوجود البيزنطي في منطقة إقليم طرابلس فإنه لم يكن إلا وجوداً أو احتلالاً محدوداً اشتمل على المواني والمدن الرئيسية للأقاليم[(٣)] ، ذلك أن خطوط الدفاع الأمامية لمنطقة بونجيم والقريات وغدامس[(٤)] قد تخلى عنها الرومان بعد سنة ٢٥٩م بقليل ، وفقدت روما بالتالي سيطرتها المباشرة لمنطقة حدود إقليم طرابلس بعدما تسلم سكان المناطق الحدودية مهمة حمايتها[(٥)]. ومع أن بروكوبيوس[(٦)] يذكر غدامس على أنها أولى مدن حدود إقليم طرابلس والتي حظيت باهتمام الإمبراطور جستنيان فإنه من المرجح أن علاقة هذه المدينة بالبيزنطيين كانت علاقة عابرة، خاصة بعد انسحاب الحامية البيزنطية من قلعة لوروكو بوادي الآجال عندما عجز الجرمنت عن تأمين نفقات هذه الحامية[(٧)].

تتضح خطوط الدفاع في ولايتي زوجيتانيا وبيزاكيوم من خلال العديد من القلاع المهمة التي شكلت ثلاثة خطوط استراتيجية: الأول ويظهر على الشريط الساحلي بين قابس وقرطاجة حيث تحاط أغلب مدنها بأسوار، والخط الثاني يمتد على الطريق الرابط بين قرطاجة وتبسة حيث تظهر فيه عدد من القلاع الحصينة مثل قلعة حيدرة

---

(1) **BelKhodja, K. et Autres.,op.cit.,p.253; Murabet,M.,op.cit.,p.20**.

(٢) ب.هـ.ورمنقتن ، مرجع سابق ، ص٤٩؛

Mansouri, M.T.,op.cit.,p.35.

(٣) للمزيد حول الاحتلال البيزنطي لإقليم طرابلس ينظر :

Diehl, C., Afr. Byz. Hist.,pp.228-231.

(٤) مثلت هذه المناطق أحد خطوط الدفاع الحدودية لإقليم تريبوليتانيا ، وكانت بمثابة حصون تشرف على طرق القوافل الرئيسة المتجهة نحو الجنوب في العصر الروماني ، ينظر : ر.ج . جود تشايلد ، مرجع سابق ، ص ص٥٣-٥٤.

(5) **BenAbbés, M.,op.cit.,p.35.**

(6) **Procopius, Buildings.,Vl.,III.9.**

(٧) عبد اللطيف البرغوثي التاريخ الليبي القديم ، مرجع سابق ، ص٤٩٧.

وهنشيرلوربوس وعين تونقة[١]، في حين يمر خط الدفاع الثالث بقلعة سبيبه وممس وجلولاء[٢].

أما حدود نوميديا فقد بدأت بقلعة تبسة التي تحاذى السفح الشمالي لجبال الاوراس حيث توجد عدة منافذ لغزو القبائل المحلية على مسافة لا تزيد عن ٢٠٠ كيلومتر ، لذلك فإن البيزنطيين قد عملوا على بناء العديد من المراكز العسكرية كان من أهمها حصن قصر الكلب ومسكولا والزاب وتيمقاد ولمبيز[٣]، كما كانت أهم الحصون البيزنطية في هذه الولاية بقسنطينة وقلمة[٤]، بالإضافة إلى وجود بعض المواقع الدفاعية الأخرى المتقدمة في اتجاه الجنوب[٥].

من الواضح أن سيطرة البيزنطيين في غرب نوميديا لا يمكن التأكيد على حدودها إلا خلال فترة حكم القائد سولومون التي اتسعت فيها هذه السيطرة غرب الزاب والذي توضحه تحصينات ترمونت (Tarmount) أو أراس وعين بسام الواقعتين شمال غرب منطقة المسيلة والتي تعود لهذه الفترة [٦].

في موريتانيا الستيفية بدأت الحدود من تحصينات مدينة جستنيانا زابي[٧] (Justiniana Zabi) حتى وادي بو سلام الذي يدخل تحت حكم المركز العسكري في ستيف ، كما توجد بعد ذلك عدة مواقع أخرى من أهمها جميله والميلا[٨]. أما موريتانيا القيصرية فإن مواقعها الدفاعية قد تمركزت في الموانئ الساحلية في كل من رأس ماتيفو ومدينة الجزائر وتيبازة وتنس ومدينة شرشال أو قيصرية[٩] التي تم إعادة

---

(1) **Bel Khodja,K.et Autres.,op.cit.,p.255**.

(٢) فتحي عثمان ، مرجع سابق ، ج١ ، ص٩٢.

(3) **Kaddache,M.,op.cit.,pp.219-220.**

(٤) مبارك بن محمد الميلي ، مرجع سابق ، ص٣٦٤ ؛ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، مرجع سابق،ص١٣٧.

(5) **Kaddache,M.,op.cit.,p.220.**

(6) **BenAbbes,M.,op. cit.,p.45.**

(٧) كانت هذه المدينة أقصي مدن الجنوب الغربي في ولاية موريتانيا الستيفية في زمن الإمبراطور جستنيان والتي حظيت باسمه بعد زيادة تحصيناتها لتصبح من أهم خطوط الدفاع البيزنطية المشرفة علي الطريق الرابط بين منطقة الشط والحضنة وجبل بوطالب، ينظر :

BenAbbes, M.,op.cit.,p.45.

(8) **Kaddache,M.,op.cit.,p.221.**

(٩) محمد محي الدين المشرفي ، مرجع سابق ، ص١٤١ ؛ شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص٣٦٣.

بناء تحصيناتها وبخاصة سور المدينة في زمن الإمبراطور جستنيان بسبب كثرة غارات القبائل الموريتانية في أقصى الغرب(١).

إن السيطرة البيزنطية وإن تعدت مدينة قسنطينة لتصل إلى مدينة شرشال كأفضل وأكثر اتساع لها باتجاه الغرب(٢) فإن المواقع الدفاعية والعسكرية بالنسبة للبيزنطيين في أقصى غرب شمال أفريقيا كانت مدينة سبته بما تمثله قلعتها الحصينة من أهمية بالغة ومزدوجة في ذات الوقت من حيث إنها تعمل على حماية ومراقبة المضيق من جهة وفتح طرق تجارية جديدة مع غرب أوروبا وخاصة أسبانيا وغالة من جهة أخرى(٣).

هكذا كانت مناطق الحدود البيزنطية أثناء حكم الامبراطور جستنيان من خلال ما أظهرته الخطوط الدفاعية والمراكز العسكرية في أنحاء مختلفة من الولاية البيزنطية الجديدة . لكن بقي من المهم معرفة ما هي سمات وخصائص العمارة الدفاعية البيزنطية ؟ وما أهم أنواع التحصينات التي أنشأها البيزنطيون ومدلولاتها؟.

مع أن التحصينات في أفريقيا البيزنطية كانت بالنسبة لمعظم أطراف الإمبراطورية البيزنطية جديدة بالكامل، إلا أنه من ناحية أخرى لم تكن جديدة في تقنيات التصميم والبناء، وذلك لأن المبادئ والأسس النظرية التي يقام عليها التحصين البيزنطي في القرن السادس من المرجح أنها وردت في الكتابات المعاصرة لواضعي النظريات العسكرية والتي قد اشتقت أفكارها جزئياً من التقليد الهيليني الذي يعد الأصل الذي يمكن أن يكون قد اتبع منذ بدايات القرن الثالث قبل الميلاد(٤).

من الملاحظ أن إنشاء التحصينات البيزنطية في شمال أفريقيا كان ضمن صلاحيات الحاكم العسكري، وبخاصة في الظروف الاستثنائية ، ولكن مع ذلك فإن

(1) **Duval, P.M.," Cherchel et Tipasa"Recherches Sur deux Villes Fortes de L`Afrique Romaine,institut Français D`archéologie de Beyrouth,tome XLIII,Paris,1946,p.163.**

(2) **Pavy,A.,op.cit.,p.275.**

(3) **Gozalbes,E.,op.cit.,pp.35,39.**

(4) **Pringle,D.,op.cit.,p.131.**

الإمبراطور جستنيان هو الذي يتخذ قرارات بناء التحصينات أو إعادة ترميم بعض المباني وتهيئتها للعمل الدفاعي من جديد في جميع أنحاء الإمبراطورية(١).

على أية حال من الخطأ الافتراض بأن المهندسين العسكريين البيزنطيين قد عملوا بمفردهم على استحداث النظام الدفاعي في المنطقة، ذلك أن تعدد أنواع البناء يمكن أن يلاحظ ليس فقط في شمال أفريقيا بل في أنحاء الإمبراطورية البيزنطية كلها، وتظل معرفة ملامح نماذج التحصينات وهندستها هي المسألة الجوهرية في هذا الموضوع(٢).

لعل ما يذكره بروكوبيوس(٣) يكون ذا جدوى في هذا الجانب فيما يتعلق بالشخصيات القيادية العديدة والمهمة على المستويين الإداريين العسكري والمدني التي من المرجح أنها لعبت دوراً بارزاً في إضفاء الصبغة البيزنطية على معظم التحصينات الدفاعية وفي كونها شخصيات من أصول شرقية في الغالب، كما هو الحال مع أغلب الضباط والجنود الذي جاءوا مع الحملة البيزنطية أيضاً، وهناك أعداد كثيرة من البنايات تصل إلى المئات قد وظفت للأعمال الدفاعية في العصر البيزنطي وقد أثبتتها وتم التأكيد عليها من قبل الدراسات الأثرية(٤) التي من خلالها يمكن دراسة نظام الدفاع أفضل من أي مكان آخر ، فالعدد الكبير من الأسوار والجدران والحصون التي يعود تاريخها لفترة القائد سولومون لا زالت شاخصة للعيان ، وهي تعد أفضل سجل للأحداث وتفسيراً حقيقياً للأسس والنصوص المدونة في الكتابات العسكرية المعاصرة(٥).

كانت المراكز البيزنطية المحصنة في شمال أفريقيا تعتمد بالأساس على سور ذي طابقين معززين بأبراج ضخمة ذات شُرف عديدة و يتقدم هذا السور سور أمامي للساحة ، وتشكل المسافة بين السورين ملجأ طبيعياً للسكان الذين سكنوا بالقرب من

---

(1) **Mansouri,M.T.,op.cit.,p.29.**

(2) **Pringle,D.,op.cit.,p.132.**

(٣) حول هذه الشخصيات والقيادات العسكرية والمدنية والمناصب التي شغلوها أثناء الحملة البيزنطية عام ٥٣٣م ينظر : **Procopius,Hist. War.,III.XI**.

(4) **Belkhodja, K. et Autres.,op.cit.,p.254.**

(5) **Bury,J.B.,op.cit.,p.148**.

هذه التحصينات، كما تتقدم الخنادق الأسوار الأمامية التي حفرت بشكل عميق وواسع لتمثل خط الدفاع الأول لهذه المراكز[١]. إضافة إلى ذلك فإن هذه المراكز المحصنة التي ارتبطت بمواقع متتابعة مزودة بالمياه والمؤن كانت مهمتها إغلاق الحدود ومراقبة تحركات القبائل المحلية، ويلي هذه المواقع أيضاً المدن العامة وعدد كبير من القلاع والحصون لحماية الطرق الرئيسة[٢]، هذه الطرق من المرجح أنها كانت ذات طابع عسكري واقتصادي في ذات الوقت والتي استُخدمت من قبل الرومان في السابق[٣]. من هذه المدن التي كانت على ملتقى الطرق المهمة الرابطة بين العديد من المدن الأخرى مدينة حيدرة التي تم تحويل قوس سبتيموس سيفروس منها إلى قلعة صغيرة وسط المدينة والتي اختلف مظهرها من حيث التحصين البيزنطي اختلافاً كبيراً عن السابق[٤].وكذلك مدينة قفصة التي تم إعادة بناء سورها وحصنها الكبير في ولاية القائد سولومون الثانية، وكانت من أهم مدن الحدود اقتصادياً وسياسياً في ولاية بيزاكيوم[٥].

تجاوز ارتفاع بعض الأسوار الثمانية أو العشرة أمتار والتي كانت مكونة من الحجارة المقطوعة ومشحونة بمواد مختلفة، في حين كان سمكها يبلغ المترين ونصف، أما ما يخص جودة البناء فيها فقد تفاوتت بحسب تفاوت مقدار جودة اليد العاملة[٦]، ومن هذه الأسوار ما كان سائداً في مدينة دوغا، عين تونقة، تبرسق، جلولاء، تليبات، وحيدرة، وتيمقاد. وعلى الرغم من علو ارتفاعها إلا أنها بُنِيت على عجل في ظل الظروف السياسية والعسكرية السيئة زمن الإمبراطور جُستنيان[٧].

---

(١) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص٣٦٤ ؛ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ، مرجع سابق ، ص١٣٧.

(2) **Kaddache, M.,op.cit.,p.219**.

(٣) تعددت أنواع الطرق و تنوعت في العصر الروماني حسب الدور الذي كانت تلعبه، فمن هذه الطرق، الطرق العامة (Viae Publicae) والطرق العسكرية (Viae Militares) والطرق الخاصة (Viae Privatae) والطرق التي شُقت في الأرياف (Viae Agraria) للمزيد، ينظر: آسيا مسعودي بوعجيمى ، مرجع سابق ، ص ص١٦٠-١٦٢.

(4) **Wells,C.M.,op.cit.,p.93**.

(٥) محمد علي بلحولة ، مرجع سابق ، ص ص١١٢-١١٤؛
Saumagne,C.,Capsa.,p.529; Goodchild, R.G.and Perkins,W.J.B.,op.cit.,p.72.

(٦) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص٣٦٤.

(7) **Saumagne, C.,Reco.Byz.Afr.,p.294**.

كانت سمة الدفاعات البيزنطية متميزة جداً بشأن الأسوار عن سابقاتها، وذلك من خلال أبعادها وطرق بنائها ، فسور مدينة لبدة الكبرى الجديد كان يبلغ سمكه ١,٩٠ متر ومؤسس على قاعدة صُلبة تبلغ ٢,٢٠ متر ، وكانت حجارة السور مصقولة من الحجر الكلسي والرملي ومدعومة بملاط مصنوعة من أصداف البحر المطحونة التي زادت من صلابة السور وتماسكه(١).

إن تخطيط الحصون أي بمعنى إعداد شكل الأبراج والبوابات والجدران الدفاعية كان رهن اثنين من العوامل المتغيرة : أولاً حجم المساحة التي ينبغي تطويقها والتي هي بدورها تعتمد على حجم الحامية أو التجمع المدني الذي يقطن ضمن هذا الحصن، ثانياً : طبيعة التضاريس ومكان الموقع، ويمكن حصر أهم ثلاث أنواع من التحصين التي تميزت بها أفريقيا البيزنطية على أساس حجمها ومخططها في الأبراج ثم الحصون والقلاع التي مساحتها المطوقة قد تتباين من ٠,٠٥ إلى ١,٧٥ هكتار وأخيراً القلاع والحصون وأسوار المدن التي تضم مساحة حوالي ١,٨٠ هكتاراً وأكثر (٢).

تميزت القلاع البيزنطية في معظم تخطيطها بالشكل المستطيل وتحتوي على أسوار قد يصل ارتفاعها إلى ١٠ أمتار(٣). مع ذلك فإن الأشكال الغريبة غير المنظمة كانت في بعض الأحيان مطلوبة ويفرضها الموقع ، وتعد تبسة نموذجاً محفوظاً بشكل جيد عن القلعة الكبيرة المستطيلة وأبعادها (٣٥٠×٣٠٥ياردة) ولها ثلاث بوابات وأبراج على أطرافها، أما قلعة تيمقاد فهي أصغر حوالي (١٢٢×٧٥ياردة) ولها برج في كل ركن ووسط كل جانب من جوانبها وكذلك حصون صغيرة تشبه حصون لمسة التي لها برج على كل زاوية من الزوايا الأربعة(٤).

إن الأبراج المستطيلة والجدران الساترة وإن كانت كثيرة التواجد في الفترة البيزنطية في شمال أفريقيا، فإن الجدران الخارجية وكذلك الأبراج خماسية الشكل كانت

---

(1) **Goodchild, R.G.and Perkins, J.B.W.,op.cit.,p.55.**

(2) **Pringle, D.,op.cit.,pp.139-140.**

(3) **Belkhodja, K. et Autres.,op.cit.,p.254.**

(4) **Bury, J.B.,op.cit.,p.149**.

نادرة الوجود في المنطقة(١).وقد يفسر عدم تواجد الأبراج الخماسية على وجه التحديد بانعدام خبرة السكان المحليين الإحاطة بالحرف التي تتطلب براعة يدوية، إلا أن للعوامل المحلية في تصميم وبناء التحصينات من حيث توفر مواد البناء واستخدام العمالة المحلية من المتوقع أنه أثر على العديد من الجوانب التفصيلية الدفاعية(٢).

أما المعسكرات البيزنطية والتي تُعد من النظم الدفاعية المهمة التي اهتم البيزنطيون بإنشائها فإنها كانت تقام في ظروف وفترات معينة أثناء الحروب والمعارك ، من حيث إقامة الخنادق والسواتر الترابية وكذلك الأوتاد والحصون الصغيرة إضافة إلى اختيار موقع هذا المعسكر أو ذاك ، وقد تحدث المؤرخون الكلاسيكيون عنها بإسهاب في شمال أفريقيا وبخاصة كوريبوس(٣) في العديد من فقرات ملحمته ، وكذلك الحال بالنسبة للمؤرخ بروكوبيوس(٤).

هذا وتجدر الإشارة إلى مظهر آخر من مظاهر التحصينات الدفاعية وهي بوابات الحصون والمدن البيزنطية في شمال أفريقيا والتي كان لها طابعها الخاص بها في هذه الفترة. ويمكن إجمالها في خمسة أنواع رئيسية هي: أولاً البوابة البسيطة أو غير المزخرفة المدعومة بحائط ، ثانياً البوابة المحمية بزوج من الأبراج، ثالثاً بوابات أبراج من النوع الممتد على استقامة واحدة ، رابعاً مدخل مصمم داخل بوابة برج، خامساً بوابة محمية ببرج واحد . وتعد البوابات من النوعين الأخيرين هي المفضلة على نحو خاص للمداخل الخلفية(٥).

رابعاً: الصعوبات التي واجهت الإدارة العسكرية البيزنطية

كانت الإدارة البيزنطية في شمال أفريقيا منذ تأسيسها عام ٥٣٤م قد تعرضت إلى مخاطر حقيقية سياسية واقتصادية، وأمام محاولة التوسع وسياسة الهيمنة البيزنطية

---

(1) **Smith, D.and Crow,J.,"The Hellenistic and Byzantine Defences of Tocra (Taucheira)", L. S, Vol.29,1998,p.66.**

(2) **Pringle, D.,op.cit.,p.132.**

(٣) كوريبوس ، مصدر سابق ، ص ص٦١ ، ١٤٥ ، ١٧٦.

(4) **Procopius, Hist.War.,III.XV.٢٩-3٠.**

(5) **Pringle, D.,op.cit.,p.159.**

على المنطقة والسكان المحليين واجهت المؤسسة العسكرية صعوبات كثيرة كان من أهمها :

أولاً : الفوضى العسكرية في الجيش البيزنطي.

ثانياً : الأساليب العسكرية المحلية.

١. الفوضى العسكرية في الجيش البيزنطي

كان الجيش البيزنطي تنقصه الوحدة والنظام مع أنه امتلك فنون الحرب وأساليب القتال، وقد تألف من أخلاط غير منظمة وفئات مختلفة من الأجناس[١]. وهذا على ما يبدو ما زاد من صعوبة انضباط الجيش البيزنطي وانصياعه لقادته، إذ أظهر الجنود المرتزقة بشكل خاص من القبائل والشعوب المتحالفة عدم الاكتراث بأوامر القادة البيزنطيين حتى قبل وصول الحملة البيزنطية إلى شمال أفريقيا .

في هذا السياق يذكر بروكوبيوس[٢] حادثة قتل جنديين من قبيلة الماساقيتا الهونية لرفيقهما بعد إفراطهما في شرب الخمر، وقد جاء رد القائد بليزاريوس سريعاً بقتل هذين الجنديين بالخازوق بالقرب من منطقة أبيدوس (Abydus)، الأمر الذي أثار حفيظة العديد من الجنود وخاصة أقارب الجنديين الذين احتجوا على هذا العقاب، وأعلنوا بأنهم لم يدخلوا في الحلف مع البيزنطيين لكي يعاقبوا أو لكي يخضعوا للقوانين البيزنطية « وقالوا بأن قوانينهم لا تجعل عقاب القتل بهذه الطريقة »[٣].

وقد تُظهر هذه الحادثة الصغيرة مدى الانقسام والشقاق الخفي داخل الجيش البيزنطي الذي ضم جنوداً من أعراق مختلفة دخلوا الحرب مع البيزنطيين بصفتهم محالفين لا خاضعين للحكم البيزنطي.

بعد وصول القوات البيزنطية إلى شمال أفريقيا كان على القائد بليزاريوس مهمة أكثر صعوبة من أي وقت مضى، وهي الحاجة الضرورية للانضباط التي كانت نقطة

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص٥٨.

(2) **Procopius, Hist.War., III.XII.8-10.**

(٣) في خطاب مطول جداً ألقاه القائد بليزاريوس على جنوده أكد فيه على ضرورة اتباع جميع تعليماته وأن السكر حتى وإن لم يؤد إلى جريمة قتل فإن صاحبه يستحق العقاب، حول هذه الحادثةوتعليمات بليزاريوس الصارمة، ينظر : **Procopius,Hist.War.,III.XII.8-22.**

الضعف في جيشه الذي أصبح في أتون حرب حقيقية مع الونداليين(١). ومع ذلك فإن خروقات الجيش البيزنطي لاسيما في الاعتداء على ممتلكات السكان المحليين كانت تقع بين الحين والآخر رغم تعليمات وتوجيهات القائد بليزاريوس الكثيرة ورغم حتى العقوبات التي ينفذها في حق المذنبين(٢)، الأمر الذي أشار إليه بروكوبيوس في عدة مواضع(٣).

مع أن انتصار البيزنطيين على الوندال وحالة الحياد التي كانت سائدة من قبل زعماء القبائل المحلية في الحرب البيزنطية الوندالية، فإنه سرعان ما تبين أن حكم الإمبراطورية البيزنطية الآمن والمستقر بالكاد يكون أفضل حالاً من العصر الوندالي ، فبمجرد أن أبحر بليزاريوس إلى القسطنطينية اندلعت ثورتان محليتان هما ثورة ابيداس في نوميديا وثورة كوتزيناس في بيزاكيوم . لكن الأمر الأكثر خطورة الذي هدد الوجود البيزنطي برمته هو ذلك التمرد الخطير الذي حدث في الجيش البيزنطي(٤).

هذا التمرد العسكري الذي وقع داخل القوات البيزنطية قد قاده القائد ستوتزاس عام ٥٣٦م بما انضم إليه من الساخطين على الحكم البيزنطي من الجنود البيزنطيين وبقايا الوندال والسكان المحليين في نوميديا(٥)،على أن أشهر من انضم إليه الضابطان البيزنطيان هيرموجينيس(Hermogenes) وتاوراس (Tauras)إضافة إلى ثلة من القوات البيزنطية(٦) في حين كان أهم الحلفاء من الزعماء المحليين متمثلاً في الزعيم انتالاس(٧).

نجحت حركة التمرد التي قادها ستوتزاس في تحقيق بعض الانتصارات على القوات البيزنطية،خاصة بعدما تم محاصرة قرطاجة بحوالي تسعة آلاف جندي من المتمردين، وإن كان القائد بليزاريوس الذي حضر بسرعة من جزيرة صقلية قد تمكن

---

(1) **Bury,J.B.,op.cit.,p.131.**

(2) **Raven,S.,op.cit.,p.210.**

(3) **Procopius,Hist.War.,III.XVI.1-2,III.XX-22-25.**

(4) **Raven, S.,op.cit.,p.213.**

(٥) شارل أندريه جوليان، مرجع سابق، ص٣٦٨؛

Saumagne, C.,Reco.Byz.Afr.,p.295.

(٦) كوريبوس، مصدر سابق،ص ص٨٦-٨٧.

(7) **Brik, S.,op.cit.,p.14; Pavy.A.,op.cit.,p.281.**

مـــن هزيمـــة قـــوات ســـتوتزاس فـــي مجـــاز البـــاب،ومن ثـــم نصـــب للقيـــادة ثيودور (Theodore) والديجر (Ildiger) حتى يعين الإمبراطور خلفاً للقائد سولومون الـذي رحـل إلـى القسـطنطينية، فـإن مغـادرة بليزاريـوس السـريعة قـد زادت الوضـع سوءاً،حيث تركزت قوات المتمردين في نوميديا،وأصبح ثلثا الجيش البيزنطي في حالة تمرد[١].أمام هذه الصعوبات الخطيرة التي عانت منها المؤسسة العسكرية البيزنطية أرسل الإمبراطور ابن عمه جرمانوس قائداً عاماً وأعطاه كل الصلاحيات اللازمة لإعادة الأمن والاستقرار للمنطقة والقضاء على حركة التمرد[٢].ولقد استطاع جرمانوس في وقت قصير بسياسة الاسترضاء والتنازلات مع الضباط والجنود المتمردين إنهاء تمردهم واستقطاب العديد منهم إلى جانبه،ثم القضاء على البقية الباقية من أتباع ســـــتوتزاس عـــــام٥٣٧م،ومـــــع ظهـــــور ســـــريع لتمـــــرد آخر بقيادة ماكسميان(Maximin) في فترة حكم جرمانوس فإن هذا الأخير تمكن من القضاء على التمرد وقتل قائده ماكسميان[٣].

ومن الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى الأسباب العديدة والمتنوعة التي أدت إلى نشوب حركة التمرد بقيادة ستوتزاس والتي تدخل في إطار الحرب الأهلية بين البيزنطيين في شمال أفريقيا وإن كانت في شكلها النظري. وعلى الرغم من أن هذه الحركة لم تكن الوحيدة أثناء حكم الإمبراطور جستنيان في المنطقة فإنها إلى حد كبير كانت أخطر الحركات وأكثرها وضوحاً.

من هذه الأسباب زوجات الضباط والجنود البيزنطيين من النساء الونداليات اللاتي عملن على التأثير على أزواجهن لاسترداد أملاكهن وأملاك آبائهن وأزواجهن الونداليين في السابق ، بل والدعوة مع أزواجهن البيزنطيين إلى الاستئثار بغنائم المعارك التي كانوا يخوضونها[٤] . بالإضافة إلى ذلك فإن الخلاف الديني قد لعب دوره أيضاً من حيث إن الكثير من الجنود المرتزقة من الأريوسيين في الجيش

---

(1) **Bury, J.B.,op.cit.,p.144**.

(2) **Joens, A.H.M.,Lat.Rom.Emp.,Vol.1.,p.277.**

(٣) شارل أندريه جوليان، مرجع سابق،ص ص٣٦٨-٣٦٩؛

Jean-Claude Cheynet.,op.cit.,p.33.

(4) **BelKhodja, K. et Autres.,op.cit.,p.2٥١; Raven,S.,op.cit.,p.213.**

البيزنطي قد كانوا غير راضين عن سياسة عدم التسامح الديني التي تم تشريعها من قبل الإدارة البيزنطية، وعلى ما يبدو فإن أكثر الأسباب التي ساهمت في حركة التمرد كانت في تأخر الإدارة البيزنطية في دفع رواتب الجنود والتي كانوا ملزمين بدفع الضرائب منها(١).

إن عدم الالتزام بتسديد رواتب الجنود البيزنطيين في مواعيدها لم يكن حالة استثنائية في شمال أفريقيا فحسب، بل كان ذلك يسير وفقاً لسياسة الإدارة المركزية في القسطنطينية التي ربما سعت إلى ملء خزانتها من خلال التملص من دفع مرتبات الجند، بل وحتى إلى تقليص عدد الجيش البيزنطي أثناء حكم الإمبراطور جستنيان(٢)، الأمر الذي أدى في النهاية إلى العديد من التمردات وفرار الجنود وعدم بقائهم في الخدمة العسكرية في الجيش البيزنطي(٣).

هذا الوضع المأساوي الذي كانت تعانيه المؤسسة العسكرية من خلال عدم المبالاة بصرف مرتبات الجند والسعي إلى إهمالهم قد أشار إليه بروكوبيوس(٤) في تاريخه السري بوضوح خاصةً في جعل الجيوش تنتظر طويلاً لكي يتم دفع مرتباتها، كما يشيرهذا المؤرخ إلى أمر آخر بالغ الأهمية و هو تلاعب ضباط الحسابات وأعمال التزوير التي كانوا يقومون بها، لاسيما في محاولة عدم حذف أسماء الموتى من الجنود الذين كانوا يموتون بأعداد كبيرة في الحروب وعدم إضافة الأسماء الجديدة لقوائم التجنيد ولفترات طويلة. مما أدى إلى تقليص عدد الجيش والاستفادة من سرقة مرتبات الجند المتوفين على ما يبدو. هذا علاوة على الخصومات المختلفة الأنواع التي كانت تُخصم من مرتبات الجند وتأخر مرتبات جنود المناطق الحدودية إلى أربع أو خمس سنوات أيضاً(٥).

---

(1) **Bury, J.B.,op.cit.,p.143;**

نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، مرجع سابق ، ص١١٩.

(2) **Joens, A.H.M.,Lat.Rom.Emp.,Vol.2.,p.676;**

أسمت غنيم، مرجع سابق، ص٨٦.

(3) **Joens, A.H.M.,Dec.Anc.Wor.,p.227.**

(4) **Procopius, Anecdota.,XVIII.11-12.**

(٥) للمزيد حول ضباط الحسابات في الجيش البيزنطي وعلاقة الإمبراطور جستنيان بالجنود، ينظر :
Procopius,Anecdota.,XXIV.1-14.

إن خطورة هذا التمرد بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية كانت تكمن بالدرجة الأولى في أنها محاولة انفصالية عن القسطنطينية(١)، وهو ما أثار شكوكاً جديدة حول تلك الانتصارات البيزنطية السابقة(٢)، حتى أن بروكوبيوس(٣) ذكر هذه المحاولة قبل سياقها التاريخي عندما كان يتحدث عن الاستعدادات السياسية والعسكرية قبيل انطلاق الحملة حيث قال: « ستوتزاس الذي قدر أن يكون عدواً للإمبراطور وليقوم بمحاولة لإقامة حكم مستبد وألا يعود إلي بيزنطة على الإطلاق وأعتقد أن لعنة الله قد انقلبت عليه ».

مهما يكن من أمر فإن الفوضى العسكرية قد استمرت حتى بعد القضاء على هذا التمرد والتي قد جاءت متزامنة هذه المرة مع ثورة القبائل المحلية الكبرى عام ٥٤٤–٥٤٨م، على أن أهم أسباب هذه الفوضى كان في عدم اختيار حكام وضباط بيزنطيين ذوي كفاءات عالية كما كان الحال بالنسبة للقائد سيرجيوس عام ٥٤٤م(٤)، وحالة الصراع بين القادة البيزنطيين علي السلطة وضعف الإدارة المركزية في التعامل معهم(٥)، ومن هذه الصراعات ما كان قائما بين سيرجيوس واريوبندوس ، وبين هذا الأخير وجانتاريت الذي تعاون مع بعض الزعماء المحليين للوصول إلى السلطة عام ٥٤٦م(٦).وبذا فقد مثلت هذه الصراعات بين القادة البيزنطيين قمة الفوضى العسكرية في تلك الفترة(٧).

وليس مستبعداً أن الأزمة المالية التي كانت تعصف بالإمبراطورية البيزنطية قد ألقت بظلالها علي شمال أفريقيا، فعجز الإدارة البيزنطية عن دفع التكلفة المرتفعة لجيش دائم في المنطقة(٨)، والتأخر في دفع رواتب الجيش البيزنطي الذي تم الإشارة

---

(١) نعيم فرح ، تاريخ بيزنطة ، ص١١٩.

(2) **Diehl, C,.Just.Civi.Byz.,p.178.**

(3) **Procopius, Hist.War.,III.XI.30.**

(4) **Briki, S.,op.cit.,p.14.**

(٥) مصطفى العبادي ، مرجع سابق ، ص ص٢٧٠–٢٧١.

(6) **Bury. J.B.,op.cit.,p.146; Raven, S.,op.cit.,p.218.**

(٧) للمزيد حول الفوضى العسكرية التي كانت قائمة بين القادة البيزنطيين بالتفصيل ينظر :
Joens,A.H.M.,Lat.Rom.Emp.,Vol.1.,pp.287-300.

(8) **BenAbbès, M.,op.cit.,p.50.**

إليه في السابق، وكلفة الإنفاق على التحصينات خاصة زمن سولومون، قد أدى هذا كله على ما يبدو إلى تملص الإدارة البيزنطية عن دفع الإعانات المالية التي كانت تُدفع للزعماء المحليين مثل الزعيم انتالاس(١) والإخلال بالمعاهدات المبرمة معهم .

إن حركات التمرد أثناء حكم الإمبراطور جستنيان لم تنقطع أبداً، والأمثلة علي ذلك كثيرة داخل القوات البيزنطية(٢).فحتى أثناء قيادة القائد جون تروجليتا الذي استطاع إلى حد كبير القضاء علي الثورة المحلية التي قامت في شمال أفريقيا فإن تذمر الجنود البيزنطيين بل عدم انصياعهم وانضباطهم لقادتهم كان واضحاً، خاصة عندما كانوا يخوضون حروباً ومعارك في ظروف صعبة علي أطراف الصحراء مع قائدهم تروجليتا ضدا لقبائل المحلية(٣).وفي النهاية كانت سياسات جستنيان مدمرة للإمبراطورية لأن حروبه كانت مكلفة جداً، في حين أن انتصاراته في أفريقيا وإيطاليا وأسبانيا كانت ضعيفة ومحدودة(٤).

هكذا كانت المؤسسة العسكرية تعاني الأمرين من الصعوبات والمشاكل الكثيرة: من انقسام وتمرد داخل الجيش البيزنطي، ومن استشراء الفوضى العسكرية بين قادتها وضباطها من جهة وجنودها من جهة ثانية. على أن هذه الصعوبات البيزنطية الصرفة قد رافقتها صعوبات أخرى تمثلت في ثورات القبائل المحلية وما امتلكته هذه القبائل من فنون وأساليب حربية لم يعتد البيزنطيون عليها.

٢ .الأساليب العسكرية المحلية

من الواضح أن الأساليب الحربية التي كانت تستخدمها القبائل المحلية ضد أعدائها من الرومان والوندال والبيزنطيين لم تكن بتلك الأساليب المتطورة والدفاعات المحصنة التي ترقى إلى قوة هؤلاء الأعداء ، ولكن ذلك لم يمنع أن تحقق أعمال الكر والفر وحرب العصابات التي كانت تشنها هذه القبائل انتصارات كبيرة وعديدة.

---

(١) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص٣٧٠.

(2) **Baynes, N.H.,op.cit.,p.134.**

(٣) هناك العديد من حالات التمرد والعصيان بين الجنود البيزنطيين تحت قيادة تروجليتا ، ينظر : كوريبوس ، مصدر سابق ، ص ص١٣٩-١٤٠، ١٤٣ ؛ عبد اللطيف البرغوثي ، التاريخ الليبي القديم ، ص٤٧١.

(4) **Hoyt, R.S., op.cit.,p.106.**

إن الوسيلة الجديدة و البارزة في تحقيق عدد من هذه الانتصارات كان في استخدام الجمل على نطاق واسع والذي مثل المحرك الرئيسي للحرب والإغارة(١). على أن أهمية استخدام الجمل وإن ظهرت منذ القرن الأول للميلاد في شمال أفريقيا فإن زيادة أعداده عند القبائل المحلية قد كانت بصورة واضحة بعدما طرد الرومان العديد من هذه القبائل خلف خط التحصينات على الأطراف الشمالية للصحراء(٢). ويظهر العدد الكبير الذي طلبه القائد رومانوس أربعة آلاف جمل من مدينة لبدة الكبرى في سنة ٣٦٣م لمحاربة قبيلة الاستوريانى تغيراً بالغ الأهمية في الاستخدام الحربي للإبل(٣).

في العصر الوندالي يبدو أن السلطة الوندالية لم تكن صارمة إزاء تعدد ونمو الإمارات المحلية المستقلة إذ لم يمضِ قرن على استيطان الوندال حتى بدأت تأتي من الشرق أعداد كبيرة من القبائل الرحل الجمالة(٤) التي تميزت بطبعها وأسلوبها الحربي الخاص بها.

ففي زمن حكم القائد الوندالي تراساموند استطاع زعيم قبيلة لواتة كاباون (Cabaon) تحقيق نصر حاسم على القوات الوندالية في إقليم طرابلس عام ٥٢٣م، وذلك بسبب استخدام أسلوب حربي جديد كانت الجمال من أهم دعاماته(٥). ويذكر بروكوبيوس أن كاباون قد بعث ببعض أعوانه لتتبع حركات الجيش الوندالي، وقام باتخاذ المكان المناسب لساحة المعركة بعد ما قام بالتحصينات اللازمة بوضع عدد من الإبل في شكل دائرة لحماية المعسكر، وأنزل الأطفال والنساء وكل من لا يستطيع القتال في داخل هذه الدائرة المحصنة، في حين اتخذ الرجال المقاتلون مواقعهم خلف الجمال. وبهذه الطريقة لم تتمكن قوة الوندال التي كانت في الغالب من الخيالة أن تنال

---

(1) **Mattingly, D.J.,Lagu.Lib.,p.105 ;**

أحمد محمد انديشة ، مرجع سابق ، ص١٤٩.

(2) **Laroui, A.,op.cit.,pp.69-70.**

(٣) حول أهمية استخدام الجمل في المعارك والحروب بالتفصيل ينظر :

Raven,S.,op.cit.,pp.203-205; Brogan,O.,op.cit.,pp.126-131; Joens, A.H.M., Fro. Def. Byz., pp.290-291;

بوفيل ، مرجع سابق ، ص ص ٨٣-٨٥.

(٤) شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص٣٤٨.

(5) **Pavy, A.,op.cit.,p.251; Moderan, Y.,op.cit.,p.214.**

من المحاربين اللواتيين الذين استطاعوا أخذ زمام المبادرة في القتال، وحققوا بذلك نصرهم الكبير (١).

هذا الأسلوب الحربي الجديد الذي ظهر في العصر الوندالي قد استمر العمل به في زمن الإمبراطور جستنيان وحتى وقت طويل بعد ظهور الإسلام في شمال أفريقيا(٢). وعلى الرغم من الانتصارات البيزنطية الكبيرة على محاربي القبائل فإن هؤلاء المحاربين قد عرقلوا بسبب تحصيناتهم من الحيوانات وخاصة الجمال تقدم القوات البيزنطية كما حدث ذلك في إحدى المعارك التي جرت في ضواحي سبيطلة(٣).

من المؤكد أن أفضل من يشير بوضوح إلى الأساليب الحربية للقبائل المحلية وعددها وكيفية إنشاء تحصيناتها الدفاعية المختلفة وأماكن إقامة معسكراتها وما إلى ذلك من أمور الحروب والمعارك هو الشاعر كوريبوس في ملحمته الشعرية " الحرب الليبية الرومانية " .

ففي مواضع كثيرة يشير كوريبوس إلى أن القبائل كانت تستخدم الحيوانات وخاصة الإبل كدروع وحواجز تحمي بها معسكراتها من الأعداء، ومن ذلك: ((إن المحارب من قبائل أوستور (Austur) يقوم بتجميع إبله ويقيم أسواراً و يحفر خنادق، ثم يضع مختلف قطعان الماشية وسط حلقة على أمل أن يوقع الأعداء في شرك هذه الحواجز، ويسحقهم في غمرة الاضطراب الذي يسود صفوفهم)) (٤).

ومن ذلك أيضاً: ((عمد كبير قادة الأعداء ايرنا (Ierna) لفرط حذره إقامة حاجز من الجمال على طول معسكره، وأحاط الساحة كلها بثمانية صفوف من الجمال، ثم قام بربط قطعان الماشية إلى بعضها بشد قرونها بحبال ذات ست عقد...(ثم يواصل الشاعر أنه تم إقامة) سياج من ثلاث تحصينات تحيط بالاستحكامات التي أقامها من أجساد الماشية، ثم قام بتفريق قطيعه الصغير وربط

---

(1) **Procopius,Hist.War.,III.VIII.24-29; Bakir, T.,op.cit.,p.20.**

(٢) أ. ف.غوتييه ، مرجع سابق ، ص١٣٥.

(3) **Saumagne,C.,Reco.Byz.Afr.,p.294.**

(٤) كوريبوس ، مصدر سابق ، ص٤٩ ؛

Jerary, M.T.,op.cit.,p.31.

بعضه ببعض وجعل منه متراساً، وفي الوسط قام بربط الحمير إلي بعضها البعض وربط الأرسان بإحكام، ثم قام بنصب كمائن حول المعسكر...)) [١].

فيما يخص التسليح فإن المحاربين المحليين كانوا أقل تسلحاً دون شك من البيزنطيين، فقد كانت أرجلهم وأذرعهم من دون غطاء، بينما يغطى الجسم والرأس ببرنس كبير مصنوع من الكتان، ولم يملكوا من الأسلحة الدفاعية سوى درع صغير من النحاس. أما للهجوم فإنهم كانوا مسلحين بسيوف قصيرة وعريضة، وكل مقاتل يحمل فيما عدا ذلك رمحين طويلين وقويين[٢].

أما عن خطط المعارك التي كانوا يخوضونها فإنهم في العصر الوندالي قد أتقنوا حرب العصابات والاختفاء في الصحراء التي خبروا دروبها ومسالكها[٣]، والتي استدرجوا إليها عدوهم، فضلاً عن قيامهم بالقضاء على الموارد والمحاصيل الزراعية وكل ما يمكن للعدو الاستفادة منه عند ملاحقتهم[٤]، وهو ما يمكن إدراجه تحت سياسة الأرض المحروقة التي لا تعطي العدو أية فرصة للاستفادة من المناطق التي يمر عليها.

وفي هذا الجانب يذكر كوريبوس نصيحة آيونفيان[٥](Iuenfeian) لأنتالاس ((...ومن المؤكد أن جيشهم (البيزنطيين) القوي سيقوم بتعقبنا أثناء هروبنا وعندئذ تقوم بتخريب جميع الحقول ذات المحاصيل الناضجة ، فلا يجدون أية مؤن ، وهذا سوف يؤدي إما إلى تبعثر قوات العدو أو إلى فنائهم جوعاً ، وعندها سوف ننتصر لو دخلت في معركة ضارية معهم ، لأن المهزومين سيسقطون صرعى الجوع أو السيف)) [٦].

إن خفة تسليح قوات القبائل المحلية قد كان يعطيها حرية الحركة ويمكنها من إرباك عدوها، وذلك بتطويق سلاح المشاة البيزنطي الثقيل ، ومع استخدام حرب الكمائن من خلال السيطرة على الممرات الصعبة في الجبال والغابات وبالقرب من

---

(١) كوريبوس ، مصدر سابق ، ص ص١٠٢-١٠٣.

(2) **Kaddache, M.,op,.cit.,p.225.**

(٣) إبراهيم علي طرخان ، شمالى أفريقية والوندال ٤٣٩-٥٣٤م، ص ١٥٧.

(4) **Yanoski, J.,App.His.Afr.,p.100.**

(٥) هو والد القائد انتالاس ، ينظر: هامش(٩) كوريبوس ، مصدر سابق ، ص٦٥.

(٦) المصدر نفسه ، ص ص١٦٦-١٧٦.

المستنقعات، فإن مقاتلي هذه القبائل كانوا لا يحبذون الدخول في حروب نظامية مع البيزنطيين، ويتفادون القتال المنظم في منطقة جغرافية مفتوحة كالسهول[١]، وإن عمدوا إلى ذلك فإنهم يتخذون المكان المناسب لمعسكراتهم ويقيمون تحصيناتهم اللازمة لملاقاة عدوهم بعدما يضعون نساءهم وأطفالهم في مواقع آمنة داخل تلك التحصينات[٢].

من الملاحظ أيضاً أن وجود النساء كان ضرورياً في المعركة، فقد أُمن لهن المكان المناسب في المعركة وذلك لأن اشتراكهن في المعركة كان للمساعدة في حفر الخنادق أو الاعتناء بالحيوانات[٣]، وربما القتال إلى جانب الرجال إذا ما استلزم الأمر.

هذا ويشيد كوريبوس[٤] بأن القبائل المحلية العديدة والمعروفة بخشونتها كانت تتمتع بالشجاعة والبأس الشديد في الحروب، سواء بالنسبة لجنودها المشاة أو الفرسان . فقد كانت بعض هذه القبائل غالباً ما تجد نفسها مرغمة على دخول المعارك بمختلف أعمار رجالها من الشباب والشيوخ. وبذا فإن طريقة انتقال الجميع بما فيهم النساء والأطفال إلى أرض المعركة كان هو الأسلوب الذي اتبع في شمال أفريقيا أثناء العصرين الوندالي والبيزنطي[٥] .

هكذا لعبت الأساليب الحربية والمهارات القتالية لهذه القبائل دوراً مهماً وحقيقياً في عرقلة الوجود البيزنطي، وكانت من أهم الصعوبات التي واجهتها المؤسسة العسكرية البيزنطية بما استخدمته هذه القبائل من عمليات الكر والفر وحرب الكمائن. وعلى الرغم من بساطتها ومحدوديتها مقارنة مع الأسلحة والدفاعات البيزنطية فإنها استطاعت أن تحقق نجاحات كثيرة على الجيش البيزنطي بسبب معرفة مسالك وطبيعة المنطقة من جهة ، والعدد السكاني الكبير لهذه القبائل من جهة أخرى .

---

(1) **Kaddache, M.,op.cit.,pp.225-226.**

(2) **Procopius, Hist.War.,III.VIII. 26; Mattingly, D.J.,Lagu.Lib., p.105.**

(٣) أ.ف.غوتييه ، مرجع سابق ، ص ١٣٥.

(٤) كوريبوس ، مصدر سابق ، ص ص٤٦–٤٧ ، ١٢١.

(٥) أ.ف.غوتييه ، مرجع سابق ، ص١٣٦.

الخاتمة

من خلال دراسة هذا الموضوع: (التاريخ السياسي والاقتصادي لشمال أفريقيا أثناء حكم الإمبراطور جستنيان ٥٢٧-٥٦٥م) اتضح للباحث أن هذه الفترة قد مثلت في حقيقتها الخفقة الأخيرة للحضارة والسيطرة الرومانية (البيزنطية) على حوض البحر المتوسط، ولو في شكلها النظري تاريخياً وجغرافياً.

فعلى الرغم من أن أعمال ومشاريع الإمبراطور جستنيان العسكرية والعمرانية في إعادة الهيمنة الرومانية على الأجزاء الغربية في أوروبا وأفريقيا التي خضعت قرابة القرن تحت سيطرة الشعوب الجرمانية، فإن هذه المشاريع قد باءت بفشل فادح سرعان ما ظهرت ملامحه في السنوات الأولى زمن خليفة الإمبراطور جستنيان، جستين الثاني (٥٦٥-٥٧٨م) والذي عان أكثر من غيره من الأزمات السياسية والاقتصادية الناتجة عن سياسات جستنيان السابقة.

وإذا ما تم تجاوز فترة حكم الإمبراطور جستنيان وصولاً إلى الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا لتبين بصورة واضحة أن الفترة البيزنطية زمن هذا الإمبراطور قد كانت بداية النهاية للوجود الأجنبي . في المنطقة . برمته.

من الملاحظ أن الحكم البيزنطي لشمال أفريقيا كان جزءاً لا يتجزأ من السياسة العامة للإمبراطورية البيزنطية، وخاصة أن منطقة الشمال الأفريقي كانت أولى الولايات الغربية التي سيطر عليها البيزنطيون، وأن ما كان يسري على أي من ولايات الإمبراطورية من القوانين والسياسات كان هو ذاته ما يطبق داخل هذه الولايات البيزنطية الجديدة. على أن أكثر ما يمكن ملاحظته في شمال أفريقيا هو ازدواجية التعامل بالقوانين والسياسات الرومانية السابقة والبيزنطية المستحدثة، لاسيما في ما يتعلق بالإدارة العسكرية والمدنية من جهة والسياسة الاقتصادية والدينية من جهة ثانية.

كما تظهر هذه الدراسة الوحدة الجغرافية والسكانية لقبائل منطقة شمال أفريقيا رغم اتساعها، وتوضح في ذات الوقت أهمية هذه المنطقة بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية بعد خضوعها مجدداً لسلطة القسطنطينية منذ ذلك الانقسام الذي حدث بين شطري الإمبراطورية زمن الإمبراطور ثيودوسيوس الأول عام ٣٩٥م.

إن القراءة المتأنية للنواحي السياسية لهذه الفترة تظهر أنها ليست أفضل مما كانت عليها سابقاتها في شمال أفريقيا، ولا أحسن مما كان بعد ذلك. فدخول محتل جديد هم البيزنطيون محل محتل آخر اختفى بصورة نهائية من التاريخ وهم الوندال قد زاد من تفاقم الأزمات السياسية والاقتصادية وكذلك الاجتماعية والدينية أيضا. وإن ظهر هذا الوضع المتأزم زمن الإمبراطور جستنيان فإنه يمكن الإشارة هنا إلى أبرز ملامح هذه الفترة وهي تنامي قوة القبائل المحلية والذي بدأ دورها في مناهضة الوجود الأجنبي في منتصف القرن السادس الميلادي، وعلى ذلك فإن هذه الظاهرة كانت من أهم الظواهر من حيث التعرف على مناطق نفوذ هذه القبائل وأسمائها وطبيعة عاداتها وتقاليدها، والتي مازالت بحاجة للبحث والدراسة التاريخية الدقيقة.

بالنسبة للحياة الاقتصادية فإن أهم ملامحها تظهر بشكل واضح في استمرارية العمل بالقوانين الرومانية رغم التجديدات البيزنطية، وكذلك استمرارية النشاط الاقتصادي الخاص بالسكان المحليين من حيث التقسيم القبلي الزراعي المستقر من جهة، والقبلي الرعوي من البدو الرحل من جهة أخرى. هذا ويمثل الوضع الاقتصادي زمن الإمبراطور جستنيان أسوأ الأوضاع مقارنة بالفترات السابقة رغم كل الإصلاحات والتطورات الإيجابية التي قد تظهر بين الحين والآخر في العديد من إشارات الكتاب الكلاسيكيين مثل بروكوبيوس وكوريبوس.

أخيراً وليس آخراً فإن النظم الإدارية والدفاعية البيزنطية قد بينت بوضوح أن شمال أفريقيا كان خلال حكم الإمبراطور جستنيان ولاية تخضع للسلطة والحكم العسكري المطلق، وأن الأوضاع السياسية والاقتصادية السيئة والمتدهورة طيلة حكم هذا الإمبراطور قد جعلت هذه الولاية ترزح تحت نظام عسكري وصولاً إلى تأمين الوجود البيزنطي المهدد باستمرار والعمل على توفير الحماية والأمن للبيزنطيين وبقايا الرومان السابقين في شمال أفريقيا.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر :

(١) المصادر العربية

- ابن عذاري المراكشي، البيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ط٣ ، الدار العربية للكتاب، بيروت، ١٩٨٣م .
- سالوست، حرب يوغرطة ،ترجمة وتعليق محمد التازي سعود، مطبعة محمد الخامس الجامعية والثقافية فاس، ١٩٧٩ م.
- عبد الرحمن بن خلدون ، تاريخ بن خلدون ، ج ٦ ، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٩م.
- كوريبوس ، ملحمة الحرب الليبية الرومانية ، ترجمة محمد الطاهر الجراري ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، ١٩٨٨ م .

(٢) المصادر الأجنبية

- Herodotus, Vol.II, Translated by A.D.Godey,(L.C.L) Harvard University Press, London, 1971.
- Pliny, Natural History, VoI.II, Translated by H.Rakham, M.A, (L.C.L) Harvad University Press, London , 1969 .
- Procopius, Buildings,Vol.VII, Translated by H.B.Dewing, (L.C.L) Harvard Universty Press, London, 1971 .
- ———— History of the Wars, Book III-IV.Vol.II, Translated by H.B. Dewing, (L.C.L) Harvard University Press, London ,1968.
- ———— The Anecdota or Secret History, Vol.VI, Translated by H.B.Dewing,(L.C.L) Hrvard University press,London, 1960.
- Strabo, The Geography of strabo,Vol.VIII,Translated by Horace Leonard Jones,(L.C.L) . Harvard University Press, London , 1961 .

ثانياً : المراجع :

(١) المراجع العربية

- .أ.ف.غوتييه، ماض شمال أفريقيا ، ترجمة هاشم الحسيني، ط١، منشورات دار الفرجاني، طرابلس، ليبيا، ١٩٧٠ م.
- إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، ط٢ ، دار الرشاد الحديثة، المغرب، ١٩٨٤ م.
- اتوري روسي ، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١م ، ترجمة خليفة التليسي ، ط٢، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٩١ م.
- أحمد بن عامر ، تونس عبر التاريخ منذ أقدم العصور إلى إعلان الجمهورية ، ط١ ، مكتبة النجاح ، تونس ، ١٩٦٠ م.
- أحمد توفيق المدني، قرطاجة في أربعة عصور، من عصر الحجارة إلى الفتح الإسلامي ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- أحمد صفر، مدنية المغرب العربى فى التاريخ، دار بوسلامة، تونس .
- أحمد محمد إنديشة ، التاريخ السياسي والاقتصادي للمدن الثلاث ، ط١ ، الدار الجماهيرية، مصراتة. ليبيا، ١٩٩٣م.
- أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس دار النهضة العربية، بيروت.
- إدوارد جيبون ، اضمحلال الإمبراطورية البيزنطية و سقوطها ، ترجمة لويس إسكندر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر.
- أسد رستم ، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلتهم بالعرب، ط١ ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٥م.
- اسمت غنيم ، إمبراطورية جستنيان ، منشورات المجمع العلمي بجدة،١٩٧٧م.
- ب. هـ. ورمنقتن، تاريخ ولايات شمال أفريقيا الرومانية من دقلديانوس إلا الاحتلال الوندالي، ترجمة عبد الحفيظ فضيل الميار، ط١، طرابلس، ١٩٩٤م .
- بوفيل ، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ، ترجمة الهادي أبو لقمة ، محمد عزيز ، ط٢ ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، ١٩٨٨ م.

- ج.م.هسي، العالم البيزنطي، ترجمة رأفت عبد الحميد، ط٣، دار المعارف، مصر،١٩٨٤م.
- جوزيف نسيم يوسف، تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤-١٤٥٣م) دار المعرفة الجامعية، مصر، ١٩٩٦م .
- جون رايت ، تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور ، ترجمة عبد الحفيظ الميار ، أحمد اليازوري ، منشورات دار الفرجاني ، طرابلس.
- حسنين محمد ربيع ، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية. القاهرة ،١٩٩٠ م.
- حسين الشيخ ، الرومان ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠م.
- خليفة أبوبكر بن ناصر ، صلاح هادي الحيدري ، الموجز في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها ، منشورات جامعة درنة ، ليبيا.
- خليل إبراهيم السامرائي وآخرون، تاريخ المغرب العربي، ط١ ، دار المدار الإسلامي بيروت، ٢٠٠٤ م.
- د. ي. هاينز، دليل تاريخ وأثار منطقة طرابلس، منشورات دار الفرجان، طرابلس.
- دونالد.ر. دولي ، حضارة روما ، ترجمة جميل يواقيم الذهبي ، فاروق فريد ، دار النهضة ، مصر ، ١٩٦٤ م.
- ر.ج. جود تشايلد، دراسات ليبية،ترجمة عبد الحفيظ فضيل الميار، أحمد اليازورى،منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس،١٩٩٩م.
- رشيد الناضوري، تاريح المغرب الكبير، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
- زاهر رياض، شمال أفريقيا في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية، مصر،١٩٨١م.
- زبيدة محمد عطا ، الحياة الاقتصادية في مصر البيزنطية ، ط٢ ، دار الأمين ، القاهرة ، ١٩٩٤م.
- ستيفن رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧م.

- سعد زغلول عبدالحميد، تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصر الاستقلال (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) ، منشأة المعارف، الإسكندرية،١٩٩٩م.
- السيد الباز العريني ، الدولة البيزنطية ٣٢٣-١٠٨١ م ، دار النهضة العربية، بيروت ، ١٩٨٢م.
- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب الكبير، دار النهضة، بيروت،١٩٨١ م.
- شارل أندريه جوليان ، تاريخ أفريقيا الشمالية ، ترجمة محمد مزالي ، البشير ابن سلامة ، ط ٥، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٥ م.
- عبد الحفيظ الميار ، الحضارة الفينيقية في ليبيا ، ط١ ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية طرابلس ، ٢٠٠١ م.
- عبد الحفيظ محمد علي ، قوة الوندال البحرية في غرب البحر المتوسط وأثرها على غرب أوروبا ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٧م.
- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ط٢، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.
- عبد العزيز الثعالبي، مقالات في التاريخ القديم، ط١، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٦ م.
- عبد العزيز بنعبد الله ، مظاهر الحضارة المغربية ، الجزائر، ١٩٥٨م.
- عبد العزيز طريح شرف ، جغرافية ليبيا ، ط٢ ، الإسكندرية، ١٩٧١م.
- عبد العزيز فهمي باشا، ملاحق مدونة جستنيان ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، مصر ، ١٩٥١ م.
- عبد الفتاح الغنيمي ، موسوعة تاريخ المغرب العربي ، ط٢ ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٩٩٤م.
- عبد القادر أحمد اليوسف، الإمبراطورية البيزنطية، المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٦٦م .
- ـــــــــ العصور الوسطى الأوروبية ، ٤٧٦-١٥٠٠م .
- عبد اللطيف البرغوثي ، التاريخ الليبي القديم من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي،ط١،دار صادر ،بيروت، ١٩٧١ م.

- ـــــــــــ تاريخ ليبيا الإسلامي ، من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر العثماني منشورات الجامعة الليبية ، دار صادر، بيروت.
- عمار المحجوبي ، ولاية إفريقيا من الاحتلال الروماني إلى نهاية العهد السويري (١٤٦ق.م–٢٣٥م) ، مركز النشر الجامعي ، تونس ، ٢٠٠١ م.
- عمر كمال توفيق ، تاريخ الدولة البيزنطية ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ،٢٠٠٥م.
- فتحي عثمان الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، ١٩٦٦ م .
- كولين ماكيفيدي ،أطلس التاريخ الأفريقي، ترجمة مختار السويفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٨٧م.
- ل . م. هارتمان ، ج. باراكلاف ، الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، مصر، ١٩٨٩م.
- لبيب عبد الساتر، الحضارات ، ط١٥ ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٩٩ م.
- مادلين هورس ميادان، تاريخ قرطاجة، ترجمة إبراهيم بالش، ط١، منشورات عويدان، بيروت، باريس ١٩٨١م .
- مبارك بن محمد الميلي ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الشركة الوطنية للنشروالتوزيع،الجزائر،١٩٧٦م.
- محمد الشرقاوي، محمد الصياد، ملامح المغرب العربي، ط١، منشأة المعارف الإسكندرية، ١٩٥٩م .
- محمد الطاهر المنصوري، الحياة الدينية في بيزنطة من الانبعاث إلى القطيعة مع روما، ط١، دار أمل للنشر والتوزيع، صفاقس ٢٠٠٣م.
- محمد المرزوقي ، قابس جنة الدنيا ، منشورات مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد.
- محمد الناصر النفزاوي ، فارس بيزنطة والجزيرة العربية من القرن الثالث إلى القرن السابع ، دار الجنوب للنشر ، تونس ، ١٩٩٣م.
- محمد بلحولة ، مدن تونسية ، قفصة قديماً وحديثاً ، تونس ، ١٩٩٠ م.

ـ محمد رياض، كوثر عبد الرسول، أفريقيا دراسة لمقومات القارة، ط٢ ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣م.
ـ محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ط١، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاءه، ١٩٦٤م .
ـ محمد علي عيسى، مدينة صبراتة منذ الاستيطان الفينيقى حتى الوقت الحاضر،الدار العربية للكتاب، طرابلس،١٩٧٨ م.
ـ محمد محمد الشيخ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٤م .
ـ محمد محي الدين المشرفي، أفريقيا الشمالية في العصر القديم، ط٢، مطبعة دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٥٧م.
ـ محمد مصطفى بازامة، ليبيا في عهد الخلفاء الراشدين، دار مكتبة الفكر، طرابلس.
ـ ———— ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية ، سلسلة التاريخ الليبي، طرابلس، ١٩٦٥م.
ـ محمود أبو حامد ، محمود النمس ، مدينة طرابلس من الاستيطان الفنيقي حتى العهد البيزنطي ، الدار العربية للكتاب، ١٩٧٨م.
ـ محمود النمس ، محمود أبو حامد ، دليل متحف الآثار بالسرايا الحمراء بطرابلس ، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٧٧م.
ـ محمود سعيد عمران ، معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ط٢ ، دار النهضة العربية ، بيروت، ١٩٨٦م.
ـ محمود محمد السيد، تاريخ الدولة البيزنطية، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، مصر،٢٠٠٠م .
ـ مصطفي العبادي، الامبراطورية الرومانية: النظام الامبراطوري ومصر الرومانية، دار النهضة العربية، بيروت–لبنان،١٩٨١م.
ـ موريس لومبارد ،الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى ، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دار الفكر ، دمشق، ١٩٧٩م.

- نعيم فرح، تاريخ بيزنطة، منشورات جامعة دمشق ، مطبعة طربين ، دمشق، ١٩٧٨م.
- هـ . أيدرس بل ، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربي ، دراسة في انتشار الحضارة الهلينية واضمحلالها ، ترجمة عبد اللطيف أحمد علي، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان، ١٩٨٨م.
- وسام عبد العزيز فرج، دراسات في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في العصور الوسطى، دار المعرفة ، الجامعية ، مصر ،١٩٨٥م.
- ول ديورانت، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ،ج١١، ط١ ، دار الجيل بيروت ، ١٩٩٢م.
- يسرى الجوهرة ، شمال أفريقيا ، دراسة في الجغرافيا التاريخية والإقليمية ، منشأة المعارف الإسكندرية ، ١٩٧٦ م.

(٢) المراجع الأجنبية :

- Ade Ajayi, F.& Crowder,M.,Historical Atlas of Africa, Longman, 1985.
- Bakir,T.,Historical and Archaeological Guide to Leptis Magna, Edition,2nd , Triopli-Libya, 1981.
- Bates, O., The Eastern Libyans; Frank cass & co. Ltd, London, 1970.
- Baynes, N.,The Byzantine Empire,Oxford University Press,1962 .
- BelKhodja,K.et Autres.,Histoire generale de la Tunisie,Livre I, Lantiquite , editions de L offic Peda gogique,Tunis ,1966.
- Berhier, L., The Life and Death of Byzantinum, Translated by Margaret Vaughan, 1977.
- Beschaouch, A.,La Légende de Carthage , 1993.
- Boak,A.E.R.,AHistory of Rome to 565A. D.,Fourth Edition ,NewYork ,1955.
- Boutbouqalt,T."L’èvolution des rapports Maroco –Chrétiens de L’epoque Romaine aux Almoravides (IIIe-XIe Siècle)",Islamo Christiana,Vol.27, Roma,2001 .
- Bury, J.B.,History of the Later Roman Empire ,Vol.II, New York ,1958.
- Caldwell,W.E.,The Ancient World, Late of the University of North Carolina , Third Edition , 1966.
- Carson, R.A.G., Coins of the World, Great Britain, 1975.
- Courtois,C., Les Vandales et L`Afrique Arts et Metiers Graphiques , Paris,1955.
- Deanesly.M.,A history of Early Medieval Europe From 476 To 911, London ,1974.

- Decret, F.et Fantar, M., L`Afrique Du Nord dans L`Antiquite.Histoire et Civilisation (des origins au Ve siécle) ,Paris,1981.
- Diehl, C., L`Afrique Byzantine Histoire de la Domination Byzantine en Afrique (533-709) , Vol. 1, Paris, 1896.
- ———— Byzantium: Greatness and Decline, Translated by Naomi Walford, Rutgers University press, 1957.
- ————,Etudes Byzantines ,Paris,1905.
- ———— Justinien et la Civilisation Byzantine au VIe siècle,Vol. I, Paris, 1901.
- Durliat,J., De La Ville Antque à la Ville Byzantine: Le Probleme des subsistances, Paris, 1990.
- Goodacre, H., Ahandbook of the Coinage of the Byzantine Empire, London, 1967.
- Guerdan, R., Byzantium. its triumphs and Tragedy,London ,1954.
- Haywood, R.M.,Ancient Rome, New York,1967.
- Hollister, C.W., Medieval Europe A Short History, Second Edition, New York ,1968 .
- Hoyt, R.S.,Europe in the Middle Ages, Second Edition, University of Minnesota, America, 1966.
- Jean- Chaude Cheynet, Byzance L'empire Romain d'Orient, Editions Armand Colin ,Paris ,2002.
- Joens, A. H. M., The Decline of the Ancient World, London, 1968.
- ———— The Later Roman Empire 284-602, A Social Economic and Administrative Survey,Oxford, 1964 .
- Kaddache,M., L`ALgérie dans L`antiquité, Madrid ,1972 .
- Kent, J.P.C.and Painter , S., Wealth of the Roman World,A.D300-700, Published For British Museus, London, 1977.
- Lancaster.O., Sailing to Byzantium An Architectural companion, Illustrated by the Author, 1961.
- Lançon,B.,Le Mond Romain Tardif IIIe-VIIe Siècle ap.j-c, Editions Armand colin, Paris, 1992.
- Laroui, A., L'Histoire du Maghreb un essai de Synthese editions Francois Mapero ,Paris, 1970.
- Longuet, H., Introduction à la Numismatique Byzantine, London, 1961.
- Lot,F.,la fin du monde antique et le dėbut de Moyen ậge, Editions,Albin Michel ,Paris ,1968 .
- Loverance, R.,Byzantium, British Museum, London, 1988.
- Mattingly,D.J., Tripolitania, First Published, London ,1995.
- Murabet, M.,A brief History of Tripolitania,Tripoli-Libya,1965.
- Oman, C.W.C., The Byzantine Empire,New York.
- Ostrogorsky , G., History of the Byzantine State, Rutgers University Press. 1969.
- Painter, S., A History of the Middle Ages 284-1500, The Johns Hopkins University , London,1970.

- Pavy,,A.,Histoire de La Tunisie,Editeur Bouslama, 2em Edition ,Tunis.
- Pehrson, J.D.R., Barbarians and Romans the birth Struggle of Europe, A.D.400-700, University of Oklahoma Press, Norman, 1983.
- Pirenne , H.,A History of Europe From the Invasions to the XVI Century , London,1936.
- Previté-Orton.C.W., The shorter Cambridge Medieval History, Vol.I, Cambridge University Press,London, 1978 .
- Pringle, D., The Defence of Byzantine Africa From Justinian to the Arab conquest ,Part 1, Oxford , England , 1981
- Raven, S., Rome in Africa, Third Edition, London, 1993.
- Roques, D., Synésios de Cyrène et la Cyrénaique Du Bas-Empire, Paris ,1987.
- Runciman,S., Byzatnine Style and Civilization, Frist Published great Brtain ,1975.
- Rynearson, P.F., Byzantine Coin Values A Guide, London, 1967.
- Sharf,A.,Byzantine Jewry From Justinian to the fourth Crusade, London, 1971.
- Sjostrom,I., Tripolitania in Transition: Late Roman to Islamic Settlement With a catalogue of sites , Great Britain ,1993.
- Stark,F.,Romane on the Euphrates the story of Frontier,Edited by John Murray ,London .
- Starr, C.G., The Ancient Romans,Oxford University Press,London ,1971.
- ———— The Roman Empire 27.B.C.A.D.476, Astudyin Survival Oxford University Press, 1982.
- Stratos ,A .N.,Byzantium in the seventh century, Vol.1, Amsterdam, 1968.
- Vasiliev, A.A., History of the Byzantine Empir 324-1453 , Vol.I, the University of Wissconsin Press,1973.
- Whitting, P.D.,Byzantine Coins,London, 1973 .
- Willis,R.F.,Western Civilization A brief Introduction,University of California ,Davis Macmillan Pubishing company ,New York,1987.
- Wood, R., Roman Africain Colour, London, 1966.
- Wroth, W., Western and Provincial Byzantine Coins of the Vandals, Ostrogoths and Lombards, London.

ثالثاً : الدوريات :

(١) الدوريات العربية:

- أ.لاروند ، " التنمية الزراعية في ليبيا في عهد الرومان وتأثيرها على الاقتصاد الليبي – الروماني قبل الفتح الإسلامي " (ليبيا القديمة) تقرير ودراسات اليونسكو المطبعة الكاثوليكية ، لبنان، ١٩٨٨م.
- إبراهيم علي طرخان، " شمالي أفريقية والوندال ٤٣٩–٥٣٤م " المجلة التاريخية المصرية ، مج١١، منشورات الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، مصر،١٩٦٣م.
- ———— " نهاية الإمبراطورية الرومانية في الغرب ٤٧٦ م" ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، مج٢٠ ، ج١ ، القاهرة ، ١٩٥٨ م.
- أحمد عطية رمضان ، "أهمية الدور المصري في العلاقات البيزنطية السودانية حتى العصر الجستنياني" ، حوليات كلية دار العلوم ، العدد الرابع عشر ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٩١م.
- أسطفان كسيل " حيوانات ونباتات شمال أفريقيا في العصور العتيقة "، ترجمة محمد التازي سعود ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، العدد الثامن ، مطبعة النجاح الجديدة ، المغرب، ١٩٨٦م.
- ———— " شمال إفريقيا في عالم البحر الأبيض المتوسط "، ترجمة محمد التازي سعود، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، مطبعة النجاح الجديدة ، المغرب، ١٩٨٥م.
- إسماعيل مطهر ،" يوستينانوس والإمبراطورية البيزنطية "، مجلة المقتطف ، مج ١١٥ ، مطبعة المقتطف ، القاهرة ، ١٩٤٩ م.
- آسيا مسعودى بوعجيمي،" إنشاء وتطور المرافق الأساسية للتجارة الرومانية في المغرب خلال العهد الإمبراطوري الأول" ، حوليات جامعة الجزائر ، العدد الثامن أفريل ١٩٩٤م.
- ب.سلامة، "من روما إلى الإسلام"، تاريخ أفريقيا العام، ج٢ ، جين أفريك، اليونسكو، ١٩٨٥م .

ـ بوللو – بي كواهي ،" المجتمع منذ أواخر العصر البيزنطي حتى عشية الفتح العربي"، (ليبيا القديمة) تقرير ودراسات اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، لبنان ، ١٩٨٨م.

ـ د. لانج " المجتمع في منطقة بحيرة تشاد في نهاية الفترة البيزنطية قبل الفتح الإسلامي" (ليبيا القديمة) تقرير ودراسات اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، لبنان ١٩٨٨ م.

ـ الصغير أبو صبيع ،" نبذة تاريخية عن المسيحية المبكرة في ليبيا ومعالمها الأثرية "، مجلة قار يونس العلمية ، العدد الأول والثاني ، السنة الثالثة عشر ، بنغازي، ٢٠٠٠ م.

ـ ع. محجوبي، " العصر الروماني " تاريخ أفريقيا العام، ج٢ ، جين افريك ، اليونيسكو، ١٩٨٥.

ـ عبد السلام محمد شلوف " دراسات في تاريخ ليبيا القديم : قبيلة الناسامونيس " مجلة قاريونس العلمية ، السنة الرابعة ، العدد الأول والثاني ، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ١٩٩١م.

ـ عمر الباروني" طرابلس آبار ومواجل ومصانع الماء في التاريخ " مجلة الوثائق والمخطوطات ، العدد الثالث ، السنة الثالثة ، منشورات مركز جهاد الليبيين، طرابلس، ١٩٨٨م.

ـ الفاتوري كارافو" دراسة بعض قطع العملة المكتشفة بصبراته ولبدة الكبرى "، ترجمة محمود الصديق أبو حامد ، مجلة ليبيا القديمة، المجلد الخامس عشر والسادس عشر ١٩٧٨-١٩٧٩، مطابع باردي ، روما ، ١٩٨٧م.

ـ م. ولفورد، " تجارة قورينائية "، ترجمة مصطفى عبد الله ترجمان ، مجلة آثار العرب ، العدد الرابع، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ١٩٩٢م.

ـ ماريا روزاريا لا لوميا " مصابيح فخارية من العهد المسيحي القديم مكتشف بديماس سرت " ترجمة عيسى سالم الأسود، مجلة ليبيا القديمة، المجلد الثامن ١٩٧١، مطابع ج.باردي ، روما ١٩٧٤م.

ـ محمد البشير شنيتي ، " وضعية الأرض و طرق استغلالها في بلاد المغرب في العهد الروماني وبداية العهد الإسلامي" ، مجلة دراسات تاريخية، السنة ١٣، العددان ٤٣-٤٤ ، منشورات جامعة دمشق، سوريا، ١٩٩٢م.

ـ محمد الطاهر الجراري " الحياة الفكرية في ليبيا خلال القرن الرابع الميلادى: اريوس الليبي وأثره في الفكر المسيحي" مجلة البحوث التاريخية، العدد ١، السنة ١٩،مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس،١٩٩٧ م.

ـ ———— " موقف القبائل الليبية من الحكم الروماني " ،مجلة الثقافة العربية،العدد السابع،السنة التاسعة،١٩٨٢م.

ـ محمد المبكر" القديس اغسطينوس وقضية العلاقات بين الدوارين والدوناتية " مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ١٩٨٥م.

ـ ———— " حركة الدوارين في شمال أفريقيا في القرنين الرابع والخامس الميلادي " مجلة كلية الآداب بفاس، العدد السابع، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٤م.

ـ محمد الهادي حارش، " ثورة فيرموس، ٣٧٢-٣٧٥م " ، مجلة الدراسات التاريخية، العدد السابع، جامعة الجزائر، ١٩٩٣م .

ـ محمد على عيسى " معالم من الآثار المسيحية المبكرة في ليبيا منذ بداية القرن الرابع – منتصف القرن السادس الميلادي " مجلة أثار العرب ، العدد السادس، طرابلس–ليبيا،١٩٩٣م.

ـ مصطفي كمال عبد العليم ، " الوطنية الليبية والحكم الأجنبي في العصر اليوناني والروماني " (ليبيا القديمة) دراسات وتقرير اليونيسكو ، المطبعة الكاثوليكية ، لبنان ،١٩٨٨م.

ـ نبيه عاقل، " دور الجمل والحصان في الفتوح العربية المبكرة " ، مجلة دراسات تاريخية ، السنة الرابعة عشر ، العددان ٤٧-٤٨، دمشق،١٩٩٣م.

ـ نعيم فرح " الصراع العربي البيزنطي للسيطرة على البحر المتوسط في القرن الثامن الميلادي" مجلة دراسات تاريخية العدد الثاني عشر ،منشورات جامعة دمشق ،١٩٨٣م.

- نقولا زيادة " العالم العربي وشمال إفريقية في العصر الروماني والبيزنطي" مجلة تاريخ العرب، العددان ١١١-١١٢، مطبعة المتوسط ، مصر، ١٩٨٨م .
- نورمان بينز،" الأفكار السياسية للقديس أغسطس عن مدينة الله " ترجمة أسامة زكي زيد، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، مج ٢٩ ، مصر،١٩٨١م.

(٢) الدوريات الأجنبية:

- Brogan,O.,"The Camel in Roman Tripolitania" ,P.B.S.R.,Vol.,22,1954 .
- Brown, P.," Chrstianity and Local culture in Late Roman Africa " ,J.R.S, Vol. 58,1968.
- Chaouache , H., "Les structures économiques de la Byzacéne à travers L`antiquité et le moyen-age", C.T ,tome XII, Année,1964,Tunis.
- Clay,T.," Carthage et son commerce dans L`antiquité Tardive", Afrique de Nord Antique et Medievale, 1992,Paris.
- Dennis, H.V.M., "Another note on the Vandal Occupation of Hippo Regius", J.R.S,Vol. 15, 1967.
- Durliat, J.,"Les Grands Proprietaires Africains et L'etat Byzantin(533-709) ", C.T , tome XXIX,1981, Tunis .
- Duval, N.,"Les Prix des concours Agonistiques en Afrique de Nord au Bas-Empire ",Afrique de Nord Antique et Medievale, 1992,Paris.
- Duval, P.M.," Cherchel et Tipasa",Recherche Sur deux Villes Fortes de L`Afrique Romane,institut Français D`archéologie de Beyrouth ,tome XLIII,Paris,1946.
- Goodchild, R.G.and perkins,W." The Roman and Byzantine defences of Lepcis magna", P.B.S.R.,Vol. 21,1953.
- Gozalbes, E.," El Problema de la Ceuta Bizantina", C.T, tome XXIX ,1981 ,Tunis.
- Joens, A.H. M., " Frontier Defence in Byzintine Libya" ,L. H ,1968.
- Mattingly,D.J.," The Laguatan: A Libyan Tribal Confedertion In the Late Roman Empire]", L.S, Vol .14,1983.
- ———— "Farmers and Frontiers.exploiting and Defending the Countryside of Roman Tripolitania", L.S, Vol.20,1989.
- Maurin, L.,"Thuburbo Majus et la Paix Vandale",C.T,tome XV,année 1967,Tunis.
- Moderan,Y.,"La Decouverte des Maures: Reflexions Sur La "Reconquete " Byzantine de L`Afrique en 553" ,C.T, Tomes XXXXIII,No155 -156 ,le-2e Trimestres Tunis, 1991.
- Perkins,.w.," Excavations in the Severan Basilica at Lepcis Magna " ,P.B.S.R,Vol.20,1952.
- Picard,G.C.et Baillon.M., " Le Théâtre Romain De Carthage",Afrique du Nord Antique et Medievale , 1992,Paris.

- Rossiter, J. J.,"Stabula equorum: evidence for race –Horse Stables in Roman Africa" Afrique du Nord Antique et Medievale , 1992,Paris.
- Saumagne C.,"Points de vue sur la Reconquête Byzantine de L'Afrique au VI siècle",C.T, tome VII , année 1959,Tunis.
- ———— " Sur le Colonat Byzantin en Afrique ", C.T, tome X, année 1962,Tunis.
- ———— " Capsa Les Vestiges De La Cite Latin De Cafsa", C.T, Tome X, année 1962, Tunis .
- ———— " La Paix Vandale", C.T,tome X, année 1962, Tunis.
- Smith, D.and Crow, J.,"The Hellenistic and Byzantine Defences of Tocra (Taucheira)", L. S, Vol.29,1998.
- Wells,C.M., "L`Afrique à la Veille des invasions Arabes", L`Afrique Romine: Les conferences Vanier, Les Editions de I`universte d`Ottawa,1982.
- Yanoski, J., "Appendices a L'Histoire D'Afrique sous la domination Byzantine", Afrique Ancienne, Paris,Editions Bouslama ,Tunis.
- ———— " Précis de L`Histoire D`Africque Sous la domination Byzantine" , Afrique Ancienne, Paris, Editions Bouslama , Tunis.

رابعاً : الرسائل العلمية :

(١) الرسائل العربية :

- تغريد علي شعبان ، الحيوانات البرية من خلال الفسيفساء الإفريقية الرومانية المعروضة في متحف باردو(رسالة ماجستير غير منشورة) إشراف محمد حسين فنطر ، جامعة تونس الأولى ، ١٩٩٥م.
- ـــ ، الحيوانات الوحشية من خلال الفسيفساء الأفريقية الرومانية (رسالة دكتوراه غير منشورة) إشراف المنجي النيفر ، جامعة تونس الأولى ، ٢٠٠١م.
- عبد السلام محمد شلوف ، ظروف انتقال العاصمة من قوريني إلى طلميثة ثم إلى سوسة في قورينايقا ٢٩٧-٦٤٢ م (رسالة ماجستير غير منشورة) إشراف فوزي فهيم جاد الله ، جامعة قاريونس ، ١٩٨٤ م.
- موسى معمر الريحاني ، تاريخ النظم الدفاعية في ولايات شمال أفريقيا الرومانية ١٩٢ – ٤٣٠ م (رسالة ماجستير غير منشورة) إشراف عبد الحفيظ فضيل الميار ، جامعة المرقب ٢٠٠٤ – ٢٠٠٥ م.

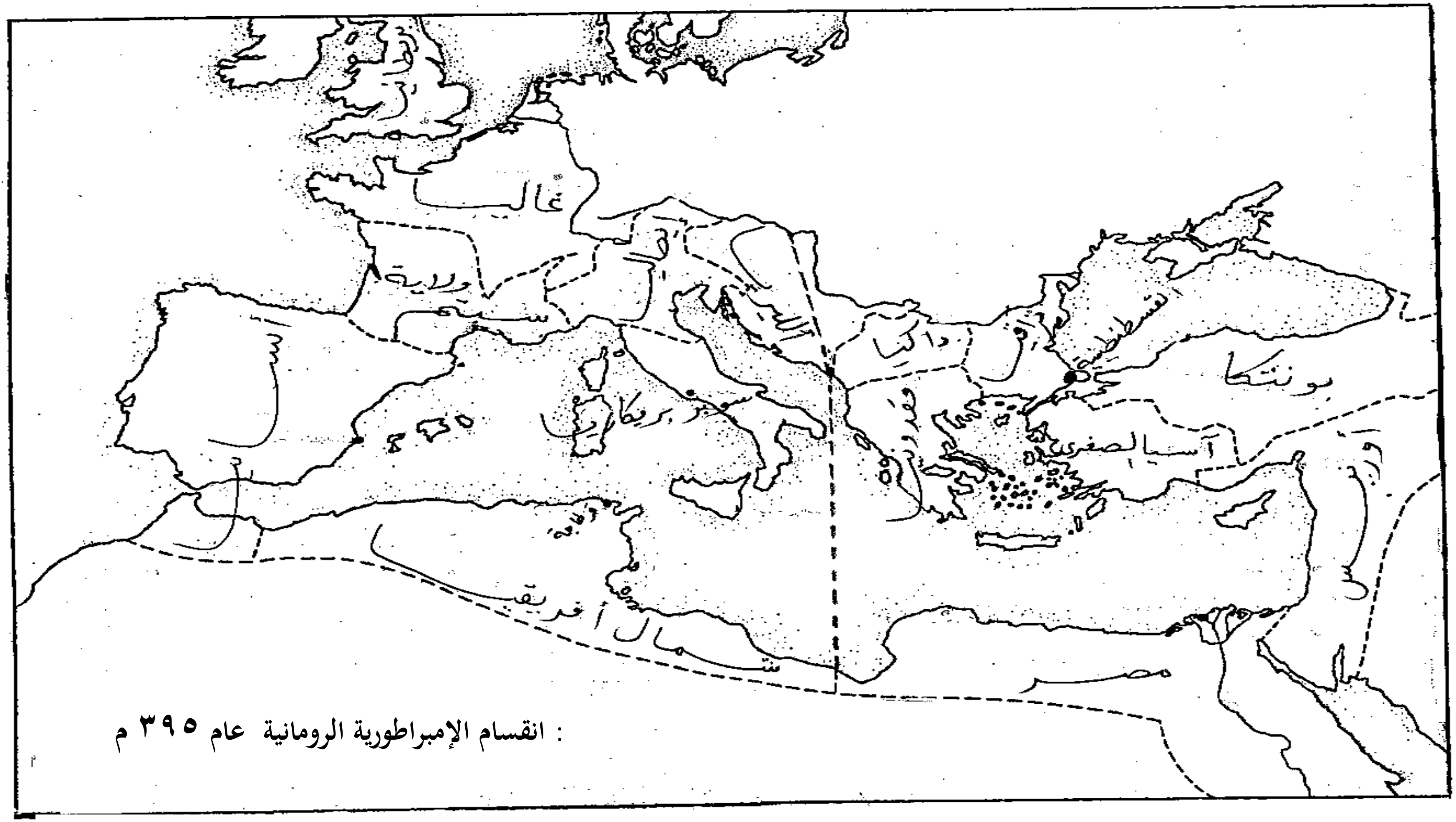
- الرسائل الأجنبية :

- BenAbbės, M., L’Afrique Byzantine Face ậ La conquête Arabe: Recherche sur le VII siècle en Afrique du Nord , (Thèse pour le Doctorat en Histoire) Directeur de thèse : Cloude Lepelley ,Université Paris.Février,2004.
- Briki, S.,La Byzacene a L`epoque Byzantine(Mémoire de D.E.A en Histoire ancienne) ,Sous la direction de:Mrabet,a.,Universite de Tunis,année Universitaire 2002-2003.
- Jerary, M.T.,The Luwata:Prolegomena, Source Book and Preliminary Study(Doctor of philosophy History) ,University of Wisconsin_Madison,1976, Libyan Studies Center, 1988.
- Mansouri,M .T.,Les Institutions de L`Afrique Byzantine "mémoire pour le certificat d’aptitude â la recherche ", par . Mahjoubi .A., Universite de Tunis , septembr ,1982.
- Selmane,K., La Byzacéne à L’époque Vandale Société et Economie (mémoire Pour L’obtention du diplomome des etudes Approfondies), Unversité Tunis I ,2000.

خامساً: مواقع شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت):

- http://en.wikipedia.org/wiki/Justinian_I
- http://WWW.coinarchives.com/a/Lotviewer.phpLotlD=107916&AuelD=121&Lot=1079
- http://www.coinarchives.com/a/Lotviewer.php?LotlD=107049&AuelD=121&Lot=1083
- WWW.LOYNO.edu/history/Journal/1996-7/Smith.html

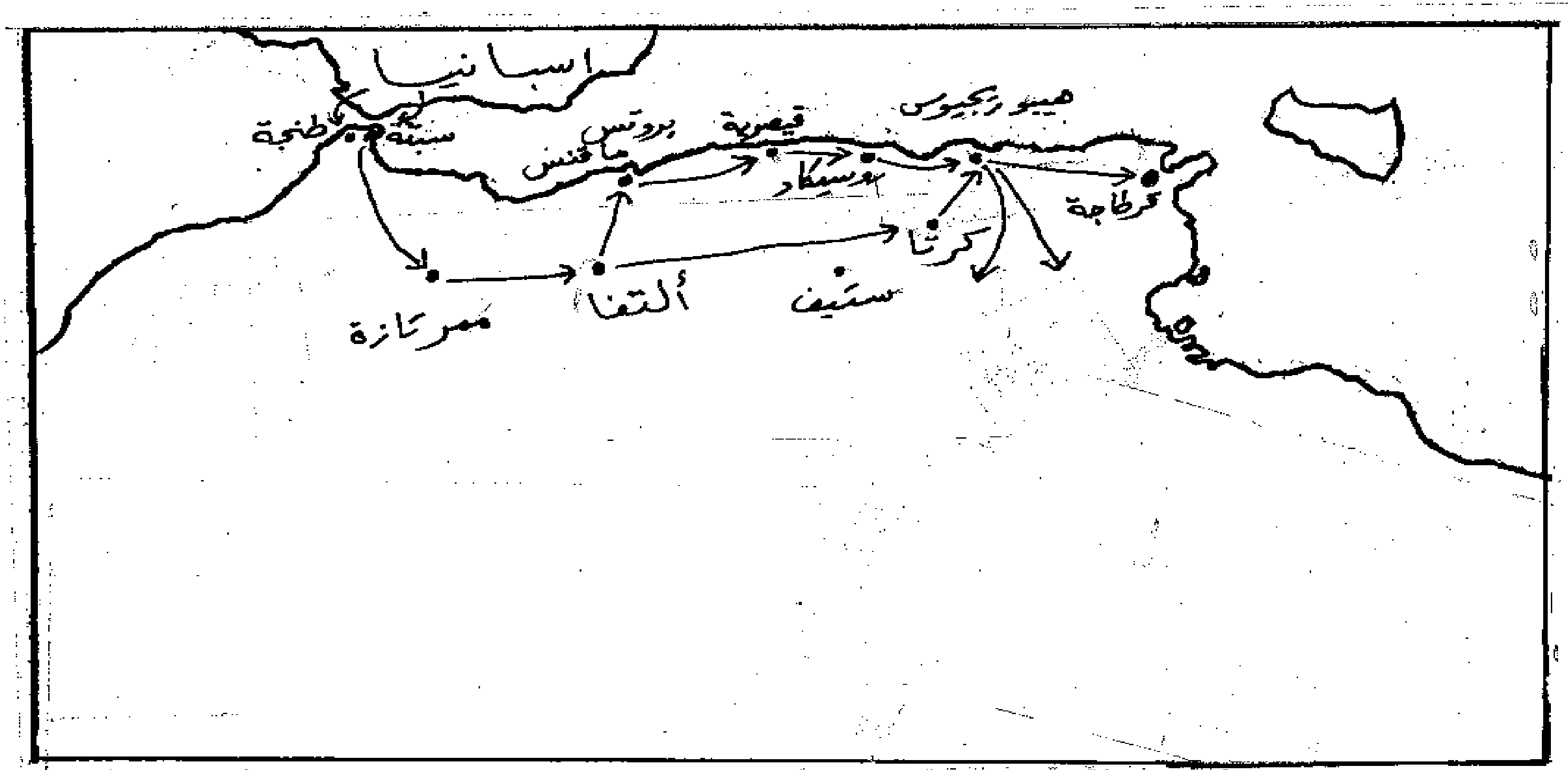
ملحق الخرائط



خريطة رقم (١) الإمبراطورية الرومانية في نهاية القرن الرابع الميلادي

المصدر:

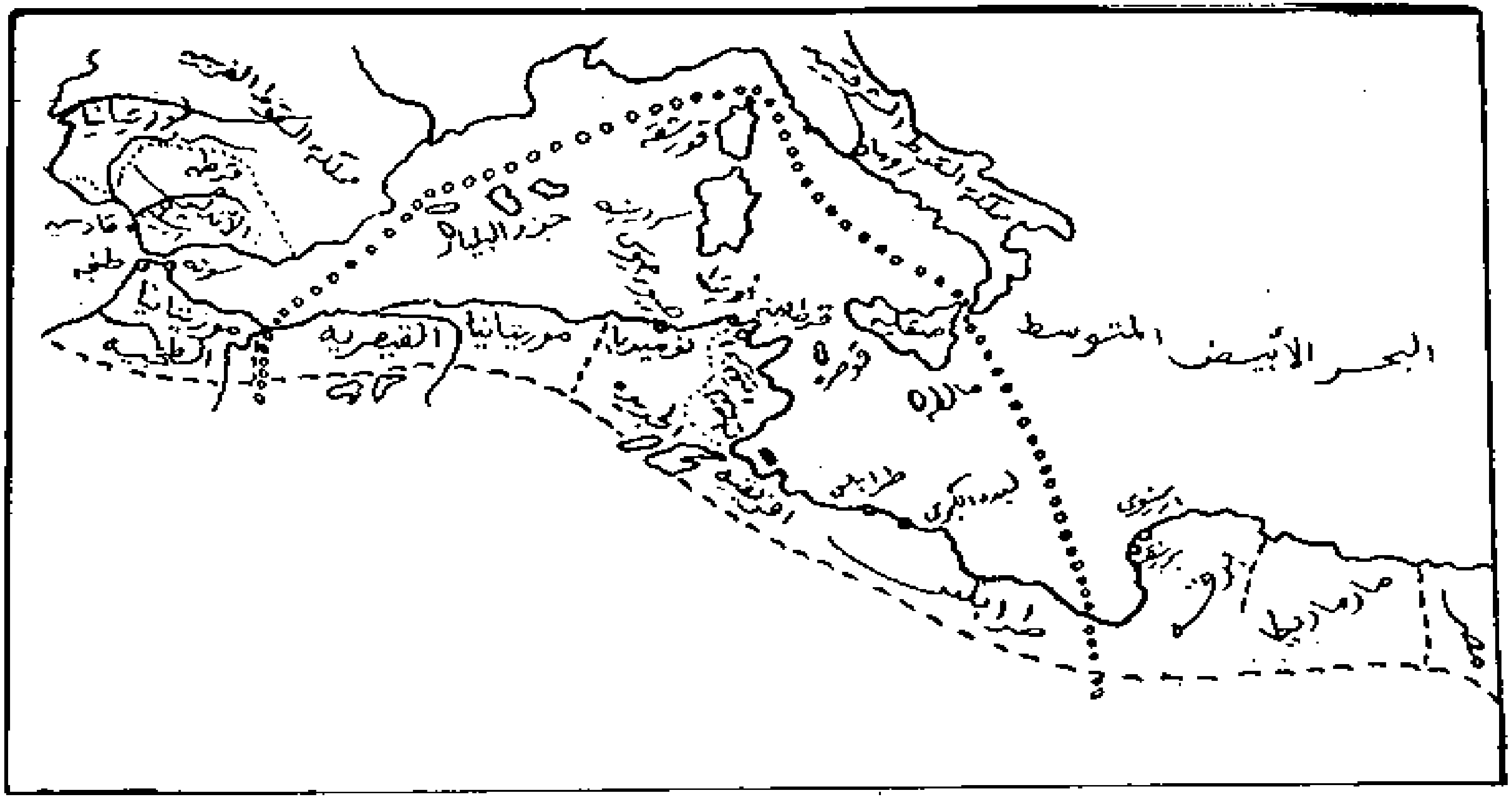
Kent, J.P.C. and Painter, K.S.P., op.cit.,p.10.



خريطة رقم(٢) عبور الوندال واجتياحهم لمدن الشمال الأفريقي

المصدر:

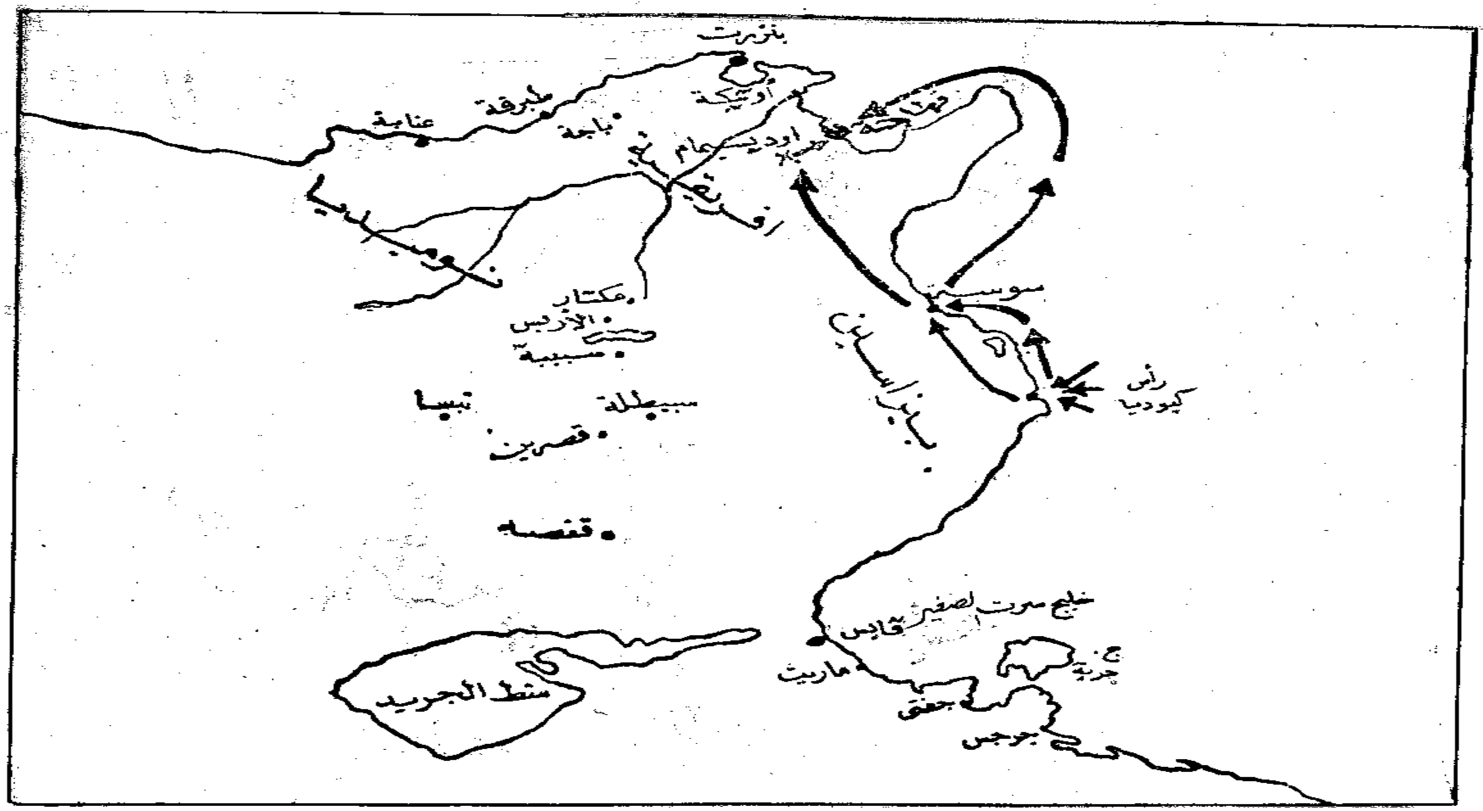
Ade Ajayi, J.F.&, Crowder, M.op.cit.,p.٤٤.



خريطة رقم (٣) مملكة الوندال في شمال أفريقيا وغرب البحر المتوسط ٤٣٩ . ٥٣٤ م

المصدر:

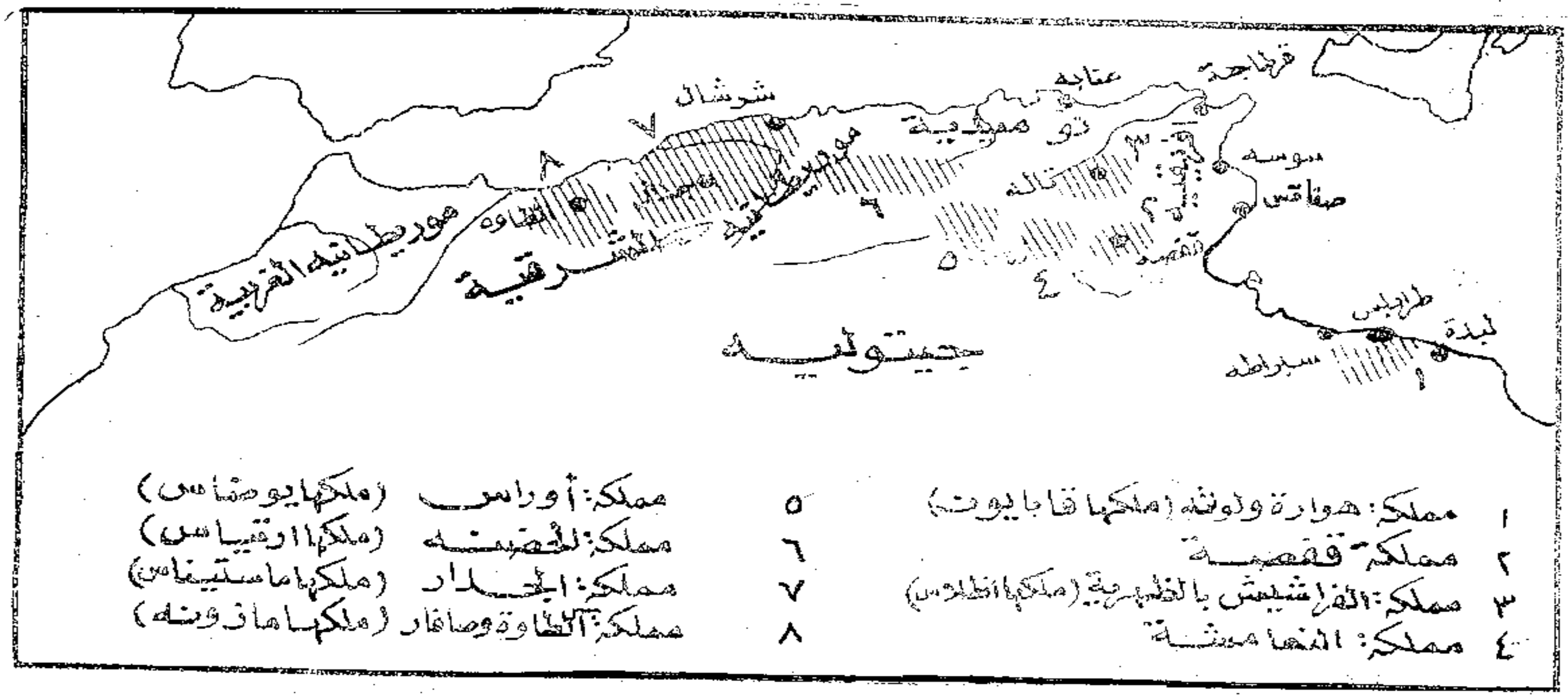
ابراهيم على طرخان،شمالى افريقية والوندال٤٣٩-٥٣٤م ، مرجع سابق ، ص١١٠.



خريطة رقم (٤) حركة الجيش البيزنطي على الساحل الأفريقي منذ وصوله وحتى دخوله مدينة قرطاجة

المصدر:

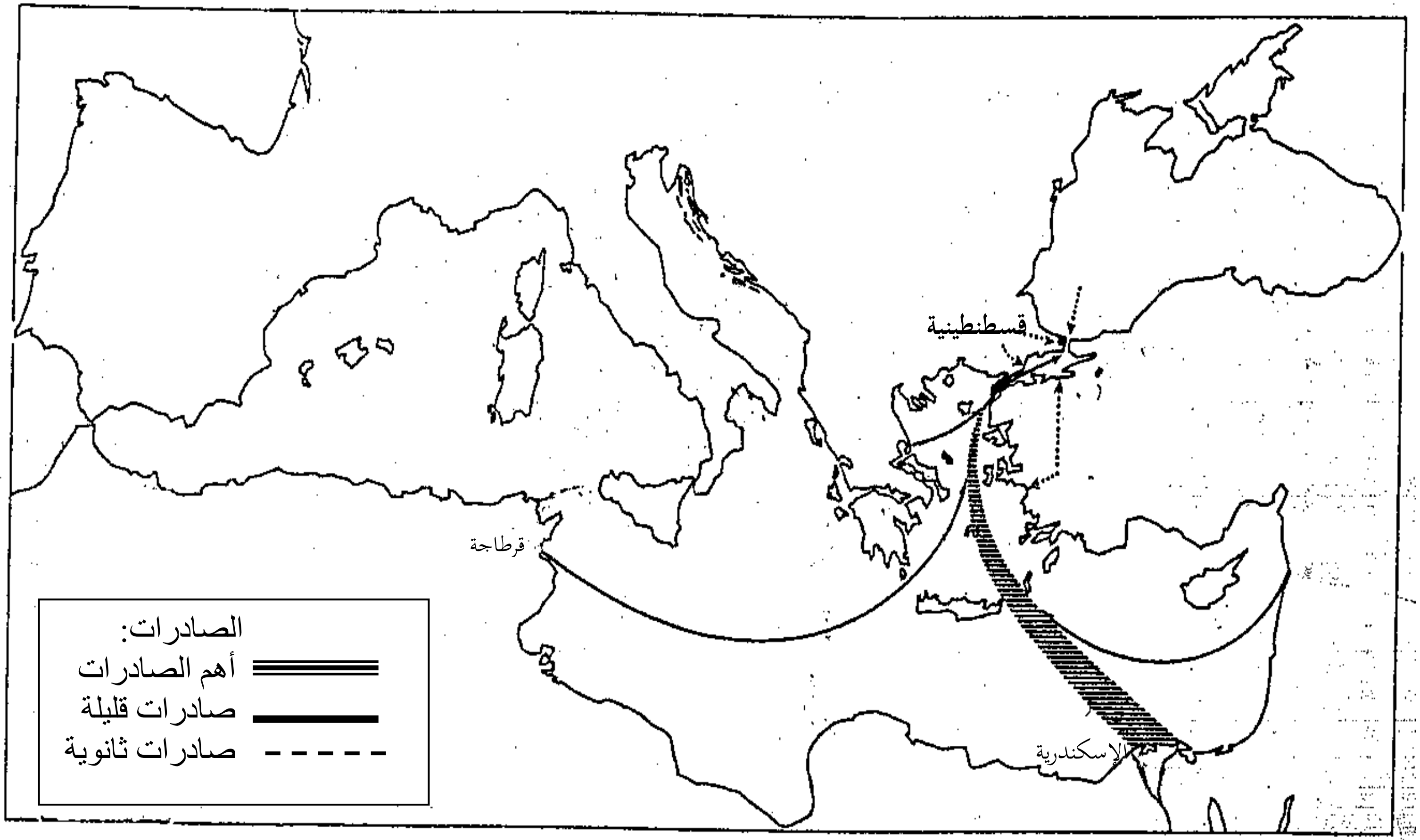
السيد عبد العزيز سالم ، مرجع سابق ، ص ٩٣٧.



خريطة رقم(٥) الممالك المحلية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين

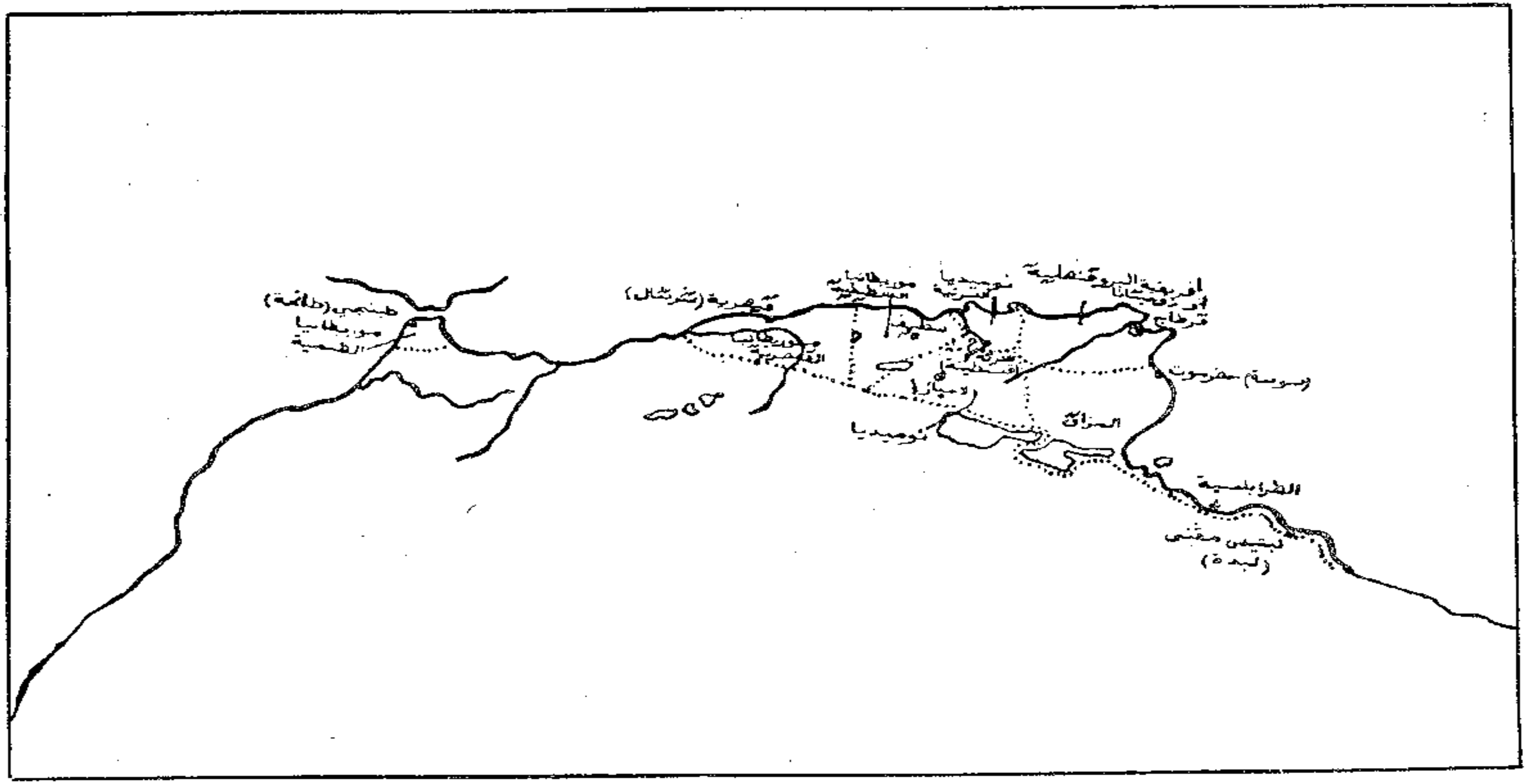
المصدر:

محمد على دبوز ، مرجع سابق ، ٤٢٨.

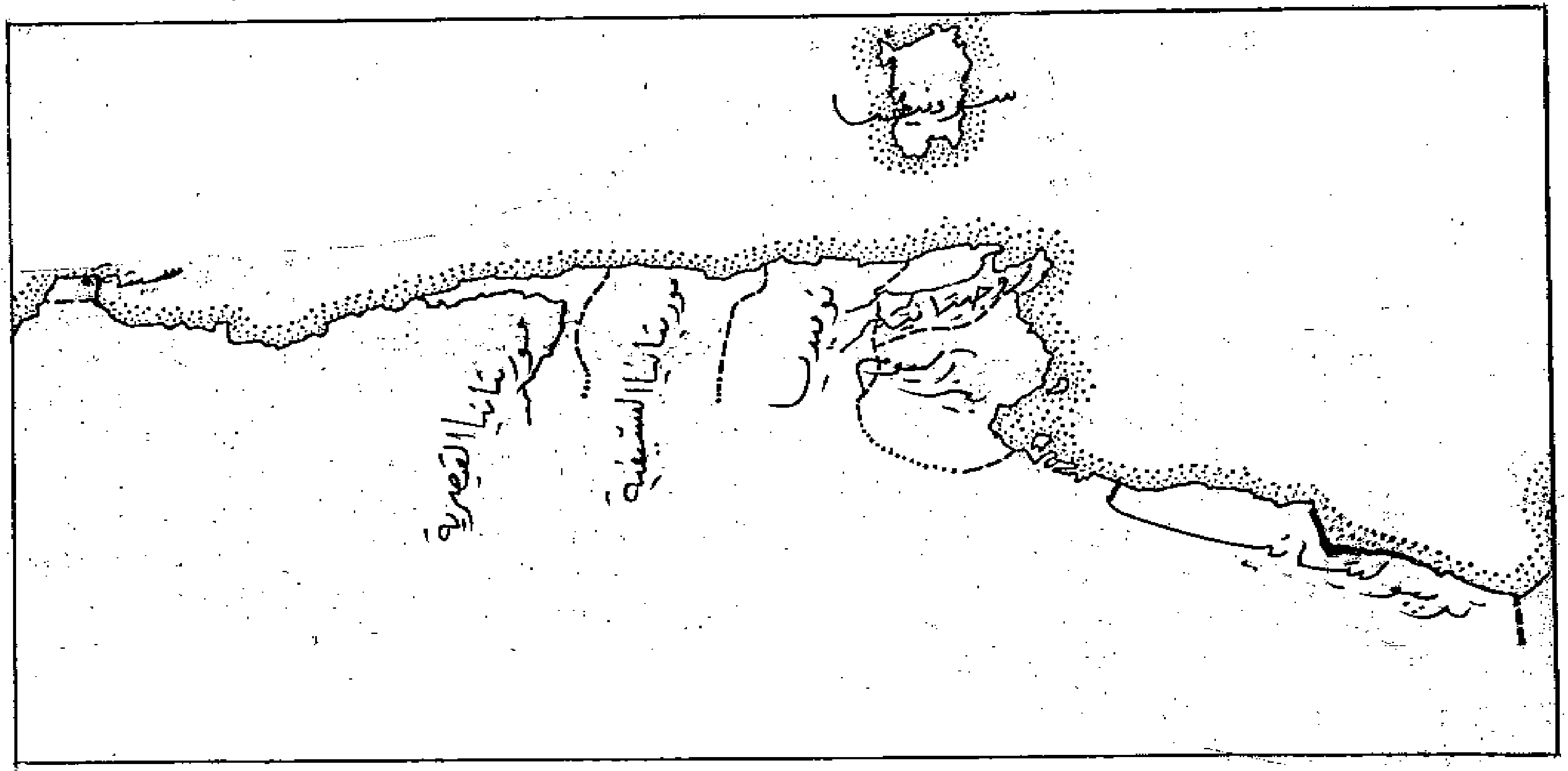


خريطة رقم (٦) مصادر تموين القمح إلى القسطنطينية
المصدر:

Durliat, J., Vil .Ant. Vil ., p.227.



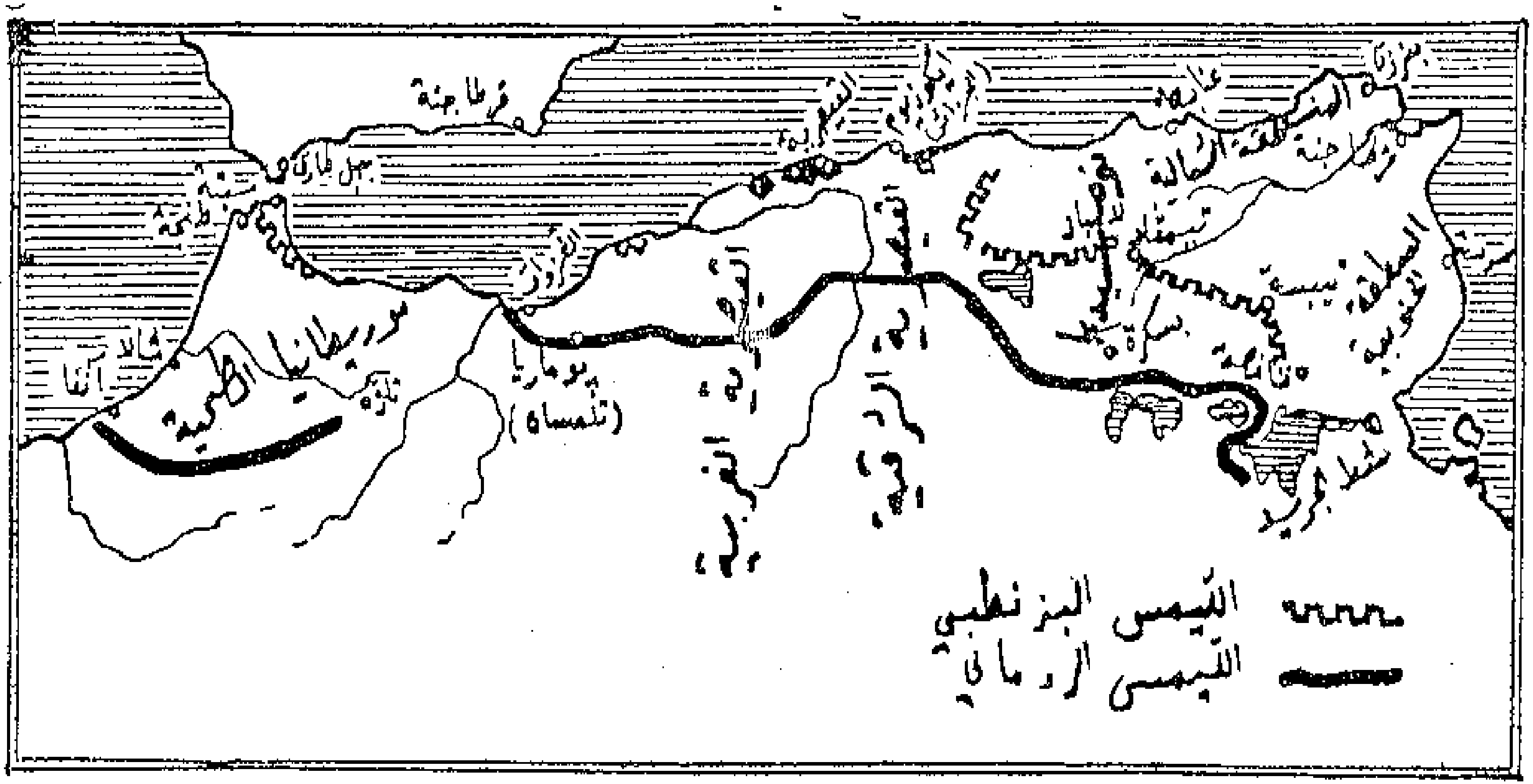
خريطة رقم (٧) الولايات الأفريقية في نهاية الإمبراطورية الرومانية
المصدر:
شارل أندريه جوليان ، مرجع سابق ، ص ٢٦٥ .



خريطة رقم(٨) الولايات الأفريقية السبعة أثناء حكم الإمبراطور جستنيان

المصدر:

Joens, A.H.M., Dec. Anc. Wor.,p.112.



خريطة رقم (٩) المناطق التي خضعت لنفوذ البيزنطيين مقارنة مع تلك التي كانت تحت الاحتلال الروماني .
المصدر :
محمد محي الدين المشرفي ، مرجع سابق ، ص ١٤٠.

ملحق الأشكال



شكل رقم (١) يوضح الإمبراطوران جستين وجستنيان جالسان جنباً إلى جنب .

المصدر :

Rynearson, P.F.,op.cit.,p.45.



شكل رقم(٢) يوضح الإمبراطور جستنيان يمتطي حصاناً تخليداً له بانتصاره على الوندال سنة ٥٣٤ . ٥٣٥ م.

المصدر:

http://en.wikipedia.org/wiki/Justinian_I



شكل رقم(3 . أ) يوضح العملة البيزنطية (الصولدي) التي سكت في القسطنطينية بوزن ٤,٤١ جرام .

المصدر :

http://WWW.coinarchives.com/a/Lotviewer.php?LotlD=107916&AuelD=121&Lot=1079 .



شكل رقم (٣ . ب) يوضح العملة البيزنطية (الصولدي) التي سكت في قرطاجة بوزن ٤,٤٥ جرام .

المصدر :

http://WWW.coinarchives.com/a/Lotviewer.php?LotlD=107049&AuelD=121&Lot=1083 .

ملحق الجداول

الجدول (١)

النسب المتنوعة من الواردات الشرقية من الجرار التي تم العثور عليها
في ميناء قرطاجة .

نهاية القرن الثالث	من نصف القرن الرابع إلى الربع الأول من القرن الخامس	نهاية القرن الخامس	بداية ونصف القرن السادس	نهاية القرن السابع
%٠,٢	%٢٥ (في خزان)	%٥,٩	%١٤	%١

المصدر:

Briki,S.,op.cit.,p.60.

الجدول (٢)

قائمـة بأسـماء الحكـام العـامين فـي الإدارة البيزنطيـة فـي شـمال أفريقيـا أثنـاء حكـم الإمبراطور جستنيان.

الحاكم العام	فترة الحكم
اشيلانس	٥٣٤م
سولومون	٥٣٤-٥٣٦م
سومانتسوش	٥٣٦م
سولومون	٥٣٦-٥٣٩م
سيرجيوس	بعد عام ٥٤٣م
اثاناسينس	٥٤٦م
باولوس	٥٥٢م
بوثينس	٥٥٥-٥٦٠م
اوهانيس	٥٥٨م

المصدر :(بتصرف)

Mansouri , M.T.,op.cit.,p.70.

الجدول (٣)

قائمة بأسماء الرؤساء والقادة البيزنطيين في الحملة البيزنطية على شمال أفريقيا عام ٥٣٣م ومواطنهم الأصلية:

المنصب أو الوظيفة	الاسم	الأصل
القائد العام	بليزاريوس	من تيراس أو ألليريا
السكرتير العام ومؤرخ الحملة	بروكوبيوس	قيصرية بفلسطين
كبير الخدم(الخصي)	سولومون	دارا
قائد سلاح الخيالة الكوميتاتينسيس	روفينوس	تيراس
قائد سلاح الخيالة الكوميتاتينسيس	آجان	قبيلة ماساجيتا (الهون)
قائد سلاح الخيالة الكوميتاتينسيس	بابوس	مقدونيا
القائد الفودراتي	جون تروجليتا	مقدونيا
قائد قبائل الحلفاء	فاراس	شعب الهيرولي
قائد قبائل الحلفاء	سينيون	شعب الهون
قائد قبائل الحلفاء	بالاس	شعب الهون
قائد سلاح المشاة الكوميتاتينسيس	جون	من ديراشيوم (إبير)
أميرال الأسطول	كالونيوموس	الإسكندرية

المصدر:

Moderan,Y.,op.cit.,p.230.